الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض

أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي

٤٧٦ هـ - ٥٤٤ هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
ت ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين الذي خلق ورزق وعلّم وأفهم وأعطى وأكرم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله خاتم النبيين أرسله الله للناس كافة .

وخير عطاء من الله هو القرآن الكريم المفسر بالسنة النبوية المطهرة وقال رسول الله ﷺ : « **تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني** ».

ودراسة السيرة النبوية العطرة جزء من دراسة السنة النبوية المطهرة ولقد اهتم العلماء بدراسة هذه السيرة العطرة لأهميتها لأنها تجسد مبادئ الإسلام.

وأنني إذ أشكر الأخ الأستاذ / أحمد أكرم الطباع صاحب دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت إذ طلب مني الإقدام على تحقيق هذا الكتاب العظيم القدر وذلك لعظم قدر صاحب الرسالة الحقة خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

والأخ الأستاذ / أحمد أكرم الطباع له اليد الطولى في إعادة طبع الكتب الإسلامية وهدفه من هذا:

١- فهم شخصية الرسول القائد والسراج المنير خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه.

٢- لكي يجعل الدارس والفاهم من سيرة رسول الله ﷺ دستوره من خلال دراسته للسيرة العطرة .

٣- أن دراسة السيرة تضع أمامنا الأحداث الإسلامية الكبرى التي من خلالها نفهم العقيدة والأخلاق السوية التي تقربنا إلى المولى عزّ وجلّ.

عملي في هذا الكتاب

١- راجعت الكتاب على مخطوطتين وأثبتُّ الخلاف بينهما إن وُجِد في هوامش الكتاب.

٢- قمت بترجمة لبعض الأعلام .

٣- خرجت الآيات القرآنية .

٤- خرجت الأحاديث النبوية الشريفة .

٥- وضعت للكتاب فهرس للآيات القرآنية .

وقد أوردت الآيات في هذا الفهرس حسب ورودها في القرآن الكريم مرقمة بالآيات ولكن أوردتها كما أوردها المؤلف في الكتاب وإن كانت جزءًا من آية.

٦- وضعت فهرس للأحاديث النبوية المطهرة كما أوردها المؤلف وإن كانت جزءًا من حديث.

٧- فهرس عام للكتاب مرتبة أبوابه وموضوعاته حسب ورودها في الكتاب.

قمت بالتعليق على بعض الكلمات وكنت قد استعنت بروافد أخرى كانت خير مورد عذب.

وفي النهاية أتوجه إلى الله العلي القدير أن يغفر لي ولوالدي ويرحمهما كما ربياني صغيرًا على دستور الإسلام وتعاليم خير الأنام وأن ينفعني بهذا العمل إن كان قد وافق الصواب وأن يغفر لي ذلتي وكل ابن آدم خطاء.

اللهم انفعنا به آمين آمين يا رب العالمين.

ترجمة القاضي عياض

الاسم: هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي السبتى الغرناطي المالكي .

تاريخ ميلاده: في سنة ست وسبعين وأربعمائة من الهجرة في منتصف شهر شعبان في بلدة سبتة بعد أن انتقل إليها والده من مدينة فاس ببلاد المغرب .

أصل النسب: ويرجع أصل المؤلف من ناحية أجداده إلى يحصب بن مالك من قبائل اليمن فابن عياض عربي الأصل أندلسي المولد والنربية .

شيوخه: هذا المؤلف العالم العلامة الجد البحر الفهامة كان له كثير من الشيوخ الذين أخذ عنهم الفقه وعلم الأصول والحديث والأدب وبلغ شيوخ القاضي عياض نحو المائة وسنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

١- القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن سعيد بن عبد الله بن سيرين الجذامي من أهل مُرْجيق.

٢- القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن رشد القرطبي الفقيه صاحب كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد الذي قمت أنا محقق هذا الكتاب بتحقيقه وقامت دار الأرقم بن أبي الأرقم لصاحبها ومديرها/ أحمد أكرم الطباع بطباعته وإخراجه في أحسن صورة.

٣- الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي الشهير بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة .

٤- القاضي حسين بن محمد بن فيرة بن حبون بن سكرة وشهرته أبو علي الصدفي.

٥- أبو عبد الله بن أحمد التغلبي وهو محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن أحمد التغلبي.

٦- الشيخ أبو علي الجياني وهو حسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني رئيس المحدثين بقرطبة وهو من مدينة الزهراء.

عمله: عمل المؤلف رحمه الله قاضيًا لبلدة سبتة في بلاد المغرب.

مذهبه: مالكي وكان هذا هو المذهب السائد في بلاد المغرب العربي.

كتبه:

أهم مؤلفات القاضي عياض.

١- كتاب الشفاء.

٢- كتاب المستنبطة [من شرح كلمات مشكلة وألفاظ مغلطة مما وقع في كتاب المدونة].

٣- القنية في أسماء شيوخه.

٤- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.

٥- الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.

٦- إكمال المعلم في شرح مسلم وهو تسعة وعشرون جزءًا.

٧- الإعلام بقواعد الإسلام.

٨- بغية الرائد لما تضمن حديث أم زرع من الفوائد.

٩- المقاصد الحسان في ما يلزم الإنسان.

١٠- نظم البرهان في صحة جزم الأذان.

١١- الفنون الستة في أخبار سبتة.

١٢- عنية الكاتب وبغية الطالب في الصدور والترسيل.

١٣- تاريخ المرابطين.

١٤- الجامع للتاريخ.

١٥- أجوبة القرطبيين.

١٦- المشارق.

وفـــاتـــه:

اختتمت حياة هذا الإمام الحافلة بالعلم النافع يوم الجمعة بمراكش من شهر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

رأي العلماء فيه :

لقد مدحه العلماء ومن ذلك على سبيل المثال.

المـــلاحـــي:

كان القاضي عياض رحمه الله بَحْرَ علم وهضبة دين وحِلْم، أحكم قراءة كتاب الله بالسبع وبلغ من معرفته الطول والعرض وبرز في علم الحديث وحمل راية الرأي ورأس في الأصول وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء .

وقد مدحه الشاعر ابن هارون بقوله:

ظلموا عياضًا وهو يحلم عنهـــم   والظلم بين العالمين قديـــم
جعلوا مكان الرأي عينًا من اسمه   كي يكتموه وشأنه معلـــوم
لولاه ما فاضت أبـــاطح سبتـــة   والروض حول فنائها معلوم

وقد مدحه ابن المقري اليمني الشافعي رحمه الله.

وكان القاضي أبو الفضل كثير الاعتناء بالتقييد والتحصيل.

وكان الإمام المقري قد ابتلي بمرض فقرأ الشفا فعافاه الله من المرض فقال هذه الأبيات:

ما بالكتاب هـواي لكن الهـــوى   أمس بما أمسى بـــه مكتوبـًا
كالدرر يهوى العاشقون بذكرهـا   شغفًا بها لشمولها المحبـــوب
أرجو الشفاء تفاؤلاً باسم الشفـا   فحوى الشفاء وأدرك المطلوبا
وبقدر حسن الظن ينتفع الفتـــى   لا سيما ظن يصيـــر مجيبـًا

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآله وسلم.

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي رضي الله عنه: الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى، المختص بالملك الأعز الأحمى، الذي ليس دونه منتهى، ولا وراءه مرمى، الظاهر لا تخيلاً ووهمًا الباطن تقدسًا لا عدمًا، وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأسبغ على أوليائه نعمًا عمًا، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم عربًا وعجمًا وأزكاهم محتدًا ومنمى، وأرجحهم عقلاً وحلمًا، وأوفرهم علمًا وفهمًا وأقواهم يقينًا وعزمًا، وأشدهم بهم رأفة ورحمى، وزكاه روحًا وجسمًا وحاشاه عيبًا ووصمًا، وآتاه حكمة وحكمًا، وفتح به أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا وآذانًا صمًا، فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسمًا، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتمًا، ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء/ ٧٢]. ﷺ صلاة تنمو وتنمى، وعلى آله وسلم تسليمًا [كثيرًا].

أما بعد أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف لي ولك بما لطف لأوليائه المتقين، الذين شرفهم الله بنزل قدسه، وأوحشهم من الخليقة بأنسه وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة، فجعلوا همهم به واحدًا، ولم يروا في الدارين غيره مشاهدًا، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، وبالانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، لهجين بصادق قوله: ﴿**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[الأنعام/ ٩١].

فإنك كررت عليَّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير، وإكرام، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك

القدر، أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا، وأئمتنا في ذلك من مقال. وأبينه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم -أكرمك الله- أنك حملتني من ذلك أمرًا إمرًا، وأرهقتني في ما ندبتني إليه عسرًا، وأرقيتني بما كلفتني مرتقى صعبًا، ملأ قلبي رعبًا فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرسالة والنبوة، والمحبة والخلة وخصائص هذه الدرجة العلية، وهاهنا مهامه فيح تحار فيها القطا، وتقصر بها الخطا، ومجاهل تضل فيها الأحلام إن لم تهتد بعلم علم ونظر سديد، ومداحض تزل بها الأقدام إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد.

لكني لَمَا رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب بتعريف قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق ﴿**لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا**﴾ [المدثر / ٣١] ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، ولما حدثنا به أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، قال: حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر النمري حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر محمد بن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد حدثنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِل عن عِلْمٍ فكَتَمه أَلجمه اللهُ بلجام من نارٍ يَوْمَ القِيَامة**»[1].

---

(١) حديث حسن: رواه أبو داود في سننه كتاب العلم (ح /٣٦٥٨) باب كراهية منع العلم (٣/ ٣٢٠) والترمذي كتاب العلم (ح/٢٦٤٩) باب ما جاء في كتمان العلم (٥/ ٢٩) وابن ماجه في سننه كتاب المقدمة (ح/ ٢٦١) باب من سئل عن علم فكتمه (١/ ٩٦) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥، ٤٩٩، ٥٠٨)، وقال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن. قال: وفي الباب عن جابر وعبد الله بن عمرو قلت: وأبي سعيد وأنس بن مالك وطلق بن علي.

فبادرت إلى نكت مسفرة عن وجه الغرض، مؤديًا من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما طوقه من مقاليد المحنة التي ابتلي بها، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وترد بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل، ولو أراد الله بالإنسان خيرًا لجعل شغله وهمه كله في ما يحمد غدًا أو يذم محله، فليس ثم سوى حضرة النعيم، أو عذاب الجحيم، ولكان عليه بخويصته، واستنقاذ مهجته وعمل صالح يستزيده، وعلم نافع يفيده أو يستفيده.

جبر الله صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا، وجعل جميع استعدادنا لمعادنا، وتوفر دواعينا في ما ينجينا ويقربنا إليه زلفى، ويحظينا بمنه [وكرمه] ورحمته.

ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدت تأصيله، وخلصت تفصيله، وانتحيت حصره وتحصيله، ترجمته: بـ«الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وحصرت الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العليّ الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً، وتوجه الكلام فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه، وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في تكميله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا، وفيه سبعة وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: في ما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته، وفيه اثنا عشر فصلاً.

الباب الرابع: في ما أظهره الله تعالى على يديه الآيات والمعجزات، وشرفه به من الخصائص والكرامات، وفيه ثلاثون فصلاً.

القسم الثاني: في ما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام ، ويترتب القول فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته، وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني : في لزوم محبته ومناصحته، وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: في تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره، وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته، وفيه عشرة فصول.

القسم الثالث: في ما يستحيل في حقه، وما يجوز عليه شرعًا، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.

وهذا القسم -أكرمك الله- هو سر الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات، وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده، وعند التقصي لموعدته، والتفصي عن عهدته، يشرق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره ويقدر العاقل النبي حق قدره. ويتحرر الكلام فيه في بابين:

الباب الأول : في ما يختص بالأمور الدينية، ويتشبث به القول في العصمة، وفيه ستة عشر فصلاً.

الباب الثاني: في أحواله الدنيوية، وما يجوز طروءه عليه من الأعراض البشرية، وفيه تسعة فصول.

القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على من تنقصه أو سبه ﷺ، وينقسم الكلام فيه في بابين:

الباب الأول: في بيان ما هو في حقه سب ونقص، من تعريض، أو نص، وفيه عشرة فصول .

الباب الثاني: في حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه وعقوبته، وذكر استتابته، والصلاة عليه، ووراثته، وفيه عشرة فصول.

وختمناه بباب ثالث جعلناه تكملة لهذه المسألة، ووصلة للبابين الذين قبله في حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه، وآل النبي ﷺ وصحبه.

واختصر الكلام فيه في خمسة فصول، وبتمامها ينتجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب، وتلوح في غرة الإيمان لمعة منيرة، وفي تاج التراجم درة خطيرة، تزيح كل لبس، وتوضح كل تخمين وحدس، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتصدع بالحق، وتعرض عن الجاهلين، وبالله تعالى -لا إله سواه- أستعين .

القسم لأول

في تعظيم العليّ الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً

قال [الفقيه] القاضي الإمام أبو الفضل رضي الله عنه: لا خفاء على من مارس شيئًا من العلم، أو خص بأدنى لمحة من فهم، بتعظيم الله تعالى قدر نبينا عليه [الصلاة و] السلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تكل عنه الإلسنة والأقلام:

فمنها ما صرح به تعالى في كتابه، ونبه به على جليل نصابه، وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحض العباد على التزامه، وتقلد إيجابه، فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى، ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءًا وعودًا، والحمد أولى وأخرى.

ومنها ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة ، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه ، وعلمها علم يقين من جاء بعده، حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، ﷺ كثيرًا.

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الحافظ، رحمه الله، قراءة مني عليه قال أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار، وأبو الفضل أحمد بن خيرون: قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي، قال: حدثنا أبو علي السنجي، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو عيسى بن سورة الحافظ، قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرازق، أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس - أن النبيﷺ أتي

بالبراق، ليلة أسري به ملجمًا مسرجًا، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقًا(١).

(١) صحيح له طرق في الصحيح: رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن (ح٣١٣٧) باب ومن = =سورة بني إسرائيل (٥/ ٣٠١) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وأحمد في مسنده (٣/ ١٦٤) وعبد بن حميد (١١٨٥) من طرق عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة به فذكره. ومن طرقه / روى البخارى في صحيحه كتاب مناقب الأنصار (ح/ ٣٨٨٧) باب المعراج (٧/ ٢٠١) ضمن حديث طويل عن أنس بن مالك، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ح/ ١٦٢) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة (١/ ١٤٥) من أنس أيضًا وأبو يعلى في مسنده (ح/ ٣٤٩٩).

الباب الأول

في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أن في كتاب الله العـزيز آيات كثيرة مفصحـة بجميل ذكر المصطفى، وعـد محاسنه، وتعظيم أمـره، وتنويه قدره، اعتمدنـا منها على ما ظهر معناه، وبان فحـواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول:

الفصل الأول

في ما جاء في المدح والثناء

فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة/ ١٢٨].

قال السمرقندي: وقرأ بعضهم: من أنفسكم - بفتح الفاء. وقراءة الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل - [وفقه الله]: أعلم الله تعالى المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين: من المواجه بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله ﷺ ولادة أو قرابة، [وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[الشورى/ ٢٣] وكونه من أشرفهم، وأرفعهم، وأفضلهم، على قراءة الفتح، وهذه نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم وأخراهم، وعزته ورأفته ورحمته بمؤمنهم.

قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف، رحيم.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

ويُزَكِّيهِمْ ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة/ ٢].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة/ ١٥١].

وروي عن عليّ بن أبي طالب، عنه ﷺ في قوله تعالى: [من أنفسكم]- قال: «نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح»(١).

[قال ابن الكلبي: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان عليه الجاهلية.

وعن ابن عباس رضي الله عنه- في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء / ٢١٩] قال من نبي إلى نبي، حتى أخرجك نبيًا].

وقال جعفر بن محمد: علم الله عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينهم وبينه مخلوقًا من جنسهم في الصورة، وألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرًا صادقًا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء/ ٨٠] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمدًا ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٧]، فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة، كما قال عليه السلام: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم»(٢) وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا

---

(١) ذكره في الدر المنثور تفسير سورة التوبة آية (١٢٨) (٤/ ٣٢٧) وقال: أخرجه ابن مردويه عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ.. وذكر الحديث.

(٢) ضعفه السيوطي في الجامع الصغير بشرحه فيض القدير (ح/ ٣٧٧٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤) عن عبد الله بن مسعود وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، =

وسلفاً»[١]. وقال السمرقندي: رحمة للعالمين: يعني للجن والإنس.

وقيل: لجميع الخلق، رحمة للمؤمن بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رحمة للمؤمنين وللكافرين، إذا عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة.

وحكي أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء»؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليَّ بقوله: **﴿ذِي قوة عند ذى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**[٢] [التكوير/ ٢٠، ٢١].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: **﴿فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾**: أي بك، إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى: **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[النور/ ٣٥].

قال كعب، وابن جبير: المراد بالنور الثاني هنا محمد عليه السلام. وقوله تعالى: **﴿مَثَلُ نوره﴾**، أي نور محمد ﷺ.

= وذكره في المطالب العالية (ح/ ٣٨٥٣) في بركته ﷺ (٤/ ٢٢، ٢٣) عن بكر بن عبد الله المزني رفعه وفي كشف الخفاء (ح/ ١١٧٨) وقال: رواه الديلمي عن أنس، وعزاه في الجامع الصغير للحارث عن أنس، ورواه ابن سعد في الطبقات ذكر ما قرب لرسول الله ﷺ من أجله (٢/ ١٤٩) به مرسلاً وذكر الشيخ الألباني في الضعيفة (ح/ ٩٧٥) وضعفه.

(١) صحيح: رواه مسلم كتاب الفضائل (ح/ ٢٢٨٨)، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها (١٥/ ٥٢)، عن أبي موسى، والبيهقي في الدلائل باب استفتاح أبي جهل عند التقاء الصفين (٣/ ٧٧) وذكره في الكنز (ح/ ٣٤٤٥٦) وعزاه لمسلم عن أبي موسى.

(٢) الشفاء.

وقال سهل بن عبد الله: المعنى: الله هادي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مثل نور محمد إذ كان مستودعًا في الأصلاب كمشكاة) صفتها كذا؛ وأراد بالمصباح قلبه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة، توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم. وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: يكاد زيتها يضيء؛ أي تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت.

وقيل في هذه الآية غير هذا. والله أعلم.

وقد سماه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نورًا وسراجًا منيرًا، فقال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾[المائدة/ ١٥].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾[الأحزاب/ ٤٥، ٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨)**﴾[الشرح] شرح: وسّع. والمراد بالصدر هنا: القلب. قال ابن عباس: شرحه بالإسلام وقال سهل: بنور الرسالة.

وقال الحسن: ملأه حكمًا وعلمًا.

وقيل: معناه ألم نُطَهر قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس. ووضَعْنا عنك وزرك الذي أنقض ظهركَ:

قيل: ما سلف من ذَنْبك - يعني قبل النبوَّة.

وقيل: أراد ثِقَل أيام الجاهلية.

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَه من الرسالة حتى بلَّغها. حكاه الماوَردي والسُّلَمي.

وقيل: عَصَمْنَاك، ولولا ذلك لأثقلتِ الذنوبُ ظهرك، حكاه السَّمَرْقَنْدي. ورفَعْنا

لك ذكْرك: قال يحيى بن آدم: بالنبُّوة. وقيل: إذا ذُ كرت ذُكرت معي قَوْلَ: لا إله إلاَّ الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأَذَان.

قال القاضي أبو الفَضْل: هذا تقريرٌ منَ الله جلَّ اسْمُه لنبيِّهﷺ على عَظيم نعَمه لَدَيْه، وشَريف مَنْزلَته عنْدَه، وكرامَته عليه، بأَنْ شرحَ قَلْبه للإيمان والهداية، ووسَّعه لوَعْي العلْم، وحَمْل الحكْمة، ورَفَعَ عنه ثقل أُمورِ الجاهلية عليه، وبغَّضَهُ لسيَرها وما كانت عليه، بظهور ديْنه على الدين كُلَّه، وحَطَّ عنه عُهدةَ أَعباء الرسالة والنبوَّة لتبليغه للناس ما نُزِّل إليهم، وتَنويهه بعظيم مَكانه، وجَليل رُتْبَته، ورفعة ذكْرَه، وقِرَانه مع اسمه.

قال قَتَادة: رفع الله ذكْرهُ في الدُّنيا والآخرة فليس خطيبٌ ولا متشهِّد ولا صاحبُ صلاة إلاَّ يقولُ: أَشهدُ أَن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ورَوَي أبو سَعيد الخُدْريَّ أن النبيﷺ قال: «**أَتاني جبريلُ عليه السلام، فقال: إن ربِّي وربَّك يقولُ: تَدري كيف رفعتُ ذكْرك؟ قلتُ: الله ورسوله أعْلَم. قال إذا ذُكِرْتُ ذُكرت معي**»(١).

قال ابنُ عَطَاء: جعلتُ تمامَ الإيمان بذكَري معك.

وقال أيضًا: جعلتُكَ ذكْري، فمَنْ ذَكَرك ذكَرني.

وقال جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ذكرني بالربوبية.

وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة.

ومن ذكره معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه، فقال تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾[آل عمران/ ٣٢]. و ﴿**آمنُوا باللَّه ورَسُوله**﴾[النساء/ ١٣٦].

فجمع بينهما بواو العطف ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه عليه السلام.

---

(١) ضعيف: فيه ابن لهيعة قال في التقريب (٣٥٦٣) صدوق خلط بعد احتراق كتبه. رواه ابن أبي يعلى في مسنده (ح/ ١٣٨٠) (٢/ ٥٢٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٥٤) وقال رواه أبو يعلى وإسناده ، وسكت .

حدثنا الشيخ أبو علي الحسين بن محمد الجياني الحافظ في ما أجازنيه وقرأته على الثقة عنه، قال: حدثنا أبو عمر النمري، قال حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود السجزي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبيﷺ، قال: **«لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاءفلان، ولكن ما شاء الله ثم شاء فلان»**(١).

قال الخطابي: أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارها بثم التي هي للنسق والتراخي، بخلاف الواو التي هي للاشتراك.

ومثله الحديث الآخر: أن خطيبًا خطب عند النبيﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما .

فقال له النبيﷺ: «بئس خطيب القوم أنت! قم». أو قال: «اذهب»(٢). قال أبو سليمان: كره منه الجمع بين الاسمين بحرف الكتابة لما فيه من التسوية.

وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على «يعصهما».

وقول أبي سليمان أصح، لما روي في الحديث الصحيح أنه قال: ومن يعصهما فقد غوى، ولم يذكر الوقوف على يعصهما .

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾[الأحزاب/ ٥٦]، هل «يصلون» راجعة على الله تعالى والملائكة أم لا؟.

---

(١) صحيح :رواه أبو داود كتاب الأدب (ح/ ٤٩٨٠) باب لا يقال خبثت نفسي (٤/ ٢٩٧) وأحمد في مسنده (٥/ ٣٨٤، ٣٩٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (ح/ ٩٨٥) باب النهي أن يقال : ما شاء الله وشاء فلان (ص٥٤٤) كلهم من طريق عبد الله بن يسار عن حذيفة به نحوه بلفظ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان».

(٢) صحيح : رواه مسلم في صحيحه كتاب الجمعة (ح/٤٨) باب تخفيف الصلاة والخطبة (١/ ٥٩٤) وأبو داود كتاب الجمعة (ح/ ١٠٩٩) باب الرجل يخطب على قوس (١/ ٢٨٧)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٥٦، ٣٧٩) والبيهقي في السنن كتاب الطهارة باب الترتيب في الوضوء (١/ ٨٦) والحاكم في مستدركه (١/ ٢٨٩) .

فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون، لعلة التشريك وخصوا الضمير بالملائكة، وقدروا الآية: إن الله يصلي، وملائكته يصلون.

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته، فقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء/ ٨٠].

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران/ ٣١، ٣٢].

روي أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: إن محمدًا يريد أن نتخذه حنانًا كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿قل أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فقرن طاعته بطاعته رغمًا لهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فقال أبو العالية، والحسن البصري: الصراط المستقيم هو رسول اللهﷺ وخيار أهل بيته وأصحابه، حكاه عنهما أبو الحسن الماوردي. وحكى مكي عنهما وقال: هو رسول اللهﷺ وصاحباه، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحكى أبو الليث السمرقندي مثله، عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة / ٧]، عن عبد الرحمن بن زيد.

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي، عن بعضهم، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة/ ٢٥٦] – أنه محمدﷺ. وقيل: الإسلام. وقيل: شهادة التوحيد.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾[سورة إبراهيم/ ٣٤] – قال: نعمته بمحمدﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَا

يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[الزمر/ ٣٣، ٣٤].

أكثر المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ.

وقال بعضهم: وهو الذي صدق به.

وقرئ: صدق - بالتخفيف.

وقال غيرهم: الذي صدق به المؤمنون. وقيل أبو بكر. وقيل عليّ. وقيل غير هذا من الأقوال.

وعن مجاهد - في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد/ ٢٨]- قال: بمحمد ﷺ وأصحابه.

الفصل الثاني
في وصفه تعالى له بالشهادة

في وصفه تعالى له بالشهادة ومـا يتعلق بها من الثناء والكرامة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾[الأحزاب/ ٤٥، ٤٦] جمع الله تعالى في هذه الآية ضروبًا من رتب الأثرة، وجملة أوصاف من المدحة، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصهﷺ، ومبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيًا إلى توحيده وعبادته، وسراجًا منيرًا يهتدى به للحق.

حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب رحمه الله، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا فليح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول اللهﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوارة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾[الأحزاب/ ٤٥]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق،، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا[١].

---

(١) صحيح: رواه البخاري كتاب البيوع (ح/ ٢١٢٥) باب كراهية الصخب في الأسواق (٤/ ٣٤٢، ٣٤٣) وفي كتاب التفسير (ح/ ٤٨٣٨) باب (إنا إرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا) (٨/ ٥٨٥) ، وفي الأدب المفرد (٢٤٦، ٢٤٧) وأحمد في مسنده (٢/ ١٧٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٢٤) وقال: أخرجه أحمد والبخاري وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، ورواه ابن أبي حاتم في التفسير (٩/ ١٣٤٠) تفسير سورة الأحزاب (ح/ ١٧٧١٢).

وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وفي بعض طرقه، عن ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة. وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس(١).

وفي حديث آخر: أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته في التوراة: «عبدي أحمد المختار، مولده بمكة، ومهاجره بالمدينة»، أو قال: «طيبة، أمته الحمادون لله على كل حال»(٢).

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[الأعراف/ ١٥٧، ١٥٨].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره تفسير سورة الاحزاب (ح/ ١٧٧١٤) (٩/ ٣١٤٠)، (١٠/ ٣١٤١).

(٢) رواه الدرامي في سننه كتاب المقدمة باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه (١/ ٤، ٥) عن أبي صالح عن كعب.

وقد قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[آل عمران/ ١٥٩].

قال السمرقندي: ذكرهم الله منَّته أنه جعل رسوله رحيمًا بالمؤمنين، رؤوفًا لين الجانب، ولو كان فظًا خشنًا في القول لتفرقوا من حوله، ولكن جعله الله تعالى سمحًا سهلاً، طلقًا برًا لطيفًا.

هكذا قاله الضحاك.

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾[البقرة/ ١٤٣].

قال أبو الحسن القابسي: أبان الله تعالى فضل نبيناﷺ، وفضل أمته بهذه الآية، وفي قوله في الآية [١٠] الأخرى: ﴿**فِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[الحج/ ٧٨]. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا**﴾[النساء/ ٤١].

قوله تعالى: وسطًا: أي عدلاً خيارًا.

ومعنى هذه الآية: وكما هديناكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمة خيارًا عدولاً، لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أممهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

وقيل: إن الله جل جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم. فتقول أممهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فتشهد أمة محمدﷺ للأنبياء، ويزكيهم النبيﷺ.

وقيل: معني الآية: إنكم حجة على كل من خالفكم، والرسول حجة عليكم، . حكاه السمرقندي.

وقال الله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾[يونس/ ٢].

وقال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾: هو محمد ﷺ، يشفع لهم.

وعن الحسن أيضًا: هي مصيبتهم بنبيهم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: هي شفاعة نبيهم محمد ﷺ، هو شفيع صدق عند ربهم.

وقال سهل بن عبد الله التستري: هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي الترمذي: هو إمام الصادقين والصديقين، الشفيع المطاع، والسائل المجاب محمد ﷺ. حكاه عنه السلمي.

الفصل الثالث
في ما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة

من ذلك قوله تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾[التوبة/ ٤٣]. قال أبو محمد مكي: قيل هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله، وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبر بالذنب.

وحكى السمرقندي عن بعضهم أن معناه: عافاك الله يا سليم القلب: لم أذنت لهم؟ قال: ولو بدأ النبيﷺ بقوله: لم أذنت لهم؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب. قال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبيﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مخيرًا فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

قال القاضي أبو الفضل: يجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمام الشريعة خلقه أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله، ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثر ما فيها من الفوائد. وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب.

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾[الإسراء/ ٧٤].

قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد الزلات، وعاتب

نبينا عليه السلام قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية.

ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه، ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته.

ومثله قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام/ ٣٣] .

قال علي رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبيﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام/ ٣٣] .

وروى أن النبيﷺ لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبريل عليه السلام قال: ما يحزنك؟ قال: «**كذبني قومي!**»[١] فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالى الآية.

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ، من تسليته تعالى له عليه السلام، وإلطافه به في القول، بأن قرر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه - قبل النبوة - الأمين، فدفع بهذا التقرير ارتماض نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام/ ٣٣] .

فحاشاه من الوصم، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء، ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[النمل/ ١٤].

ثم عزاه وآنسه بما ذكره عمن قبله، ووعده النصر بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ**

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٧/ ١١٥) تفسير سورة الأنعام وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٦٤) وقال أخرجه ابن جرير عن أبي صالح .

مَن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[الأنعام/ ٣٤].

فمن قرأ «لا يكذبونك» بالتخفيف، فمعناه: لا يجدونك كاذبًا. وقال الفراء، والكسائي: لا يقولون إنك كاذب.

وقيل: لا يحتجون على كذبك، ولا يثبتونه.

ومن قرأ بالتشديد فمعناه: لا ينسبونك إلى الكذب. وقيل: لا يعتقدون كذبك.

ومما ذكر من خصائصه وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: يا آدم، يا نوح، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى. ولم يخاطب هو إلا بـ: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر.

الفصل الرابع
في قسمه تعالى بعظيم قدره

قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر/ ٧٢].

اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ. وأصله ضم العين، من العمر، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه: وبقائك يا محمد. وقيل: وعيشك. وقيل: وحياتك.

وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى، وما ذرأ، وما برأ نفسًا - أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره.

وقال أبو الجوزاء: ما اقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد ﷺ، لأنه أكرم البرية عنده.

وقال تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ...﴾ [الآيات يس/ ١، ٢].

اختلف المفسرون في معنى «يس» على أقوال، فحكى أبو مكي [أنه] روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لي عند ربي عشرة أسماء**»(١) ذكر منها: «طه ويس» - اسمان له.

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي، عن جعفر الصادق - أنه أراد: يا سيد، مخاطبة لنبيه ﷺ.

وعن ابن عباس: يس - يا إنسان، أراد محمد ﷺ، وقال: هو قسم، وهو من أسماء الله تعالى(١).

وقال الزجاج: قيل معناه: يا محمد. وقيل: يا رجل. وقيل: يا إنسان.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٥/ ٨) وذكره في الاتحاف (٧/ ١٦٢).

وعن ابن الحنفية: يس: يا محمد.

وعن كعب: يس قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين . ثم قال: والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين.

فإن قرر أنه بين أسمائهﷺ، وضح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم. ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته، والشهادة بهدايته: أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه، ولا عدول عن الحق.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده- على تأويل من قال: إنه يا سيد - ما فيه، وقد قال عليه السلام: «**أنا سيد ولد آدم، [ولا فخر]**»[1].

وقال تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[البلد/ ١، ٢].

قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه، حكاه مكي.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٢٧٨) باب تفضيل نبيناﷺ على جميع الخلائق (٤/ ١٧٨٢) عن أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع، رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن (ح/٣٠٨/٤٣) باب ومن سورة بني إسرائيل (٣٠٨/٥) ضمن حديث طويل عن أبي سعيد، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد (ح/٤٣٠٨) باب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٠) عن أبي سعيد مثله، ورواه الطبراني في الأوسط (ح/ ٥٠٨٢) عن جابر بن عبد الله ضمن حديث طويل، وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر إلا القاسم بن عبد الله تفرد به: عبيد بن إسحاق، وأبو يعلى في مسنده (ح/ ٤٣٠٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه وأحمد في مسنده (٣/ ١٤٤، ١٤٥)، والدرامي في مسنده كتاب المقدمة باب ما أعطي النبيﷺ من الفضل (٢٨/١) عن أنس أيضًا، وأبو يعلى في مسنده (ح/٧٤٩٣) عن عبد الله بن سلام به فذكره.

وقيل: «لا» زائدة، أي أقسم به وأنت به يا محمد حلال. أو حل لك ما فعلت فيه على التفسيرين.

والمراد بالبلد عند هؤلاء مكة.

وقال الواسطي: أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيًا، وببركتك ميتًا -يعني المدينة-.

والأول أصح، لأن السورة مكية، وما بعده يصححه: قوله تعالى: ﴿**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾[البلد/ ٢].

ونحوه قول ابن عطاء في تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ**﴾[التين/ ٣] قال: أمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها، فإن كونه أمان حيث كان.

ثم قال: ﴿**وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ**﴾[البلد/ ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عام، ومن قال: هو إبراهيم وما ولد -إن شاء الله- إشارة إلى محمدﷺ، فتتضمن السورة القسم بهﷺ في موضعين.

وقل تعالى: ﴿**الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾[البقرة/ ١، ٢].

قال ابن عباس: هذه الحروف أقسام أقسم الله تعالى بها. وعنه وعن غيره فيها غير ذلك.

وقال سهل بن عبد الله التستري: الألف هو الله تعالى واللام جبريل والميم محمد ﷺ.

وحكى هذا القول السمرقندي، ولم ينسبه إلى سهل وجعل معناه: الله أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه.

وعلى الوجه الأول يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه، ثم فيه من فضيلة اسمه باسمه نحو ما تقدم.

وقل ابن عطاء - في قوله تعالى: ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾[ق/ ١، ٢] أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله.

وقيل: هو اسم للقرآن. وقيل: هو اسم الله تعالى. وقيل: جبل محيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جعفر بن محمد- في تفسير: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[النجم/ ١] أنه محمدﷺ، وقال: النجم قلب محمدﷺ: انشرح من الأنوار.

وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابن عطاء- في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[الفجر/ ١، ٢] الفجر: محمدﷺ، لأن منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس

في قسمه تعالى جده له، ليحقق مكانته عنده

قال جل اسمه: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾[الضحى/ ١ : ١١].

اختلف في سبب نزول هذه السورة، فقيل: كان ترك النبيﷺ قيام الليل لعذر نزل به، فتكلمت امرأة في ذلك بكلام. وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت السورة.

قال القاضي الإمام أبو الفضل: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له، وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى/ ١، ٢]، أي ورب الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى/ ٣]، أي ما تركك وما أبغضك. وقيل، ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[الضحى/ ٤]، قال ابن إسحاق: أي مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي ما ذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[الضحى/ ٥].

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في الدارين. والزيادة.

قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة:

وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة.

وروي عن بعض آل النبيﷺ أنه قال: ليس آية في القرآن أرجى منها[1]، ولا يرضي رسول اللهﷺ أن يدخل أحد من أمته النار.

الخامس: ما عدده تعالى عليه من نعمه، وقرره من آلائه قبله في بقية السورة، من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به على اختلاف التفاسير، ولا مال له، فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنى، ويتيمًا فحدب عليه عمه وآواه إليه.

وقيل: آواه إلى الله. وقيل: يتميًا : لا مثال لك، فآواك إليه.

وقيل: المعنى: ألم يجدك فهدى بك ضالاً، وأغني بك عائلاً، وآوى بك يتيمًا- ذكره بهذه المنن، وأنه على المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيلته ويتمه وقبل معرفته به، ولا ودعه ولا قلاه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه!.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾[الضحى/ ١١]، فإن من شكر النعمة الحديث بها، وهذا خاص له، عام لأمته.

وقال تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٤٣) عن عليّ وقال: أخرجه ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح رضي الله عنه بلفظ: «إن أرجى آية في كتاب الله . . وذكر الآية .

نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [النجم/ ١ :١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقاويل معروفة، منها النجم على ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد أنه محمد عليه السلام، وقال: هو قلب محمد.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾[الطارق/ ١ :٣] - إن النجم هنا أيضًا محمدﷺ، حكاه السلمي.

تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العد ما يقف دونه العد، وأقسم جلَّ اسمه على هداية المصطفى، وتنزيهه عن الهوى، وصدقه في ما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله- جبريل، وهو الشديد القوي.

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهائه إلى سدرة المنتهى، وتصديق بصره في ما رأى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى. وقد نبه على مثل هذا في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفه به عليه السلام من ذلك الجبروت، وشاهده من عجائب الملكوت لا تحيط به العبارات، ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول- رمز عنه تعالى بالإيماءة والكناية الدالة على التعظيم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم/ ١٠].

وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم/ ١٨]. انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى.

قال القاضي أبو الفضل: اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكية جملته عليه السلام، وعصمتها من الآفات في هذا المسرى، فزكى فؤاده ولسانه

وجوارحه: [فزكى] قلبه بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[النجم/ ١١]، ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[النجم/ ٣]، وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم/ ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[التكوير/ ١٥: ٢٥].

«لا أقسم»: أى أقسم. «إنه لقول رسول كريم»، أي كريم عند مرسله. «ذي قوة» على تبليغ ما حمله من الوحي، «مكين»: أي متمكن المنزلة من ربه، رفيع المحل عنده، «مطاع ثم»: أي في السماء. «أمين» على الوحي.

قال علي بن عيسى وغيره: الرسول الكريم هنا محمدﷺ، فجميع الأوصاف بعد على هذا له.

وقال غيره: هو جبريل، فترجع الأوصاف إليه.

ولقد رآه - يعني محمدًا. قيل: رأى ربه. وقيل: رأى جبريل في صورته.

«وما هو على الغيب بظنين»، أى: بمتهم. ومن قرأها بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمه وبعلمه، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق.

وقال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[القلم/ ١: ١٦].

أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى بما غمصته، الكفرة به، وتكذيبهم له، وأنسه. وبسط أمله بقوله - محسنًا خطابه: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون».

وهذه نهاية المبرة في المخاطبة، وأعلى درجات الآداب في المحاورة؛ ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه عد، ولا يمتن به عليه؛ فقال تعالى: ﴿**وإنَّ لكَ لأجْرًا غيرَ ممنُونٍ**﴾[القلم/ ٤] .

ثم أثني عليه بما منحه من هباته، وهداه إليه، وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد، بحرفي التأكيد؛ فقال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[القلم/ ٥]. قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس لك همة إلا الله

قال الواسطي: أثنى عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمة، وفضله بذلك على غيره؛ لأنه جبله على ذلك الخلق؛ فبسحان اللطيف الكريم، المحسن الجواد، الحميد الذي يسر للخير وهدى إليه، ثم أثنى على فاعله؛ وجازاه عليه سبحانه، ما أغمر نواله، وأوسع إفضاله؛ ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقباهم، وتوعدهم بقوله: ﴿**فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[القلم/ ٦، ٧] .

ثم عطف بعد مدحه على ذم عدوه، وذكر سوء خلقه، وعد معايبه، متوليًا ذلك بفضله، ومنتصرًا لنبيه؛ فذكر بضع عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[القلم/ ٨ : ١٥] .

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله: ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾[القلم/ ١٦]؛ فكانت نصرة الله له أتم من نصرته لنفسه، ورده تعالى على عدوه أبلغ من رده، وأثبت في ديوان مجده.

الفصل السادس
في ما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام
مورد الشفقة والإكرام

قال تعالى: ﴿**طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾[طه / ١، ٢].

قيل: طه: اسم من أسمائه عليه السلام. وقيل: هو اسم الله، وقيل: معناه يا رجل. وقيل: يا إنسان. وقيل: هي حروف مقطعة لمعان.

وقال الواسطي: أراد يا طاهر، يا هادي. وقيل: هو أمر من الوطء. والهاء كناية عنْ الأرض؛ أي اعتمد على الأرض بقدميك، ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحدة، وهو قوله تعالى: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾[طه / ٢].

نزلت الآية في ما كان النبيﷺ يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل.

أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن، وغير واحد، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أصله نقلت؛ قال: حدثنا أبو ذر الحافظ، حدثنا أبو محمد الحموي، حدثنا إبراهيم بن خزيم الشاشي، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس؛ قال: كان النبيﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿**طه**﴾ يعني طأ الأرض يا محمد، ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى**﴾[طه / ٢، ٣، ٤].

ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن معاملة.

وإن جعلنا «طه» من أسمائه عليه السلام كما قيل، أو جعلت قسمًا لحق الفضل بما قبله.

ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن**

لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف/ ٦]؛ أي قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا، أو جزعًا.

ومثله قوله تعالى أيضًا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء/ ٣]؛ ثم قال: ﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء/ ٤].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[الحجر/ ٩٤: ٩٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام/ ١٠].

قال مكي: سلاه بما ذكر، وهون عليه ما يلقى من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[فاطر/ ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذرايات/ ٥٢].

عزاه الله تعالي بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالهم لأنبيائهم قبله، ومحنتهم بهم؛ وسلاه بذلك من محنته بمثلها من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه ، وأبان عذره بقوله تعالى﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾[الذريات/ ٥٤]؛ أي أعرض عنهم؛ ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾[الذريات/ ٥٤]؛ أي في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت. ومثله قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[الطور/ ٤٨]؛ أي أصبر على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك.

سلاه الله تعالى بهذا في آي كثيرة من هذا المعني.

الفصل السابع
في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[آل عمران/ ٨١].

قال أبو الحسن القابسي: استخص الله تعالى محمداً ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًا إلا ذكر له محمدًا ونعته، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به.

وقيل: أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾: الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

ونحوه عن السدي وقتادة في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[الأحزاب/ ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء/ ١٦٣ : ١٦٦].

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام زكى به النبيﷺ ، فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب/ ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾[الأحزاب/ ٦٦].

قال قتادة: إن النبيﷺ قال: «**كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث**»[(١)] فلذلك وقع ذكره مقدمًا هنا قبل نوح وغيره.

قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبيناﷺ، لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم.

المعنى: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق، إذا أخرجهم من ظهر آدم كالذر.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة/ ٢٥٣].

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾- محمدًا ﷺ؛ لأنه بعث إلى الأحمر والأسود ، وأحلت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس

---

(١) ضعيف فيه سعيد بن بشير : قالوا في التقريب (٢٢٧٦) ضعيف . رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح/ ١٧٥٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه (٩/ ٣١١٦) (ح/ ١٧٥٩٥) ، ورواه ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٧٩) وذكره في الدر المنثور (٦/ ٥٧٠) وقال أخرجه ابن جرير .

أحد من الأنبياء أعطى فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعطى محمد ﷺ مثلها.

قال بعضهم: ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال: ﴿**يا أيها النبي**﴾، و﴿**يا أيها الرسول**﴾.

وحكى السمرقندي عن الكلبي - في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**﴾ [الصافات/ ٨٣]- أن الهاء عائدة على محمد؛ أي إن من شيعة محمد لإبراهيم؛ أي على دينه ومنهاجه. وأجازه الفراء، وحكاه عنه مكي. وقيل: المراد نوح عليه السلام.

الفصل الثامن
في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه
وولايته له ورفعه العذاب بسببه

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾[الأنفال/ ٣٣]؛ أي ما كنت بمكة، فلما خرج النبيﷺ من مكة، وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال/ ٣٣].

وهذا مثل قوله: ﴿**لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾[الفتح/ ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾[الفتح/ ٢٥]. فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ**﴾[الأنفال/ ٣٤].

وهذا من أبين ما يظهر مكانتهﷺ، ودرأ به العذاب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وفي الآية أيضًا تأويل آخر:

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي رحمه الله بقراءتي عليه، قال: حدثنا أبو الفضل ابن خيرون، وأبو الحسين الصيرفي، قالا: حدثنا أبو يعلى ابن زوج الحرة، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نمير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عباد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه؛ قال: قال رسول اللهﷺ: «أنزل الله علي أمانين لأمتي: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[الأنفال/ ٣٣]؛ **فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار**»(١).

ونحو منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٧].

وقال عليه السلام: «**أنا أمان لأصحابي**»(٢). قيل: من البدع وقيل: من الاختلاف والفتن.

قال بعضهم: الرسولﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته باقية فيه باق، فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب/ ٥٦].

---

(١) ضعيف فيه إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر قال في التقريب (٤١٧) ضعيف رواه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن (ح/ ٣٠٨٢) باب ومن سورة الأنفال (٥/ ٢٧٠) بسنده عن أبي موسى فذكر الحديث وقال: هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يضعف في الحديث، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٧) تفسير سورة الأنفال وقال: أخرجه الترمذي وذكره في الكنز (٢٠٨١) وقال: روه الترمذي عن أبي موسى.

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة (ح/ ٢٥٣١) باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه (٤/ ١٩٦١) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٩٨، ٣٩٩) وابن حبان في صحيحه كتاب إخباره عن مناقب أصحابه (ح/ ٧٢٤٩) باب فضل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم (٣/ ٢٣٥) من طرق عن أبي موسى رضي الله عنه فذكر الحديث بطول. قال الإمام النووي في شرح مسلم (١٦/ ٨٣) قال العلماء: الأمنة بفتح الهمزة والميم والأمن والأمان بمعنى، ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت، وقوله ﷺ «وأنا أمنة لأصحابى فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون» أي من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحًا وقد وقع كل ذلك وقوله ﷺ «وأصحابى أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتى ما يوعدون، معناه من ظهور البدع والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك وهذه كلها من معجزاته ﷺ.

أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ بصلواته عليه، ثم بصلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

[وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض العلماء أول قوله عليه السلام: «**وجُعلَت قُرةُ عيني في الصلاة**»(١) على هذا؛ أي في صلاة الله تعالى على ملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة]. والصلاة من الملائكة استغفار، ومنا له دعاء، ومن الله عز وجل رحمة.

وقيل: يصلون: يباركون.

وقد فرق النبي ﷺ- حين علم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة.

وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف «كهيعص»- أن الكاف من «كاف»، أي كفاية الله تعالى لنبيه، قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾[الزمر/ ٣٦]. والهاء هدايته له، قال: ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً**﴾[الفتح/ ٢]. والياء تأييده، قال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ**﴾[الأنفال/ ٦٢]. والعين عصمته له، قال: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة/ ٦٧]. والصاد: صلواته عليه؛ قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾[الأحزاب/ ٥٦].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[التحريم/ ٤]؛ مولاه أي وليه. وصالح المؤمنين: قيل: الأنبياء وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر. وقيل: عليّ. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

(١) حديث حسن: رواه الحاكم في مستدركه كتاب النكاح (ح/ ٢٦٧٦) عن أنس وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال في التلخيص: على شرط مسلم ورواه النسائي في سننه كتاب عشرة النساء باب أحب النساء (٧/ ٦١، ٦٢) وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) وأبو يعلى في مسنده (ح/ ٣٤٨٢) وأبو يعلى بلفظ: «وجعل قرة عيني في الصلاة، كلهم عن أنس رضي الله عنه به وعبد الرزاق في مصنفه كتاب الصيام (ح/ ٧٩٣٩) باب المرأة تصلى وليس في رقبتها قلادة وتطيب الرجال (٤/ ٣٢١).

الفصل التاسع

فيما تضمنته سورة «الفتح» من كراماته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح/ ١ : ١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه- ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ جل جلاله- بإعلامه بما قضاه له من القضاء البيّن بظهوره، وغلبته على عدوه، وعلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي إنك مغفور لك.

وقال مكي: جعل الله المنة سببًا للمغفرة، وكل من عنده، لا إله غيره، منة بعد منة، وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾[الفتح/ ٢]: قيل: بخضوع من تكبر عليك.

وقيل: بفـتح مكة والطائف وقـيل: يرفع ذكرك في الدنيـا وينصرك ويغـفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايتـه الصراط المستقـيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصـر العزيز، ومنته على أمـته المؤمنين بالسكينة والطمـأنينة التي جعلها في قلـوبهم، وبشارتهم بما لهم بعد، وفوزهم العـظيم، والعفو عنهم، والستر لذنوبـهم، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم وبعدهم من رحمته، وسوء منقلبهم.

ثم قال: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيــرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى الـلَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ [الأحزاب/ ٤٥، ٤٦]، ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِالـلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[الفتح/ ٩].

فعد محاسنه وخصائصه؛ من شهادته على أمته لنفسه، بتبليغه الرسالة لهم.

وقيل: شـاهدًا لهم بالتوحـيد، ومبشـرًا لأمته بالـثواب. وقيل: بالمغـفرة. ومنذرًا عدوه بالعذاب.

وقـيل: مـحـذرًا من الضـلالات ليـؤمن بالله، ثم بهﷺ من سـبـقت له من الله الحسنى.

ويعزروه: أي يجلونه. وقيل: يـنصرونه. وقيل: يبالغون في تعظيـمه. ويوقروه: أي يعظموه.

وقـرأه بعضـهم: تعززوه- بزاءين: مـن العز، والأكـثر والأظهـر أن هذا في حق محمدﷺ؛ ثم قال: «وتسبحوه»؛ فهذا راجع إلى الله تعالى.

قال ابن عـطاء: جمع للنبيﷺ في هذه السـورة نعم مخـتلفة؛ من الفـتح المبين، وهو من أعلام الإجـابة. والمغفرة، وهي من أعـلام المحبة، وتمام النعـمة. وهي من أعلام الاختـصاص. والهداية، وهي من أعلام الولايـة، فالمغفرة تبرئة مـن العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة.

وقال جعفر بن محمد: من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه، وأقسم بحياته، ونسخ

به شرائع غيره، وعرج به إلى المحل الأعلى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى ، وبعثه إلى الأحمر والأسود، وأحل له ولأمته الغنائم، وجعله شفيعًا مشفعًا، وسيد ولد آدم، وقرن ذكره بذكره، ورضاه برضاه، وجعله أحد ركني التوحيد.

ثم قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾[الفتح/ ١٠]- يعني بيعة الرضوان؛ أي إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك.

﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[الفتح/ ١٠]: يريد عند البيعة. قيل: قوة الله، وقيل: ثوابه. وقيل: منته. وقيل : عقده، وهذه استعارة، وتجنيس في الكلام، وتأكيد لعقد بيعتهم إياه. وعظم شأن المبايع ﷺ.

وقد يكون من هذا قوله تعالى: ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾[الأنفال/ ١٧]؛ وإن كان الأول في باب المجاز، وهذا في باب الحقيقة، لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله، وهو خالق فعله ورميه، وقدرته عليه ومسببه، ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت، حتى لم يبق منهم من لم تملأ عينيه، وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة.

وقد قيل في هذه الآية الأخرى إنها على المجاز العربي، ومقابلة اللفظ ومناسبته؛ أي ما قتلتموهم، وما رميتهم أنت إذ رميت وجوههم بالحصباء والتراب، ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع، أي إن منفعة الرمي كانت من فعل الله؛ فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم .

الفصل العاشر

فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم في ما ذكرناه قبل

من ذلك ما قصه تعالى في قصة الإسراء في سورة: سبحان؛ والنجم و ما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب.

ومن ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة/ ٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[الأنفال/ ٣٠].

وقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٤٠]. وما رفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحزبهم لهلكه وخلوصهم نجيًا في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار، وما ظهر في ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه، وقصة سراقة بن مالك حسب ما ذكره أهل الحديث والسير في قصة الغار، وحديث الهجرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر/ ١ : ٣].

أعلمه الله تعالى بما أعطاه. والكوثر حوضه. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوه، ورد عليه قوله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر/ ٣]. أى عدوك ومبغضك . والأبتر : الحقير الذليل ،أو المفرد الوحيد ، أو الذى لا خير فيه .

وقال تعالى: ﴿**ولقد آتيناكَ سبعا من المثاني والقرآن العظيم**﴾[الحجر/ ٨٧].

قيل: السبع المثاني السور الطوال الأول. والقرآن العظيم: أم القرآن. وقيل: السبع المثاني: أم القرآن. والقرآن العظيم: سائره. وقيل: السبع المثاني: ما في القرآن من أمر ونهي وبشرى وإنذار وضرب مثل وإعداد نعم، وآتيناك نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أم القرآن مثاني لأنها تثنَّى في كل ركعة. وقيل: بل الله تعالى استثناها لمحمد ﷺ، وذخرها له دون الأنبياء. وسمي القرآن مثاني؛ لأن القصص تثنى فيه. وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة: قال: ﴿**وأنزلْنا إليْكَ الذكْرَ لتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليْهِمْ ولعلَّهُمْ يتفكَّرُونَ**﴾[النحل/ ٤٤]. وقال: ﴿**وما أرْسلْناكَ إلاَّ كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونذيراً**﴾[سبأ/ ٢٨]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إني رَسُولُ اللَّه إليْكُمْ جميعًا الَّذي لهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ لا إلهَ إلاَّ هُو يُحْيِي ويُميتُ فآمنُوا باللَّه ورسُوله النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمنُ باللَّه وكلماته واتَّبعُوهُ لعلَّكُمْ تهْتدُونَ**﴾[الأعراف/ ١٥٨]. قال القاضي: فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿**وما أرْسلْنا من رَسُولٍ إلاَّ بلسانِ قوْمه ليُبيِّنَ لهُمْ**﴾[إبراهيم/ ٤]؛ فخصهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة، كما قال عليه السلام: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(١).

---

(١) صحيح: رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة (ح/ ٤٨٩) باب في المواضع التي لا يجوز فيها الصلاة (١/ ١٣٠) عن أبي ذر مختصراً، وأحمد في مسنده (٥/ ١٤٥، ١٤٧) والحاكم في مستدركه (٢/ ٤٢٤) كتاب التفسير تفسير سورة سبأ (ح/ ٣٥٨٧) بلفظ «أرسلت إلى الأحمر، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة إنما أخرجا ألفاظا من الحديث متفرقة ووافقه الذهبي. وابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ (ح/ ٦٤٦٢) باب ذكر البيان بأن قوله ﷺ «شفاعتي لأمتي»، أراد به من لم يشرك بالله منهم دون من أشرك (١٤/ ٣٧٥)، وأورده الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥٩) وعزاه لأحمد، وقال: ورجاله رجال =

وقال تعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب/ ٦].
قال أهل التفسير أولى بالمؤمنين من أنفسهم: أي ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماض عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأى النفس.

وأزواجه أمهاتهم؛ أي هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرم نكاحهن عليهم بعده، تكرمة له وخصوصية ، ولأنهن له أزواج في الآخرة.

وقد قرئ: وهو أب لهم. ولا يقرأ به الآن لمخالفته المصحف. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء/ ١١٣].

قيل: فضله العظيم بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى، صلى الله عليهما .

= الصحيح، وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمدًا ﷺ (ح/ ١٢) (٧/ ٤١١).

الباب الثاني
في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريمﷺ، الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم- أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا؛ ومكتسب ديني؛ وهو ما يحمد فاعله، ويقرب إلى الله تعالى زلفى.

ثم هي على فنين أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين. ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه؛ ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه.

وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقوانين الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية: من الدين، والعلم والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جماعها حسن الخلق.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض لناس. وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنبينه إن شاء الله .

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة؛ ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضليها.

الفصل الأول

الكمال والجمال

إذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يشرف بواحدة منها أو باثنتين إن تفقت له - في كل عصر، إما من نسب أو جمال، أو قوة، أو علم، أو حلم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظم قدره، ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب إثرة وعظمة، وهو منذ عصور خوال رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة، والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء، والرؤية، والقرب والدنو، والوحي، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنذارة والمكانة عند ذي العرش والطاعة ثم، والأمانة والهداية ورحمة للعالمين. وإعطاء الرضا والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة ، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والإغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب ، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصا، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به، لا إله غيره، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة ، ودرجات القدس، ومراتب السعادة والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون أدانيها الوهم.

الفصل الثاني
صفاته الخلقيةﷺ

إن قلت - أكرمك الله : لا خفاء على القطع بالجملة أنهﷺ أعلى الناس قدرًا، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلاً، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلاً شوقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلاً . . . . فاعلم - نور الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك - أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هى غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته حائزًا لجميعها، محيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائها في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث عليّ، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وابن أبي هالة، وأبي جحيفة، وجابر بن سمرة، وأم معبد، وابن عباس، ومعرض بن معيقيب، وأبي الطفيل، والعداء بن خالد، وخريم ابن فاتك، وحكيم بن حزام، وغيرهم، من أنهﷺ كان أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدب الأشفار، أبلج، أزج، أقنى، أفلج، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، دقيق المسربة، ربعة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طالهﷺ، رجل الشعر، إذا افتر ضاحكًا افتر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من ثناياه، أحسن الناس عنقًا، ليس بمطهم ولا مكلثم، متماسك البدن، ضرب اللحم.

قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر.

وقال جابر بن سمرة - وقال له رجل: كان وجهه -ﷺ- مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرًا.

وقالت أم معبد- في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب [ﷺ كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون].

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر.

وقال عليّ رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة، فلا نطول بسردها.

وقد اختصرنا في وصفه نكت ما جاء فيها، وجملة مما فيها الكفاية في القصد إلى المطلوب، وختمنا هذه الفصول بحديث جامع لذلك تقف عليه هناك إن شاء الله.

الفصل الثالث
نظافته ﷺ

وأما نظافة جسمه، وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد - فكان قد خصه الله في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشرة، وقال: «**بني الدين على النظافة**»(١).

حدثنا سفيان بن العاصي وغير واحد، قالوا: حدثنا أحمد بن عمر. حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، [قال]: حدثنا قتيبة، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، قال: «ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ».

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده؛ قال: فوجدت ليده بردًا وريحًا، كأنما أخرجها من جونة عطار.

قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها.

ونام رسول الله ﷺ في دار أنس فعرق، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.

وذكر البخاري في تاريخه الكبير، عن جابر، لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه.

وذكر إسحاق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب ﷺ.

[وروى المزني، عن جابر: أردفني النبي ﷺ خلفه، فالتقمت خاتم النبوة بفمي، فكان ينم على مسكًا].

(١) ضعيف: ذكره في الإتحاف (٢/٣٠٣، ٣١١) وفي كشف الخفاء (٩٢٢) (١/٢٨٨) ونقل كلام العراقي في تخريج الإحياء أنه لم يجده، وقال وخرجه ابن حبان في الضعفاء بلفظ آخر.

وقد حكى بعض المعتنين بأخـباره وشمائله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يتـغوط انشقت الأرض فابتلعت غائطه وبوله، وفاحت لذلك رائحة طيبة ﷺ.

[وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي في هذا خبرًا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: إنك تأتي الخلاء فـلا نرى منك من الأذى! فقال: «**يا عائشة، أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء، فلا يرى منه شيء**»[1].

وهـذا الخبر وإن لم يكن مشهـورًا فـقـد قـال قوم من أهل لعلم بطهارة الحدثين منه ﷺ. وهو قول بعض أصـحاب الشافعـية، [حكاه الإمام أبو نصر بن الصـباغ في شامله].

وقـد حكى القـولين عن العـلماء في ذلك أبو بكر بن سـابق المالكي في كـتـابه البـديع في فروع المالـكية، وتخـريج مـا لم يقع لهم منهـا علي مذهبـهم من تفـاريع الشافعية.

وشاهدُ هذا أنه ﷺ لم يكن منه شيء يكره، ولا غير طيب.

ومنه حـديث عليّ رضي الله عنه: غسلت الـنبي ﷺ، فذهبت أنظر مـا يكون من الميت لم أجد شيـئًا؛ فقلت: طبت حيًا وميتًا، [قال: وسطعت منه ريح طـيبة لم نجد مثلها قط].

ومثله قال أبو بكر رضي الله عنه حين قبل النبي ﷺ بعد موته.

---

(١) موضوع: رواه في العلل المتـناهية (ح/ ٢٨٨، ٢٨٩) كـتاب الفـضائل والمثالـب باب ابتلاع الأرض لحدثه (أ / ١٨٧، ١٨٨) قـال المصنف : هذا لا يصح أما الطريق الأول ففيـه الحسين ابن علوان كذبه أحمد ويحيى، وقال النسـائي وأبو حاتم والدارقطني: متروك الحديث، وقال ابن عدي: كان يضع الحديث، وأما الطريق الثاني: فقال الدارقطني تفرد به محمد بن حسان قال أبو حاتم الرازي كان كذابًا. ورواه أبو نعـيم في أخبار أصفهان (١/ ١٧٦) نحوه وإسناده ضعيف أيضًا، وابن حـبان في المجروحين (١/ ٢٤٥، ٢٤٦) وقال ابن حـبان: وليس لهذه الأحاديث كلها أصول لأنها كلها موضوعـة إلا حديث السخاء فإنه يعرف من حديث الأعرق عن أبي هريرة ورواه الخطيب في التاريخ عن عائشة نحوه (٨/ ٦٢) (ت/ ٤١٣٨)

ومنه شــرب مالك بن سنان دمــه يوم أحد، ومصــه إياه، وتسويغــه ﷺ ذلك له، وقوله «**لن تصبيه النار**»[١].

ومثله شرب عبـد الله بن الزبير دم حجامته؛ فـقال له عليه السلام: «**ويل لك من الناس، وويل لهم منك**»[٢]. ولم ينكره عليه.

وقد روي نحــو من هذا عنه في امرأة شــربت بوله؛ فقــال لها: «**لن تشتكي وجع بطنك أبدًا**»(٣) ولم يأمر واحدًا منهم بغسل فم، ولا نهاه عن عودة.

وحديث هذه المرأة التــي شربت بوله[٣]: صحيح ألزم الدارقطني مـسلمًا والبخاري إخراجه في الصحيح، واسم هذه المرأة بركة. واختلف في نسبها.

وقيل : هي أم أيمن : وكــانت تخدم النبيﷺ، قالت: وكان لرســول اللهﷺ قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيها من الليل، فبال فيه ليلة، ثم افتقده، لم يجد فيه شيئًا. فسأل بركة عنه؛ فقالت: قمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم.

روى حديثها ابن جريج وغيره.

وكانﷺ قد ولد مختونًا مقطوع السرة.

[وروي عن أمه آمنة أنها قالت: قد ولدته نظيفًا ما به قذر].

---

(١) ضعيف: فيه محمد بن حميـد بن حيان قال في التقريب (٥٨٣٤) حافظ ضعيف وعلي بن مجاهد (٤٧٩٠) متروك، وليس في شيوخ أحمد أضعف منه، رواه الدارقطني في سننه كتاب الطهارة (ح/٣) باب بيان الموضع الذي يجوز فيه الصلاة وما يجوز فيه من الثياب (١/ ٢٢٨).

(٢) مناهل الصفا ص٨.

(٣) رواه النسائي في سننه كتاب الطهارة باب البـول في الإناء (١/ ٣١) وقال السيوطي في شرحه على النسائي (١/ ٣١) هذا مخـتصر، وقد أتمه ابن عبـد البر في الاستيعـاب فقال: (٣٢٨٧) (٤/ ٣٥٦ ، ٣٥٧) بسنده أن النبيﷺ كـان يبول في قـدح من عيدان ويوضـع تحت سريره فبال فيــه ليلة فوضعه تحت سريره، فجـاء فإذا القدح ليس فيه شيء ، فقــال لأمرأة يقال لها بركة – كانت تخدمه لأم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة «البول الذي كان في هذا القدح ما فعل»؟ فقالت: شربته يا رسول الله قال الحاكم في المستدرك : هذه سنة غريبة .

وعن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت فرج رسول الله قط.

وعن علي رضي الله عنه: أوصاني النبيﷺ لا يغسله غيري: «**فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه**»[١].

وفي حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما - أنه ﷺ نام حتى سمع له غطيط، فقام فصلى ولم يتوضأ - قال عكرمة: لأنه ﷺ كان محفوظًا.

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٥/ ٢٤٨) و رواه البيهقي في الدلائل في جماع أبواب مرض رسول اللهﷺ باب ما جاء في غسل رسول اللهﷺ ، وما ظهر في ذلك من آثار النبوة (٧/ ٢٤٤).

الفصل الرابع
فصاحة لسانه ﷺ

وأما وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله - فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم.

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة؛ وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحقيقه.

وقد قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتابًا، فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأيًا.

وفي رواية أخرى: فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدأ الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من [بين] رمال الدنيا.

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، وبه فسر قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[الشعراء/ ٢١٩].

وفي الموطأ عنه عليه السلام: «**إني لأراكم من وراء ظهري**»[(١)].

---

(١) صحيح : رواه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة (ح/ ٤١٨) باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة وذكر القبلة (١/ ٥١٤) ومسلم في صحيحه كتاب الصلاة (ح/ ٤٢٤) باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (١/ ٣١٩)، أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٣، ٣٧٥) والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل (ح/ ٣٧١٢) باب علامات النبوة (١٣/ ٢٨٩) وقال: متفق على صحته، ومالك في الموطأ كتاب قصر الصلاة في السفر (ح/ ٧٣) باب العمل في جامع الصلاة (١/ ١٢١).

ونحوه - عن أنس في الصحيحين، وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادة زاده الله إياها في حجته.

وفي بعض الروايات: «**إني لأنظر من ورائي كما أنظر إلى من بين يدي**»(١).

وفي أخرى: «**إني لأبصر من قفاي كما أبصر من بين يدي**»(٢).

وحكى بقي بن مخلد، عن عائشة؛ [قالت]: كان النبي ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء(٣).

والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين.

ورفع النجاشي له حتى صلى عليه، وبيت المقدس حين وصفه لقريش، والكعبة حين بنى مسجده.

وقد حكي عنه ﷺ أنه كان يرى في الثريا أحد عشر نجمًا.

وهذه كلها محمولة على رؤية العين، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره.

وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم، والظواهر تخالفه، ولا إحالة في ذلك، وهي من خواص الأنبياء وخصالهم، كما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه؛ حدثنا أبو الحسن المقري الفرغاني، حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر عن أبيها، حدثنا الشريف أبو الحسن عليّ بن محمد الحسني، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد،

---

(١) رجاله ثقات: أورد الهيثمي في المجمع (٢/ ٨٩) باب في الصف للصلاة. وقال: رواه البزار ورجاله ثقات عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مناهل الصفا ص ٩.

(٣) موضوع: رواه في العلل المتناهية كتاب الفضائل (ح/ ٢٦٦) باب أنه يبصر في ظلمة (١/ ١٧٣، ١٧٤) وقال المؤلف: هذا حديث لا يصح قال العقيلي: عبد الله بن محمد بن المغيرة يحدث بما لا أصل له، وعباس بن الوليد كان ابن المديني يتكلم فيه، وابن عدي في الكامل (٤/ ٢١٩) وقال الشيخ: وهذا الحديث عن هشام بن عروة يرويه ابن المغيرة، وعنه زهير بن عباد، والخطيب البغدادي في التاريخ (٤/ ٢٧٢) وفي الضعيفة (ح/ ٣٤١)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٧٤، ٧٥) وقال: هذا إسناد فيه ضعف وروى ذلك من وجه آخر ليس بالقوى.

حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق، حدثنا همام، قال: حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيى بن وثاب، عن أبي هريرة، عن النبيﷺ؛ قال: «**لما تجلي الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ**»(١): ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى.

وقد جاءت الأخبار بأنه صرع ركانة أشد أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام، وصارع أبا ركانة في الجاهلية، وكان شديدًا، وعاوده ثلاث مرات، كل ذلك يصرعه رسول اللهﷺ.

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحدًا أسرع من رسول اللهﷺ في مشيه، كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث.

وفي صفته أن ضحكه كان تبسمًا، إذا التفت التفت معًا، وإذا مشى مشى تقلعًا كأنما ينحط من صبب(٢).

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور تفسير سورة الأعراف (٣/ ٥٤٥) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) رواه الترمذي في سننه كتاب المناقب (ح/ ٣٦٤٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٠٥) وعبد الله ابن أحمد في الزوائد (٥/ ٩٧، ١٠٥) والحاكم في مستدركه (٢/ ٦٠٦)، والبيهقي في الدلائل (١/ ٢١٢) وفي الشمائل للترمذي (ح/ ٢٢٠)، قال ابن قيم الجوزية في زاد المعاد (١/ ١٨٣) وللضحك أسباب عديدة، أحدها: أن يضحك مما يُضحك منه وهو ما يتعجب من مثله ويستغرب وقوعه ويستندر والثاني: ضحك الفرح وهو أن يرى ما يسره أن يباشره، والثالث: ضحك الغضب، وهو كثيرًا ما يعتري الغضبان إذا اشتد غضبه، وسببه تعجب الغضبان مما أورد عليه الغضب وشعور نفسه بالقدرة على خصمه، وأنه في قبضته، وقد يكون ضحكه لملكه نفسه عند الغضب، وإعراضه عمن أغضبه وعدم اكتراثه به.

الفصل الخامس

فصاحة لسانه وبلاغته ﷺ

وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيرًا من أصحابها يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه؛ وليس كلامه مع قريش والأنصار، وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن.

وانظر كتابه إلى همدان: «**إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها، تأكلون علافها وترعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل، والفارض والداجن والكبش الحوري، وعليهم فيها الصالغ والقارح**»[1].

وقوله لنهد: «**اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلمًا، ومن آتى**

---

(١) موضوع: رواه في العلل المتناهية كتاب الفضائل (ح/ ٢٨٤) باب ذكر الوفود (١/ ١٨٤، ١٨٥) عن علي رضي الله عنه، وقال المصنف: هذا لا يصح وفيه مجهولون وضعفاء منهم النسائي وأكذب الكلبي: البلوي، وذكره في الكنز (٢١٦٠٧)، وعزاه لابن الجوزي في الواهية وفي جمع الجوامع (٩٩٢٧) وعزاه لابن الجوزي.

الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة»[1].

وكتب لهم: « **في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الرماق، وتأكلوا الرباق، من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي فعليه الربوة»**[2].

ومن كتابه لوائل بن حجر:

«**إلى الأقيال العباهلة، والأرواع المشابيب**».

وفيه: «**في التيعة شاة، لا مقورة الألياط، ولا ضناك، وأنطوا الثبجة، وفي السيوب الخمس. ومن زنى مم بكر فاصعقوه مائة، واستوفضوه عامًا، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام. ووائل بن حجر يترفل على الأقيال**»[3].

أين هذا من كتابه لأنس في الصدقة المشهور. لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد، وبلاغتهم على هذا النمط، وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم، ليبين للناس ما نزل إليهم، وليحدث الناس بما يعلمون.

وكقوله في حديث عطية السعدي: «**فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة**»[4].

(١-٢) نفس الحديث السابق.

(٣) رواه البيهقي في الشعب (ح/ ١٤٣٣، ١٤٣٤) باب في حب النبيﷺ (٢/ ١٥٩).

(٤) رجاله ثقات: رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٢٦) وعبد الرزاق في مصنفه كتاب الوصايا (ح/ ١٦٤٠٦) باب الرجل يعطي ماله كله (٩/ ٧٦) والطبراني في الكبير (ح/ ٤٤١) (١٧/ ١٦٦) وفي الأوسط (ح/ ٢٩٩٢) (٣/ ٢٢٦) وقال: لم يرو هذا الحديث عن سماك بن الفضل إلا معمر وعبد بن حميد في «المنتخب»، (٤٨٥) وذكره في المجمع (٣/ ٩٧، ٩٨) وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير إلا أنه قال: عن عطية، وقال: ورجال أحمد ثقات، كلهم من طرق عن عطية السعدي.

قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

وقوله في حديث العامري حين سأله، فقال له النبي ﷺ: «سل عنك». أي سل عم شئت، وهي لغة بني عامر.

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة - فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، وفيها ما لا يوازي فصاحة، ولا يبارى بلاغة؛ كقوله: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[(١)].

وقوله: «**الناس كأسنان المشط**»[(٢)]. و«**المرء مع من أحب**»[(٣)]. و«**لا خير في صحبة**

---

(١) حديث حسن: رواه أبو داود في سننه كتاب الجهاد (ح/ ٢٧٥١) باب في السرية ترد على أهل العسكر (٣/ ٨١) وابن ماجه في سننه كتاب الديات (ح/ ٢٦٨٥) باب المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢/ ٨٩٥) والبيهقي في السنن كتاب الجنايات باب فيمن لا قصاص بينه باختلاف الدينين (٨/ ٢٩) والبغوي في شرح السنة كتاب القصاص (ح/ ٢٥٣٢) باب لا يقتل مؤمن بكافر (١٠/ ١٧٢، ١٧٣) وأحمد في مسنده (٢/ ١٩٢) وعبد الرزاق في مصنفه كتاب الديات (ح/ ١٨٥٠٦) باب قود المسلم بالذمي (١٠/ ٩٩) والنسائي في سننه كتاب القسامة باب سقوط القود من المسلم للكافر (٨/ ٢٤) كلهم من طرق عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة.

(٢) موضوع: فيه سليمان بن عمرو النخعي قال في الجرح والتعديل (٤/ ١٣٢) كذاب رواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٤٨) عن أنس رضي الله عنه وفي التاريخ للخطيب (٧/ ٥٧) عن الحسن وفيه بشر بن غياث المريسي، وذكره في الكنز (ح/ ٢٤٨٢٢، ٢٤٨٢٣) وقال: عن الحسن ابن سفيان وابن بشر الدولابي والعسكري في الأمثال، وابن عساكر عن سهل بن سعد، وابن عدي عن أنس، وفي اللآلئ (٢/ ٢٩٠) عن سهل بن سعد من طريقين وكلاهما ضعيف.

(٣) صحيح: رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب (ح/ ٥١٢٧) باب إخبار الرجل بمحبته إليه (٤/ ٣٣٥) وأحمد في مسنده (٣/ ١٥٩، ٢٢١، ٢٢٨) وعبد بن حميد (١٢٦٥)، من طرق عن ثابت عن أنس به فذكره، والترمذي في سننه كتاب الزهد (ح/ ٢٣٨٦) باب ما جاء أن المرء مع من أحب.

من لا يرى لك ما ترى له»(١). و«الناس معادن»(٢). و «ما هلك امرؤ عرف قدره»(٣). و«المستشار مؤتمن، وهو بالخيار ما لم يتكلم»(٤). و«رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»(٥).

وقوله: «أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»(٦). و«إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذي يألفون ويؤلفون»(٧).

---

(١) تقدم في الحديث رقم ٣ ص ٧٣.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب (ح/٣٥٨٨) باب علامات النبوة (٦/ ٦٠٤) ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة (ح/ ٢٥٢٦) باب خيار الناس (٤/ ١٩٥٨) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥٧، ٢٦٠، ٣٩١، ٤٣٨، ٤٨٥، ٤٩٨، ٥٢٥، ٥٣٩) (٣/ ٣٦٧)، والبغوي في شرح السنة كتاب العلم (ح/ ١٣٣) باب التفقه في الدين (١/ ٢٨٦)، والحميدي في مسنده (٦٤٠١).

(٣) مناهل ص ١١ والشفا.

(٤) حسن: رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب (ح/ ٥١٢٨) باب في المشورة (٤/ ٣٣٥) والترمذي في سننه كتاب الأدب (ح/ ٢٨٢٢) باب إن المستشار مؤتمن وقال: هذا حديث حسن عن أبي هريرة و(ح/ ٢٨٢٣) عن أم سلمة وقال: حديث غريب، (٥/ ١٢٥، ٢١٦)، وابن ماجه في كتاب الأدب (ح/ ٣٧٤٥) باب المستشار مؤتمن (٢/ ١٢٣٣) وأحمد في مسنده (٥/ ٢٧٤) والدارمي في سننه كتاب السير باب المستشار مؤتمن (٢/ ٨١٩) عن أبي مسعود الأنصاري، والبيهقي في السنن كتاب آداب القاضي باب من يشاور (١٠/ ١١٢).

(٥) ضعيف في إسناده مجهول، والحديث حسن لكثرة طرقه، رواه ابن المبارك في الزهد (ح/ ٣٧٠) باب حفظ اللسان (١/ ١٢٥) وذكره في الإتحاف (٧/ ٤٥٣، ٥٧٩) وفي كشف الخفا (١٣٧٤) نحوه رواه الديلمي في الفردوس (ح/ ٣٠٢٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه نحوه والطبراني في الكبير (ح/ ٧٧٠٦).

(٦) صحيح: رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير (ح/ ١٧٧٣) باب كتاب النبيﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٣/ ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦) وأحمد في مسنده (١/ ٢٦٣) والبيهقي في السنن كتاب السير باب إظهار دين النبيﷺ على الأديان (٩/ ١٧٨) عن ابن عباس نحوه والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٨٤).

(٧) صحيح بشواهده رواه ابن أبي شيبة كتاب الأدب باب ما ذكر في حسن الخلق (٦/ ٨٨) ورواه البيهقي في الكبرى كتاب الشهادات باب بيان مكارم الأخلاق (١٠ / ١٩٤) وأحمد في=

وقوله: «**لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه**»(١).

وقوله: «**ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا**»(٢).

ونهيه عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات»(٣).

وقوله: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»(٤).

[وقوله]: «**وخير الأمور أوساطها**»(٥).

= مسنده (٤/ ١٩٣، ١٩٤)، والبغوي في شرح السنة كتاب الاستئذان (ح/ ٣٣٩٥) باب ذم البيان والتنطع (١٢/ ٣٦٦، ٣٦٧)، وابن حبان في صحيحه كتاب البر والإحسان (ح/ ٤٨٣) باب حسن الخلق (٢/ ٢٣٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح. وله شاهد عن أبي هريرة: رواه الطبراني في الأوسط (٧٦٩٧) وقال: لم يرو هذا الحديث عن الجريري إلا صالح المري، وعن أبي ذر رواه الطبراني في الكبير (ح/ ١٦٢٨) وعن جابر رواه الترمذي في صحيحه كتاب البر والصلة (ح/ ٢٠١٨) باب ما جاء في مغالي الأخلاق (٤/ ٣٧٠) والخطيب في التاريخ (٤/ ٦٣).

(١) ذكره في الإتحاف (٩/ ٢٢٦) وفي الترغيب كتاب الأدب (ح/ ٤٠٧٣) باب الترغيب في الصمت إلا عن خير والترهيب من كثرة الحديث (٥/ ١٧٤).

(٢) الشفا .

(٣) صحيح: رواه مسلم في كتاب الأقضية (ح/ ٥٩٣) باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (٣/ ١٣٤٢).

(٤) صحيح: رواه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة (ح/ ١٩٨٧) باب ما جاء في معاشرة الناس (٤/ ٣٥٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧) والدارمي في سننه كتاب الرقائق باب إن الله كره لكم قيل وقال (٢/ ٣١٠، ٣١١) والحاكم في مستدركه (ح/ ١٧٨) كتاب الإيمان (١/ ٥٤) وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه البيهقي في السنن كتاب صلاة الخوف باب ما ورد من التشديد في لبس الخز (٣/ ٢٧٣)، وفي الكنز (٥٣٣٠) وعزاه البيهقي وقال: عن عمرو بن الحارث بلاغًا.

وقوله: «**أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما**»[١].

وقوله: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[٢].

وقوله في بعض دعائه: «**اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها أُلفتي، وتعصمني بها من كل سوء.**

اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء»[٣].

(١) ضعيف: رواه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة (ح/ ١٩٩٧) باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (٤/ ٣٦٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا، رواه الحسن بن أبي جعفر وهو حديث ضعيف أيضًا، بإسناد له عن علي عن النبي ﷺ والصحيح عن علي موقوف قوله وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٩٨) عن أبي هريرة وفي (٢/ ١٧٢) عن ابن عمر مختصرًا وفي كشف الخفا (٣٠) (١/ ٥٣) وفي الكنز (٢٤٧٤٢) ورواه البيهقي في الشعب (ح/ ٦٥٩٣) باب الاقتصاد في النفقة (٥/ ٢٦٠) عن علي موقوفًا.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب المظالم (ح/ ٢٤٤٧) باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٥/ ١٠٠) ومسلم في صحيحه كتاب البر والصلة (ح/ ٢٥٧٩) باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٦) والترمذي في سننه كتاب البر والصلة (ح/ ٢٠٣٠) باب ما جاء في الظلم (٤/ ٣٧٧) وقال: حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، ورواه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٧، ١٥٦) والبيهقي في السنن كتاب الغصب باب تحريم الغصب وأخذ أموال الناس بغير حق (٦/ ٩٣) وفي كتاب آداب القاضي باب جماع أبواب ما على القاضي (١٠/ ١٣٤) والبغوي في شرح السنة كتاب الرقاق (ح/ ٤١٦٠)(باب وعيد الظالم (١٤/ ٣٥٦).

(٣) ضعيف فيه ابن أبي ليلى قال في التقريب (٦٠٨١) صدوق سيء الحفظ رواه الترمذي في سننه كتاب الدعوات (ح/ ٣٤١٩) (ب/ ٣٠) (٥/ ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي ليلى من هذا الوجه وابن خزيمة في صحيحه كتاب أبواب ذكر الوتر وما فيه من السنن (ح/ ١١١٩) باب الدعاء بعد ركعتي الفجر (٢/ ١٦٥، ١٦٦) وفي إسناد ابن أبي ليلى قال في التقريب (٦٠٨١) سيء الحفظ والطبراني في الكبير (ح/ ١٠٦٦٨) (١٠/ ٣٤٣)، وابن حبان في المجروحين (١/ ٢٣٠، ٢٣١) كلهم من طرق مختلفة بألفاظ متقاربة ضمن حديث طويل عن ابن عباس به.

إلى ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقًا لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها؛ كقوله: «**حمي الوطيس**». «**ومات حتف أنفه**». و«**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»(١). و«**السعيد من وعظ بغيره**»(٢) . . . وفي أخواتها مما يدرك الناظر العجب في مضمنها، ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك. فقال: «**وما يمنعني؟ وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين**».

وقال مرة أخرى: «**بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد**»؛ فجمع له بذلك - ﷺ- قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشري.

وقالت أم معبد في وصفها له:

حلوالمنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن. وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ.

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب (ح/ ٦١٣٣) باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (١٠/ ٥٢٩) ومسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق (ح/ ٢٩٩٨) باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٤/ ٢٢٩٥) وأبو داود في سننه كتاب الأدب (ح/ ٤٨٦٢) باب فى الحذر من الناس (٤/ ٢٦٨) ، وابن فى سننه كتاب الفتن (ح/ ٣٩٨٢) باب العزلة (٢/ ١٣١٨) والدارمي في سننه كتاب الرقاق باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٢/ ٣١٩) وأحمد في مسنده (٢/ ١١٥، ٣٧٩) والبغوى في شرح السنة كتاب الاستئذان (ح/ ٣٥٠٧) باب الحذر (١٣/ ٨٧) والبيهقي في السنن كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما جاء من الإمام على من رأي من الرجال البالغين من أهل الحرب (٦/ ٣٢٠).

(٢) صحيح : رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر (ح/ ٢٦٤٥) باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه (٤/ ٢٠٣٧) والطبراني في الكبير (ح/ ٣٠٣٦) (٣/ ١٩٤) وأحمد في مسنده (٤/ ٦، ٧) وفي الإتحاف (١٠/ ٢٣٥) وهي من كلام ابن مسعود وليست من قوله ﷺ.

الفصل السادس

شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه ﷺ

وأما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفرًا من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده.

حدثنا قاضي القضاة حسين بن محمد الصدفي رحمه الله، قال: حدثنا القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف، حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد، حدثنا أبو محمد السرخسي، وابن إسحاق، وأبو الهيثم: [قالوا]: حدثنا محمد بن يوسف، [قال]: حدثنا محمد ابن إسماعيل، [قال]: حدثنا قتيبة بن سعيد؛ [قال]: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه**»(١).

وعن العباس، قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسا، وخيرهم بيتًا**» (٢).

وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا،**

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب (ح/٣٥٥٧) باب صفة النبي ﷺ (٦/ ٥٦٦) وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٣).

(٢) حديث حسن: رواه الترمذي في سننه كتاب المناقب (ح/ ٣٦٠٧) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٤) وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في مسنده (١/ ٢١٠) وفي جمع الجوامع (٤٨١٧) وعزاه للترمذي عن العباس بن عبد المطلب به فذكره.

واصطفى من قريش بن هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[١].

قال الترمذي: وهذا حديث صحيح.

وفي حديث عن ابن عمر، رواه الطبري - أنه ﷺ قال: «**إن الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار [منهم قريشًا، ثم اختار قريشًا فاختار منهم] بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خيارًا من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم**»[٢].

وعن ابن عباس: إن قريشًا كانت نورًا بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: «**فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط**»[٣].

ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس في مدح النبي ﷺ المشهور.

(١) حديث صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٢٧٦) باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢) ورواه الترمذي في سننه كتاب المناقب (ح/ ٣٦٠٥) باب فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل (ح/ ٣٦١٣) باب فضائل سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ (١٣/ ١٩٤) من طرق عن واثلة بألفاظ متقاربة، والبيهقي في دلائل النبوة باب ذكر شرف أصل رسول الله ﷺ ونسبه (١/ ١٦٥، ١٦٦) وفي السنن كتاب النكاح باب اعتبار النسب في الكفاءة (٧/ ١٣٤) وفي شعب الايمان باب في حب النبي ﷺ (ح/ ١٣٩١) في شرف أصله وطهارة مولده (٢/ ١٣٩) وأبو نعيم في الدلائل باب ذكر فضيلته بطيب مولده (١/ ٣٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب باب في حب النبي ﷺ (ح/ ١٣٩٣) في شرف أصله وطهارة مولده ﷺ (٢/ ١٣٩، ١٤٠)، وفي الدلائل باب ذكر شرف أصل رسول الله ﷺ ونسبه (١/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) ورواه أبو نعيم في الدلائل باب ذكر فضيلته ﷺ بطيب مولده (١/ ٢٩) عن ابن عباس نحوه.

الفصل السابع
حالته في الضروريات ﷺ

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلنا فعلى ثلاثة ضروب: ضرب الفضل في قلته، وضرب الفضل في كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه:

فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقًا، وعلى كل حال، وعادة وشريعة، كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهما، وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشراب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس، وامتلاء الدماغ؛ وقلته دليل على القناعة، وملك النفس؛ وقمع الشهوة مسبب للصحة، وصفاءالخاطر، وحدة الذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة والضعف؛ وعدم الذكاء والفطنة، مسبب للكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته.

والشاهد على هذا ما يعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، وينقل متواترًا من كلام الأمم المتقدمة، والحكماء السابقين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار من سلف وخلف، مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه اختصارًا واقتصارًا على اشتهار العلم به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفنين بالأقل.

هذا ما لا يدفع من سيرته، وهو الذي أمر به، وحض عليه، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

حدثنا أبو عليّ الصدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل الأصبهاني، حدثنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أبو بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح- أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معد يكرب - أن رسول الله ﷺ قال: « **ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن**

آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[١].

ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

قال سفيان الثوري: بقلة الطعام يملك سهر الليل.

وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرًا فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، [فتخسروا كثيرًا].

وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف؛ أي كثرة الأيدي.

وعن عائشة رضي الله عنها: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

ولا يعترض على هذا بحديث بريرة، وقوله: «**ألم أر البرمة فيها لحم**»، **إذ لعل سبب سؤاله ظنه ﷺ اعتقادهم أنه لا يحل له؛ فأراد بيان سنته، إذ رآهم لم يقدموه إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصدق عليهم ظنه، وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله: «هو لها صدقة ولنا هدية»**[٢].

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في كتاب الزهد (ح/ ٢٣٨٠) باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٤/ ٥٩٠) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والنسائي في الكبرى كتاب آداب الأكل باب ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل (ح/ ٦٧٦٩) (٤/ ١٧٧) وابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة (ح/ ٣٣٤٩) باب الاقتصاد في الأكل (٢/ ١١١١) وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) والحاكم في مستدركه كتاب الرقاق (ح/ ٧٩٤٥) (٤/ ٣٣١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال في التلخيص: صحيح كلهم من طرق عن المقدام ابن معدى كرب به فذكره.

(٢) صحيح: رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب الطلاق (ح/ ٥٢٧٩) باب لا يكون بيع الأمة طلاقًا (٩/ ٤٠٤) ومسلم في صحيحه كتاب العتق (ح/ ١٤) باب إنما الولاء لمن أعتق (٢/ ١١٤٤) والنسائي في سننه كتاب الطلاق باب خيار الأمة (٦/ ١٦٢) وأحمد في مسنده (٦/ ١٧٨) والبيهقي في السنن الكبري كتاب المكاتب باب من لم يكره لأحد أن يأخذ من =

وفي حكمة لقمـان: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكـرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع.

وفي صحيح الحديث قولهﷺ: «**أما أنا فلا آكل متكئًا**»[١].

الاتكاء: هو التـمكن للأكل، والتقعـدد في الجلوس له كالمتـربع وشبـهه من تمكن الجلسات التي يعـتمد فيهـا الجالس على ما تحتـه، والجالس على هذه الهيئـة يستدعي الأكل ويستكثر منه.

والنبيﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيًا، ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يـأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»[٢].

وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين.

وكذلك نومه ﷺ كان قليلاً، شهدت بذلك الآثار الصحيحة، ومع ذلك فقد قال: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**»[٣].

= مكاتبـه صدقات الناس فريضة ونافلة (١٠/ ٣٢٨) والبغوى في شرح السنة كتاب (ح/) باب (٦/ ١٠٦) من طرق عن عائشة رضي الله عنها به.

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيـحه كتاب الأطعمه (ح/ ٥٣٩٨، ٥٣٩٩) باب الأكل متكئًا (٩/ ٥٤٠) والترمـذي في سننه كتـاب الأطعمة (ح/ ١٨٣٠) باب مـا جاء في كـراهية الأكل متكئًا (٤/ ٢٧٣) وأبو داود في سننه كتاب الأطعـمة (ح/ ٣٧٦٩) باب ما جاء في الأكل متكئًا (٣/ ٣٤٧) يحلهم من طرق عن أبى جحيـفة وقال أبو عيسى: هذا حديث حـسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث علي بن الأقمر. والبيهقي في السنن كتاب النكاح باب ما روى عنه في قوله أما أنا فلا آكل متكئًا (٧/ ٤٩) والحميدي في مسنده (٨٣٢).

(٢) ضعيـف فيه: عبـد الحكم القسملي قال في التـقريب (٣٧٤٩) ضعيف ذكـره في الإتحاف (٥/ ٢١٤) (٧/ ١١٦، ١٢٨) (٨/ ٣٩٣) (٩/ ٣٥١) وابن عدي في الكامل (٥/ ٣٣٤) عن أنس وفي إسناده عبد الحكم بن عبد الله القسملي.

(٣) صحيح: رواه البخاري في صحيحـه كتاب التهجد (ح/ ١١٤٧) باب قيام النبيﷺ بالليل=

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهارًا على قلة النوم؛ لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدو القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ، لميلها إلى الجانب الإيسر؛ فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول.

وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلق، فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق.

= (٣/ ٣٣) ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين (ح/ ٧٣٨) باب صلاة الليل (١/ ٥٠٩) وأبو داود في سننه كتاب الطهارة (ح/ ٢٠٢) باب الوضوء من النوم (١/ ٥٢) والترمذي في سننه كتاب الصلاة (ح/ ٤٣٩) باب ما جاء في وصف صلاة النبي ﷺ بالليل (٢/ ٣٠٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في سننه كتاب قيام الليل وتطوع النهار باب كيف الوتر بثلاث (٣/ ٢٣٤) وأحمد في مسنده (٦/ ١٠٤) وابن خزيمة في صحيحه جماع أبواب الاستنجاء بالأحجار باب ذكر ما كان الله عز وجل فرق بين نبيه ﷺ وبين أمته في النوم (ح/ ٤٩) (١/ ٣٠)، ومالك في الموطأ كتاب صلاة الليل (ح/ ٩) باب صلاة النبي ﷺ في الوتر (١/ ١١٨).

الفصل الثامن

زواجه ﷺ

والضرب الثاني ما يتفق المدح بكثرته، والفخر بوفوره، كالنكاح والجاه. أما النكاح فمتفق فيه شرعًا وعادة؛ فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية.

وأما في الشرع فسنة مأثورة؛ وقد قال ابن عباس: أفضل هذه الأمة أكثرها نساء- يشير إليه ﷺ.

وقد قال عليه السلام: «**تناكحوا تناسلوا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**»[(١)].

ونهي عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة، وغض البصر اللذين نبه عليهما ﷺ بقوله: «**من كان ذا طول فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج**»[(٢)]، حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد.

قال سهل بن عبد الله: قد حببن إلى سيد المرسلين، فكيف يزهد فيهن؟ ونحوه لابن عيينة.

وقد كان زهاد الصحابة كثيري الزوجات والسراري، كثيري النكاح.

وحكي في ذلك عن عليّ، والحسن، وابن عمر، وغيرهم غير شيء.

وقد كره غير واحد أن يلقى الله عزبًا.

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه كتاب النكاح (ح/ ١٠٣٩١) باب وجوب النكاح وفضله (٦/ ١٧٣) مرسلاً وذكره في كشف الخفا (١٠٢١) (١/ ٣١٨) بلفظ تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة وفي الكنز (٤٤٤٤٢) وعزاه لعبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً.

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٨) من حديث عثمان بن عفان به فذكره، وعبد الرزاق في مصنفه كتاب النكاح (ح/ ١٠٣٨١) باب وجوب النكاح وفضله (٦/ ١٦٩، ١٧٠) وذكره في الإتحاف (٥/ ٢٨٦).

فإن قلت: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان حصورًا؛ فكيف يثني الله بالعجز عما تعده فضيلة؟ .

وهذا عيسى عليه السلام تبتل عن النساء، ولو كان كما قررته لنكح؟ .

فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم:

إنه كان هيوبًا، أو لا ذكر له : بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء.

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها، كأنه حصر عنها.

وقيل : مانعًا نفسه من الشهوات.

وقيل: ليست له شهوة في النساء.

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها؛ إما بمجاهدة، كعيسى عليه السلام، أو بكفاية من الله تعالى، كيحيى عليه السلام - فضيلة زائدة لكونها شاغلة في كثير من الأوقات حاطّة إلى الدنيا.

ثم هي في حق من أقدر عليها وملكها وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه؛ بل زاده ذلك عبادة، لتحصينهن ، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره؛ فقال: «**حبب إليّ من دنياكم**»[1]. . . فدل على أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدنياه، بل لآخرته؛ للفوائد الذي ذكرناها في التزويج، وللقاء الملائكة في الطيب؛ ولأنه أيضًا مما يحض على الجماع ، ويعين عليه ، ويحرك أسبابه .

(١) تقدم ص ٥٠ رقم ٣.

وكان حبه لهاتين الخصلتين لأجل غيره، وقمع شهوته؛ وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته؛ ولذلك ميز بين الحبين، وفصل بين الحالين؛ فقال: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)؛ فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنتهن، وزاد فضيلة بالقيام بهن.

وكانﷺ ممن أقدر على القوة في هذا، وأعطى الكثير منه؛ ولهذا أبيح له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره.

وقد روينا عن أنس أنه- ﷺ- كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار، وهن إحدى عشر(٢).

[وعن طاوس: أعطى عليه السلام قوة أربعين رجلاً في الجماع.

ومثله عن صفوان بن سليم.

وقالت سلمى مولاته: طاف النبيﷺ ليلة على نسائه التسع، وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى؛ وقال: «**هذا أطيب وأطهر**»(٣).

---

(١) تقدم انظر ما قبله.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الغسل (ح/ ٢٦٨) باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد (١/ ٣٧٧) والنسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (ح/ ٩٠٣٣) باب طواف الرجل على نسائه في الليلة الواحدة (٥/ ٣٢٨) وأحمد في مسنده (٣/ ٢٩١)، والبغوي في شرح السنة كتاب الغسل (ح/ ٢٧٠) باب الجنب إذا أراد النوم أو العود أو الأكل توضأ ٠(٢/ ٣٨،٣٧)؛ وقال هذا حديث صحيح.

(٣) اسناد حسن رواه أبو داود في سننه كتاب الطهارة (ح/ ٢١٩) باب الوضوء لمن أراد أن يعود (١/ ٥٦) وابن ماجه في سننه كتاب الطهارة (ح/ ٥٩٠) باب فيمن يغتسل عند كل واحدة غسلاً (١/ ١٩٤) به نحوه. رواه ابن سعد في الطبقات في ذكر قسم رسول الله ﷺ بين نسائه (٨/ ١٣٨) به نحوه وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الطهارة باب الرجل يطوف على نسائه ليلة (١/ ١٧٢) به نحوه عن أبي رافع وأحمد في مسنده (٦/ ٣٩١) من حديث أبي رافع، ورواه النسائي في الكبرى كتاب عشرة النساء (ح/ ٩٠٣٥) باب طواف الرجل على نسائه (٥/ ٣٢٩).

قال أنس: وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً[١] خرجه النسائي، وروي نحوه عن أبي رافع.

وقد قال سليمان - عليه السلام- : لأطوفن الليلة على مائة امرأة أوتسع وتسعين[٢]، وأنه فعل ذلك.

قال ابن عباس: كان في ظهر سليمان ماء مائة رجل أوتسع وتسعين، وكان له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية.

وحكى النقاش وغيره سبعمائة امرأة وثلاثمائة سرية.

وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة، وتمت بزوج أوريا مائة.

وقد نبه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً** ﴾[ص/ ٢٣].

وفي حديث أنس عنه، عليه السلام: «**فضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش**»[٣].

وأما الجاه فمحمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه وعظمه في القلوب.

---

(١) رواه النسائي في الكبري كتاب عشرة النساء (ح/ ٩٠٣٣) باب طواف الرجل على نسائه في الليلة الواحد (٥/ ٣٢٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الأيمان (ح/ ٦٧٢٠) باب الاستثناء في الأيمان (١١/ ٦٠٢) ورواه مسلم في صحيحه كتاب الأيمان (ح/ ١٦٥٤) باب الاستثناء (٣/ ١٢٧٥، ١٢٧٦) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٢٩).

(٣) ضعيف: فيه سعيد بن بشير الأزدي قال في التقريب (٢٢٧٦) ضعيف وبقية رجاله ثقات، رواه الطبراني في الأوسط (ح/ ٦٨١٦) (٧/ ٤٩) والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٧٠) وفي العلل كتاب الفضائل (ح/ ٢٦٨) باب تفضيله بالكرم والقوة (١/ ١٧٥) وقال المؤلف: هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ وذكره في المجمع (٨/ ٢٦٩) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون وفي (٩/ ١٣) وقال رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿**وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**﴾[آل عمران/ ٤٥]؛ لكن آفاته كثيرة: فهو مضر لبعض الناس لعقبى الآخرة، فلذلك ذمه من ذمه، ومدح ضده.

وورد في الشرع مدح الخمول، وذم العلو في الأرض.

وكان ﷺ قد رزق من الحشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره، وقضوا حاجته.

وأخباره في ذلك معروفة سيأتي بعضها.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم تره، كما روي عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفرق، فقال: «**يا مسكينة، عليك السكينة**»[(١)].

وفي حديث أبي مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد؛ فقال: «**هون عليك فإني لست بملك ...**»[(٢)] الحديث .

فأما عظم قدره بالنبوة، وشرف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (ح/ ١) (٢٥/ ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١) من حديث قيلة بن مخرمة به فذكره مطولاً من طرق كثيرة، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١١) وعزاه للطبراني وقال رجاله ثقات ورواه ابن سعد في الطبقات وفد شيبان (١/ ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣) ضمن حديث طويل وذكره في الكنز (٦٤٠٣) وعزاه للطبراني.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه في سننه كتاب الأطعمة (ح/ ٣٣١٢) باب القديد (٢/ ١١٠١) وقال في الزوائد: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات عن أبي مسعود، والخطيب في تاريخه (٦/ ٢٧٧) وفي (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩) من طرق عن أبي مسعود وأبي حازم وابن سعد في الطبقات في ذكر من انتمى إليه رسول الله ﷺ (١/ ٢١) عن أبي حازم مرسلاً ورواه الطبراني في الأوسط (ح/ ١٢٦٠) (٢/ ٦٤) عن جرير وقال: لم يرو هذا الحديث عن إسماعيل، عن قيس، عن جرير إلا عيسى، تفرد به شقران .

الفصل التاسع
ما يتعلق بالمال والمتاع

وأما الضرب الثالث، فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجله، ككثرة المال - فصاحبه على الجملة معظم عند العامة، لاعتقادها توصلها به إلي حاجاتها ، وتمكنها أغراضها بسببه، وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة، وصاحبه منفقًا له في مهمات من اعتراه وأمله؛ وتصريفه في مواضعه مشتريا به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة في القلوب - كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه ممكسًا له غير موجهه وجوهه، حريصًا على جمعه، عاد كثره كالعدم، وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جدد السلامة؛ بل أوقعه في هوة رذيلة البخل، ومذمة النذالة؛ فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلي غيره، وتصريفه في متصرفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه، ولا وجهه وجوهه غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى، ولا ممتدح عند أحد من العقلاء؛ بل هو فقير أبدًا غير واصل إلى غرض من أغراضه؛ إذا ما بيده من الماء الموصل لها لم يسلط عليه، فأشبه خازن مال غيره، ولا مال له: فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمنفق مليء وغني بتحصيله فوائد المال ، وإن لم يبق في يده من المال شيء. فانظر سيرة نبينا ﷺ وخلقه في المال تجده قد أوتى خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها صدقاتها ما لا يجبى للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين؛ وقال: «**ما يسرني أن لي أُحدًا ذهبًا يبيت عندي منها دينار،**

إلا ديناراً أرصده لدَين»[١]

[وأتته دنانير مرة فقسمها، وبقيت منه ستة؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»].

ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله.

واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه.

وزهد في ما سواه، فكان يلبس ما وجده؛ فيلبس في الغالب الشملة، والكساء الخشن، والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضره؛ إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.

والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقط المروءة جنسه مما لا يؤدى إلى الشهرة في الطرفين.

وقد ذم الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال.

وكذلك التباهي بجودة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته.

ومن ملك الأرض، وجبي إليه ما فيها، فترك ذلك زهدًا وتنزهًا، فهو حائز لفضيلة المال ،ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فضيلة زائد عليها في الفخر، ومعرق في المدح بإضرابه عنها، وزهده في فانيها، وبذلها في مظانها.

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق (ح/ ٦٤٤٥) باب قول النبيﷺ ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا (١١/ ١٦٤) ، رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة (ح/ ٩٩١) باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى الزكاة (٢/ ٦٨٧) وأحمد في مسنده (٤/ ٤٦٧)، والبغوي في شرح السنة كتاب الإيمان (ح/ ٥٤) باب من مات لا يشرك بالله شيئًا (١/ ٩٩) عن أبي ذر .

الفصل العاشر
الأخلاق الحميدة

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق، وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها ، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمدﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله بذلك عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم/ ٤].

قالت عائشة- رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه[١] .

وقالﷺ: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[٢].

قال أنس: كان رسول اللهﷺ أحسن الناس خلقًا.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مثله.

وكان في ما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل

(١) صحيح : ضمن حديث طويل رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين (ح/ ٧٤٦) باب جامع صلاة الليل (١/ ٥١٢، ٥١٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٦٣) والبيهقي في السنن كتاب الصلاة باب في قيام الليل (٢/ ٤٩٩) .

(٢) رواه مالك في الموطأ كتاب حسن الخلق (ح/ ٨) باب ما جاء في حسن الخلق (٢/ ٦٩٠) بلفظ بعثت لأتمم حسن الأخلاق وهو من بلاغات مالك رضي الله عنه والحاكم في مستدركه كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين (ح/ ٤٢٢١) (٢/ ٤١٣) والبيهقي في شعب الإيمان، باب حسن الخلق (ح/ ٧٥٧٨) (٦/ ٢٣١)، عن أبي هريرة به بلفظ بعثت لأتمم صالح الأخلاق وذكره في الكنز (٣٩٦٩) وعزاه للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي، وخصوصية ربانية.

وهكذا لسائر الأنبياء، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال عيسى وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام.

بل غرزت فيهم هذه الأخلاق في الجبلة، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة، قال الله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ [مريم / ١٢].

قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله تعالى في حالة صباه.

وقال معمر: كان [يحيى] ابن سنتين أو ثلاث، فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: أللعب خلقت؟!.

وقيل في قوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ**﴾[آل عمران/ ٣٩]. صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين فشهد له أنه كلمه الله وروحه .

وقيل : صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم : إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك؛ تحية له.

وقد نص الله تعالى على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿**أَلاَّ تَحْزَنِي**﴾[مريم/ ٢٤]- على قراءة من قرأ « من تحتها»، وعلى قول من قال: إن المنادي عيسى.

ونص على كلامه في مهده، فقال: ﴿**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾ [مريم/ ٣٠].

وقال: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾[الأنبياء/ ٧٩].

وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة، وفي قصة الصبي ما اقتدى به داود أبوه.

وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عامًا.

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل.

وقال المفسرون- في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ**﴾[الأنبياء/ ٥١]، أي هديناه صغيرًا؛ قاله مجاهد وغيره.

وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه.

وقال بعضهم: لما ولد إبراهيم عليه السلام بعث الله تعالى إليه ملكًا يأمره عن الله أن يعرفه بقلبه، ويذكره بلسانه؛ فقال: قد فعلت، ولم يقل أفعل: فذلك رشده.

وقيل: إن إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة، وإن ابتلاء إسحاق بالذبح كان وهو ابن سبع سنين؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمسة عشر شهرًا.

وقيل: أوحي إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجب، يقول الله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾[يوسف/ ١٥].

إلى غير ذلك مما ذكرنا من أخبارهم.

وقد حكى أهل السير أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمدﷺ ولد حين ولد باسطًا يديه إلي الأرض، رافعًا رأسه إلى السماء.

وقال في حديثه-ﷺ: «**لما نشأت بغضت إلى الأوثان، وبغض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعد**»(١).

ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم، حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا - باصطفاء الله تعالى لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة - النهاية دون ممارسة ولا رياضة؛ قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾[يوسف/ ٢٢].

وقد نجد غيرهم يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها،

---

(١) ذكره القرطبي في تفسير سورة الشورى (١٦/ ٥٥) نحوه وروي البزار في مسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ح/ ٦٤٠) (٢/ ٢٤٠، ٢٤١) نحو الشطر الأخير منه مطولاً، وذكره في المجمع (٨/ ٢٢٦) وعزاه للبزار وقال: ورجاله ثقات وذكره في الكنز (٣٥٤٣٨) وعزاه لغير واحد، قلت: وفي إسناد البزار بكر بن سليمان أبو يحيى البصري قال أبو حاتم (٦٠ ١٥) مجهول، ورواه الحاكم في مستدركه كتاب التوبة والإنابة (٤/ ٢٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالى، كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان على حسن السمت، أو الشهامة، أو صدق اللسان، أو السماحة؛ وكما نجد بعضهم على ضدها؛ فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها، ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها. و«**كل ميسر لما خلق له**»[(١)]. ولهذا ما [قد] اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جبلة أو مكتسبة؟.

فحكى الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جبلة وغريزة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود، والحسن، وبه قال هو.

والصواب ما أصَّلناه.

وقد روى سعد عن النبيﷺ، قال: «**كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب**»[(٢)].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله في حديثه: والجرأة، والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب القدر (ح/٦٥٩٦) باب جف القلم على علم الله (١١/ ٤٩١) عن عمران بن حصين ورواه مسلم في صحيحه كتاب القدر (ح/ ٢٦٤٩) باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤/ ٢٠٤١) وأبو داود في سننه كتاب السنة (ح/٤٧٠٩) باب في القدر (٤/ ٢٢٨) والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن (ح/٣١١١) باب ومن سورة هود (٥/ ٢٨٩) وقال: هذا حسن غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر، وابن ماجه في سننه كتاب المقدمة (ح/٧٨، ٩١) باب في القدر (١/ ٣٠، ٣٥) والطبراني في الكبير (ح/٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨) (١٨/ ١٢٩، ١٣٠) وأحمد في مسنده (٤/ ٤٢٧، ٤٣١) عن عمران بن حصين.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٢) عن أبي أمامة بلفظ يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب، وفيه سليمان بن مهران الأعمش قال في التقريب (٢٦١٥) صدوق لكنه يدلس. ورواه البيهقي في الشعب باب حفظ اللسان (ح/٤٨٠٩، ٤٨١١) عن غير واحد من الصحابة (٤/ ٢٠٧) وذكره في الإتحاف (٧/ ٥١٨) وفي السنن الكبرى كتاب الشهادات باب من كان منكشف الكذب مظهره غير مستتر به لم تجز شهادته (١٠/ ١٩٧).

وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة، ولكنا نذكر أصولها، ونشير إلى جميعها، ونحقق وصفه ﷺ بها إن شاء الله تعالى.

الفصل الحادي عشر

العقـــــل

في بيان أصول هذه الأخلاق وتحقق وصف النبي بها

أما أصل فروعها، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها - فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتـفرع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنـة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعـواقب ومصالح النفس، ومـجاهدة الشهـوة، وحسن السـياسة والتـدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل.

وقد أشرنا إلى مكانه منه عليه السلام، وبلوغه منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشـر سواه، وإذ جـلالة محله مـن ذلك، ومما تفرع منه - مـتـحقق عند من تتـبع مجاري أحواله، وأطِّراد سيره، وطالع جوامع كلامه، وحسن شمائله، وبدائع سيره، وحكم حديثـه، وعمله بما في التوارة والإنجـيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسـير الأمم الخالية، وأيامـها وضرب الأمثـال، وسياسات الأنام، وتقرير الـشرائع وتأصيل الآداب النفـيسة، والشـيم الحمـيدة، إلى فنون العلـوم التي اتخذ أهلهـا كلامه عـليه السلام فـيهـا قدوة، وإشاراتـه حجة، كـالعبـارة، والطب، والحسـاب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك مما سنبينه في معجزاته إن شاء الله، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كـتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نـبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حـتى شرح الله صـدره، وأبان أمـره، وعلمه، وأقـرأه، يعلم ذلك بالمطالعـة والبـحث عن حاله ضـرورة، وبالبـرهان القـاطع على نبوته نـظرًا؛ فلا نطول بسـرد الأقاصيص، وآحـاد القضايا، إذا مجموعـها ما لا يأخذه حصـر، ولا يحيط به حفظ جامع، وبحسب عقله كـانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمـه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجـائب قدرته، وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[النساء/ ١١٣].

حارت العقول في تقدير فضله عليه، وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

الفصل الثاني عشر
الحلم والعفو

وأما الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكره، وبين هذه الألقاب فرق، فإن الحلم حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات.

والاحتمال: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة.

وأما العفو فهو ترك المؤاخذة.

وهذا كله مما أدب الله به نبيه ﷺ، فقال: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[الأعراف/ ١٩٩].

روي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم.

ثم ذهب فأتاه، فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك(١).

وقال له: ﴿**اصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان/ ١٧].

وقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾[الأحقاف/ ٣٥].

وقال: ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النور/ ٢٢].

وقال: ﴿**ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور**﴾[الشوري/ ٢٣].

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح/ ٨٦٨٢) تفسير سورة الأعراف (٥/ ١٦٣٨) وابن جرير في تفسير (٩/ ١٠٥) عن أبي رضي الله عنه وذكره في الدر المنثور (٣/ ٦٢٨) وقال: أخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي وذكر الحديث.

عنه هفوة، وهوﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عليّ التغلبي وغيره، قالوا: حدثنا محمد بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن وافد القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسى، حدثنا عبيد الله، قال: حدثا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما خير رسول اللهﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول اللهﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى، فينتقم لله بها[1].

وروى أن النبيﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شديدًا، وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: «**إني لم أبعث لعانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[2].

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد دعا نوح على قومه، فقال: ﴿**رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**﴾ [نوح/٢٦]. ولو دعوت علينا مثلها هلكنا من عند آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمي

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب (ح/ ٣٥٦٠) باب صفة النبيﷺ (٦/ ٥٦٦) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٣٢٧) باب مباعدته ﷺ للآثام (٤/ ١٨١٣) عن عائشة رضي الله عنها، ومالك في الموطأ كتاب حسن الخلق (ح/ ٢) باب ما جاء في حسن الخلق (٢/ ٦٨٨)، وأبو داود في سننه كتاب الأدب (ح/ ٤٧٨٥) باب في التجاوز في الأمر (٤/ ٢٥٠) وأحمد في مسنده (٦/ ٨٥، ١١٤، ١١٥، ١٨١، ١٨٩، ٢٢٣، ٢٦٢)، والحميدي في مسنده (٢٥٨) والترمذي في الشمائل (٣٣٤) كلهم من طرق عن عروة عن عائشة بألفاظ متقاربة مطولة ومختصرة.

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب (ح/ ٢٥٩٩) باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٠٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل باب حسن خلقهﷺ (١٣/ ٢٤٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩) من حديث كريز ابن سامة، والبخاري في الأدب (٣٢١).

وجهك، وكسرت رباعيتك، فـأبيت أن تقول إلا خيرًا، فقلت: «**اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون**»[١].

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم، فقال: «**اغفر**» أو «**اهد**»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «**لقومي**»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: «**فإنهم لا يعلمون**».

ولما قال له الرجل: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله - لم يزده في جوابه أن بين له ما جهله.

ووعظ نفسه، وذكرها بما قال له، فقال: «**ويحك فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل**»[٢] ونهى من أراد من أصحابه قتله.

ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به، ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة وحده قائلاً، والناس قائلون، في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتًا في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله» فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، وقال: «**من يمنعك مني؟**» قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه. فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس[٣].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء (ح/ ٣٤٧٧) باب (٥٤) عن ابن مسعود (٦/ ٥١٤) أحمد في مسنده (١/ ٤٤١)، رواه ابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق باب الأدعية (ح/ ٩٧٣) عن سهل بن سعد (٣/ ٢٥٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب فرض الخمس (ح/ ٣١٥٠) باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٦/ ٢٥١، ٢٥٢) ومسلم في صحيحه كتاب الزكاة (ح/ ١٠٦٢) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (٢/ ٧٣٩) عن عبد الله بن مسعود بلفظ فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله والحميدي في مسنده (ح/ ١٢٧١) عن جابر ابن عبد الله بلفظ: «ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل».

(٣) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير (ح/ ٢٩١٣) باب تفرق الناس عن الإمام عند القائلة (٦/ ٩٧) وفي كتاب المغازي (ح/ ٤١٣٥) باب غزوة ذات الرقاع (٧/ ٤٢٦)=

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سممته في الشاة بعد اعترافها - على الصحيح من الرواية. وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، وقد أعلم به وأوحي إليه بشرح أمره، ولا عتب عليه فضلاً عن معاقبته.

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «**لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه: كنت مع النبيﷺ، وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه الأعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك.

فسكت النبيﷺ، ثم قال: «**المال مال الله، وأنا عبده**»، ثم قال: «**ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي**». قال: لا. قال «**لم**»؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة[(٢)].

فضحك النبيﷺ؛ ثم أمر أن يحمل علي بعير شعير، وعلى الآخر تمر.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول اللهﷺ منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله. وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة[(٣)].

= ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٨٤٣) باب توكله على الله تعالى (٤/ ١٧٨٦) وأحمد في مسنده (٣/ ٣٦٥، ٣٩٠) والحاكم في مستدركه (٣/ ٣٩) والبغوي في شرح السنة كتاب صلاة الخوف (ح/ ١٠٩٥) باب من قال يصلي بكل طائفة ركعتين (٦/ ٢٨٧).

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب (ح/ ٣٥١٨) باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٦/ ٥٤٦)، والترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن (ح/ ٣٣١٥) باب ومن سورة المنافقين (٤١٨) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مناهل الصفا ص (١٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٣٢١) وابن ماجه في سننه كتاب النكاح (ح/ ٢٢١٨) وأحمد في مسنده (٦/ ٣٢، ٢٢٩، ٢٣٢) والدرامي في سننه كتاب النكاح=

وجيء إليه برجل ، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبيﷺ: «**لن تراع، لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي**»(١).

وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم، يا بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر، وشدد له في القول، والنبيﷺ يبتسم.

فقال رسول اللهﷺ: «**أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي**».

ثم قال: «**لقد بقي من أجله ثلاث**»، وأمر عمر يقضيه ما له ويزيده عشرين صاعًا لما روعه؛ فكان سبب إسلامه(٢).

وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلمًا، فاختبره بهذا، فوجده كما وصف.

والحديث عن حلمه عليه السلام وصبره وعفوه عند القدرة أكثر من أن نأتي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في الصحيح والمصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواترًا مبلغ اليقين: من صبره علي مقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومصابرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم: فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «**ما تقولون أني فاعل بكم**»؟ قالوا:

= (٢/ ١٤٧) وفي الشمائل للترمذي (ح/ ٣٣٣) كلهم من طرق عن هشام بن عروة به عن عائشة مختصرًا.

(١) مناهل الصفا ص ١٧.

(٢) راه الحاكم في مستدركه كتاب البيوع (ح/ ٢٢٣٧) باب من طلب حقًا فليطلب في عفاف (٢/ ٣٢)، وقال هذا حديث صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وروى له شاهد من حديث عبد الله بن يامين عن أبي هريرة، والبيهقي في السنن كتاب التفليس باب ما جاء في التقاضي (٦/ ٥٢) وفي دلائل النبوة (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩) عن زيد بن سعنة به مطولاً.

خيـرًا؛ أخ كريم، وابن أخ كريم، فـقال: «**أقول كمـا قال أخي يوسف**: ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**﴾، **اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[١].

وقال أنس: هبط ثمـانون رجلاً من التنعيم صـلاة الصبح ليقـتلوا رسول اللهﷺ، فأخذوا، فأعتـقهم رسول اللهﷺ: فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[٢][الفتح / ٢٤].

وقـال لأبي سفـيان - وقـد سيق إليـه بعد أن جلب إليـه الأحزاب، وقـتل عمـه وأصحابـه ومثل بهم، فعفـا عنه، ولاطفه في القول: «ويحك يا أبا سفـيان! ألم يأن لك أن تعلـم أن لا إله إلا الله»: فـقـال: بأبي أنت وأمـي! مـا أحلـمك وأوصلك وأكرمك»[٣].

وكان رسول اللهﷺ أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضا ﷺ.

(١) رواه البـيهقي في الدلائل (٥/ ٥٨) عن أبي هريرة به فذكره وذكره السـيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٧٨، ٥٧٩) عن ابن عباس وعزاه لابن مردويه وعن أبي هريرة وعزاه للبيهقي.

(٢) الدر المنثور.

(٣) رواه الطبـراني في الكبير (٢٦٤) عن ابن عباس ضمن حـديث طويل، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣٢١)، وذكره الـهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٦) وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجـال الصحيـح وذكره في الكنز (٤٣٦) وعزاه للطبـراني عن عبـد الرحمن بن أبى ليلى.

الفصل الثالث عشر
الجود والكرم

وأما الجود والكرم، والسخاء والسماحة - فمعانيها متقاربة. وقد فرق بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس في ما يعظم خطره ونفعه، وسموه أيضًا حرية، وهو ضد النذالة.

والسماحة: التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضد الشكاسة.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يحمد، وهو الجود، وهو ضد التقتير.

وكان ﷺ لا يوازى في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يبارى، بهذا وصفه كل من عرفه.

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الصدفي رحمه الله، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي، حدثنا أبو ذر الهروي، حدثنا أبو الهيثم الكشميهني، وأبو محمد السرخسي، وأبو إسحاق البلخي؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفربري؛ قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن ابن المنكدر، سمعت جابر بن عبد الله يقول: ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال لا[١].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب (ح/ ٦٠٣٤) باب حسن الخلق والسخاء (١٠/ ٤٥٥) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٣١١) باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (٤/ ١٨٠٥) والدارمي في سننه كتاب المقدمة باب في سخاء النبي ﷺ (١/ ٣٤) وأحمد في مسنده (٣/ ٣٠٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢٠٠١) والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل (ح/ ٣٦٨٥) باب جهاده ﷺ (١٣/ ٢٤٩) وابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ (ح/ ٦٣٧٦، ٦٣٧٧) باب بيان بأن المصطفى لم يكن يمنع أحدًا يسأله شيئًا (١٤/ ٢٩٠) والحميدي في مسنده (١٢٢٨) وأبو داود الطيالسي (١٧٢٠) والبيهقي في الدلائل (١/ ٣٢٥، ٣٢٦) كلهم من طرق عن جابر به.

وعن أنس، وسهل بن سعد مثله.

وقال ابن عباس: كان النبيﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة[١].

وعن أنس أن رجلاً سأله فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى بلده، وقال: أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة[٢]. وأعطى غير واحد مائة من الإبل. وأعطى صفوان مائة ثم مائة[٣]. وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يبعث.

وقد قال له ورقة بن نوفل: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم[٤].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الصوم (ح/ ١١٠٢) باب أجود ما كان ﷺ يكون في رمضان (٤/ ١١٦) ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/٢٣٠٨) باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٤/ ١٨٠٣) والترمذي في الشمائل (٣٣٨) وأحمد في مسنده (١/ ٣٢٦، ٢٣١) والبيهقي في السنن كتاب الصيام باب الجود والإفضال في شهر رمضان (٤/ ٣٠٥)، وابن حبان في صحيحه كتاب الصوم (ح/ ٣٤٤٠) باب استحباب الجود والإفضال على المسلمين بالعطايا في رمضان (٨/ ٢٢٥) وابن خزيمة في صحيحه (١٨٨٩)، والنسائي في الصيام (٤/ ١٢٥) والبغوي في شرح السنة (٣٥٨١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٣١٢) باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (٤/ ١٨٠٦) وأبو يعلى في مسنده (٣٣٠٢) وأحمد في مسنده (٣/ ١٠٨) والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل (ح/ ٣٢٩١) باب جوده ﷺ (١٣/ ٢٥٣) وابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ (ح/ ٦٣٧٣) باب ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ كان لا يستكثر الكثير من الدنيا (١٤/ ٢٨٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل (ح/ ٢٣١٣) باب ما سئل رسول اللهﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (٤/ ١٨٠٦) والترمذي في سننه كتاب الزكاة (ح/ ٦٦٦) باب ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (٣/ ٤٤) عن صفوان مختصرًا، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٠١)، (٦/ ٤٦٥).

(٤) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير (ح/ ٤٩٥٦) باب قوله: **﴿اقرأ وربك الأكرم﴾** (٨/ ٧٢٣) عن عائشة مختصرًا ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان (ح/ ١٦٠) باب=

ورد على هوازن سباياها، وكانوا ستة آلاف.

وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله.

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وجاءه رجل، فسأله، فقال: «**ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه**»[(١)].

فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه.

فكرة النبيﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله؛ أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً.

فتبسم النبيﷺ، وعرف البشر في وجهه، وقال: «بهذا أمرت»، ذكره الترمذي[(٢)].

وذكر عن معوذ بن عفراء، قال: أتيت النبيﷺ بقناع من رطب- يريد طبقًا، وأجر زغب - يريد قثاء، فأعطاني ملء كفه حليًا وذهبًا.

وقال أنس: كان النبيﷺ لا يدخر شيئًا لغد[(٣)].

= بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٤١) وأحمد في مسنده (٦/ ٢٣٢، ٢٣٣) وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧١٩)، وأبو داود الطيالسي (١٤٦٧) والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل (ح/ ٣٧٣٥) باب المبعث وبدء الوحي (١٣/ ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨) وابن حبان في صحيحه كتاب الوحي (ح/ ٣٣) (١/ ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٣٥، ١٣٦) كلهم من طرق عن عائشة به فذكره .

(١-٢) إسناده ضعيف: علته موسى بن أبي علقمة المديني قال في التقريب (٦٩٩٣) مجهول . رواه الترمذي في الشمائل باب ما جاء في خلق رسول اللهﷺ (ح/ ٣٤٠)، ورواه أبو الشيخ في أخلاق النبيﷺ ص ٥١ .

(٣) حديث حسن: رواه الترمذي في سننه كتاب الزهد (ح/ ٢٣٦٢) باب ما جاء في معيشة النبيﷺ وأهله (٤/ ٥٨٠) وقال حديث غريب والبغوي في شرح السنة كتاب الفضائل =

والخبر بجوده ﷺ وكرمه كثير.

وعن أبي هريرة: أتى رجل النبي ﷺ يسأله، فاستسلف له رسول الله ﷺ نصف وسق، فجاء الرجل يتقاضاه، فأعطاه وسقًا، وقال: «نصفه قضاء ونصفه نائل»[(١)].

= (ح/ ٣٦٩٠) (١٣/ ٢٣) والبيهقي في الشعب باب في حب النبي ﷺ (ح/ ١٤٦٤، ١٤٧٨) في زهده وصبره (٢/ ١٧١، ١٧٥) وابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ (ح/ ٦٣٥٦) والترمذي في الشمائل (٣٣٩).

(١) رواه البيهقي في السنن كتاب البيوع باب الرجل يقضيه خيرًا منه بلا شرط طيبة به نفسه (٥/ ٣٥١) وفي شعب الإيمان باب في أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه (ح/ ١١٢٣٧) (٧/ ٥٣١، ٥٣٢).

الفصل الرابع عشر
الشجاعة والنجدة

وأما الشجاعة والنجدة فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل. والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

وكانﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل؛ قد حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والإبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح. وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه.

حدثنا أبو علي الجياني في ما كتب لي: قال: حدثنا القاضي سراج، حدثنا أبو محمد الأصيلي، قال: حدثنا أبو زيد الفقيه، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا ابن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سمع البراء وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول اللهﷺ؟ قال: لكن رسول اللهﷺ لم يفر.

ثم قال: لقد رأيته على بلغته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبيﷺ يقول: «أنا النبي لا كذب»، وزاد غيره: **«أنا ابن عبد المطلب»**[(١)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد (ح/ ٢٨٧٤) باب بغلة النبيﷺ البيضاء (٦/ ٧٥) ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير (ح/ ١٧٧٦) باب في غزوة حنين (٣/ ٤٠٠) والترمذي في سننه كتاب الجهاد (ح/ ١٦٨٨) باب ما جاء في الثبات عند القتال (٤/ ١٩٩، ٢٠٠) وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح، أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٩، ٣٠٤) وأبو داود الطيالسي (٧٠٧) والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٣٣) وابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الأدب (ح/ ٦٦) باب الرخصة في الشعر (٦/ ١٨١) والبيهقي في السنن (٧/ ٤٣) ، (٩/ ١٥٤، ١٥٥) وفي الدلائل (١/ ١٧٧)، (٥/ ١٣٣)، والبغوي في شرح السنة كتاب الجهاد (ح/ ٢٧٠٦) باب الصف في القتال والتعبئة (١١/ ٦٥) وابن حبان في صحيحه كتاب السير (ح/ ٤٧٧٠) (١١/ ٩٠).

قيل: فما رئي يومئذ أحد كان أشد منه.

وقال غيره: نزل النبي ﷺ عن بغلته.

وذكر مسلم - عن العباس، قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، ثم نادى -: «**يا للمسلمين...**» الحديث.

وقيل: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب - ولا يغضب إلا الله- لم يقم لغضبه شيء.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أرضى، [ولا أفضل] من رسول الله ﷺ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس - ويروى: اشتد البأس- واحمرت الحدق اتقينا برسول الله؛ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا.

وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو، لقربه منه.

وعن أنس: كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس؛ لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري، والسيف في عنقه، وهو يقول: «**لن تراعوا**»(١).

وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا.

وقد كان يقول للنبي ﷺ - حين افتدى يوم بدر : عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها .

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب (ح/٦٠٣٣) باب حسن الخلق والسخاء (٤٥٥/١٠).

فقال له النبيﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله».

فلما رآه يوم أحد شد أبي على فرسه على رسول اللهﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبيﷺ هكذا، أي خلوا طريقه؛ وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبيﷺ، فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا.

وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أنا أقتلك» والله لو بصق عليّ لقتلني، فمات بسرف في قُولهم إلى مكة.

الفصل الخامس
الحياء والإغضاء

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته، أو ما يكون تركه خيرًا من فعله.

والإغضاء: التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

وكان النبيﷺ أشد الناس حياء، وأكثرهم من العورات إغضاء؛ قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي من الحق**﴾[الأحزاب/ ٥٣].

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله [مولى أنس]، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت عبد الله مولى أنس، يحدث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كان رسول اللهﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه(١).

وكانﷺ لطيف البشرة، رقيق الظاهر، لا يشافه أحدًا بما يكرهه حياء وكرم نفس.

وعن عائشة رضي الله عنها: كان النبيﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «**ما بال أقوام يصنعون، أو يقولون كذا**»(٢)! ينهي عنه، ولا يسمي فاعله.

وروى أنس أنه دخل عليه رجل به أثر صفرة، فلم يقل له شيئًا - وكان لا يواجه

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب (٦١٠٢) باب من لم يواجه الناس بالعتاب (١٠/ ٥٢٩)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٠) باب كثرة حيائه ﷺ (٤/ ٨٠٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ٧١، ٩١).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٨٨) باب حسن العشرة (٤/ ٢٥١).

أحدًا بما يكره - فلما خرج قال: «**لو قلتم له يغسل هذا**»[١] - ويروى: «ينزعها».

قالت عائشة في الصحيح: لم يكن النبيﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، ولا سخابًا بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[٢].

وقد حكى مثل هذا الكلام عن التوراة، ومن رواية [عبد الله] بن سلام، وعبد الله ابن عمرو بن العاص.

وروي عنه أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره.

وعن عائشة: ما رأيت فرج رسول اللهﷺ قط.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/ ١٦٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٥) باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (١٠/ ٤٧٠) ومسلم في الفضائل (٢٣٢١) باب كثرة حيائه ﷺ (٤/ ٨١٠) والترمذي في البر والصلة (٢٠١٦) باب ما جاء في خلق النبيﷺ وابن حبان في صحيحه (٦٤٤٣)، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٣٦، ٢٤٦).

الفصل السادس عشر
حسن العشرة والأدب وبسط الخلق

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصحيحة.

قال عليّ رضي الله عنه في وصفه عليه الصلاة والسلام: كان أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

حدثنا أبو الحسن عليّ بن مشرق الأنماطي في ما أجازنيه، وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الأعرابي، حدثنا أبو داود، حدثنا هشام أبو مروان، ومحمد بن المثنى: قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن قيس بن سعد، قال: زارنا رسول الله ﷺ - وذكر قصة في آخرها: فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارًا، وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ، ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ.

قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «**اركب**»، فأبيت: فقال: «**إما أن تركب وإما أن تنصرف**». فانصرفت[١].

[وفي رواية أخرى: «**اركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمها**»[٢]].

وكان رسول الله ﷺ يؤلفهم، ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٢١).

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٠٤).

من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء.

بهذا وصفه ابن أبي هالة، قال: وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب، ولا فحاش ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه.

وقال الله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران/ ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ**﴾[المؤمنون/ ٩٦].

وكان يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ولو كانت كراعًا ويكافئ عليها قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشئ صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته[١].

وعن عائشة رضي الله عنها: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: «**لبيك**».

وقال جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم.

وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس: ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحدًا بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر[٢]، ولم ير

---

(١) صحيح رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠٩) باب كان رسول الله ﷺ (٤/ ١٨٠٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٧٣) باب في الحلم وأخلاق النبي ﷺ (٤/ ٢٤٧).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٤) باب حسن العشرة (٤/ ٢٥٠).

مقدمًا ركبتيه بين يدي جليس له[١].

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط مادا رجليه بين أصحابه حتي يضيق بهما على أحد. يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي، ويكني أصحابه، ويدعوهم، بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام - ويروى : بانتهاء أو قيام.

ويروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

وكان أكثر الناس تبسمًا، وأطيبهم نفسًا، ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب[٢].

قال عبد الله بن الحارث: ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ.

وعن أنس: كان خدم المدينة يأتون رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتي بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة - يريدون به التبرك[٣].

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٠) (٤/ ٦٥٤)، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٦) باب إكرام الرجل جليسه (٢/ ١٢٢٤) ، والبيهقي في السنن في جماع أبواب صفة الرسول ﷺ باب ذكر أخبار رويت في شمائله (١/ ٣٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأدب (٦٠٨٩) باب التبسم والضحك (٥١٨، ٥١٩)، ومسلم في صلاة الاستسقاء (٨٩٩) باب التعوذ عند رؤيه الريح (٢/ ٦١٦)، والترمذي في المناقب (٣٦٤١) باب في بشاشة النبي ﷺ (٥/ ٦٠١). وأحمد في مسنده (٤/ ٩٠) (٤/ ١٩١).

(٣) صحيح رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٤) باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم (٤/ ١٨١٢) وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٧) .

الفصل السابع عشر
الشفقة والرحمة

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة / ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء/ ١٠٧].

قال بعضهم: من فضله عليه السلام أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة / ١٢٨].

وحكي نحوه الإمام أبو بكر بن فورك. حدثنا الفقية أبو محمد عبد الله بن محمد الخشني بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحرمين أبو علي الطبري، حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أنبأنا يونس، عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة، وذكر حنينا، قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب، حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ.

وروى أن أعرابيًا جاءه يطلب منه شيئًا، فأعطاه، ثم قال: «أحسنت إليك»؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه، وزاده شيئًا، ثم قال: **«أحسنت إليك»**؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

فقال له النبي ﷺ: «**إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابى من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك**».

قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء، فقالﷺ: «**إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك**»؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقالﷺ: «**مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار**»(١).

وروى عنه أنهﷺ قال: «**لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»(٢).

ومن شفقته على أمته عليه السلام تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء**»(٣).

وخبر صلاة الليل، ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا يعنت أمته ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته(٤).

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده، فقال: «**أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك**

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد في علامات النبوة باب في حسن خلقه وحيائه وحسن معاشرته (٩/ ١٥).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٦) باب فضل أزواج النبيﷺ (٥/ ٧١٠) وأبو داود في الأدب (٤٨٦٠) باب في رفع من المجلس (٤/ ٢٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الصوم باب سواك الرطب واليابس (٤/ ١٨٧).

(٤) صحيح رواه البخاري في الصوم باب الوصال ومن قال ليس في الليل صيام (٤/ ٢٣٨)، ومسلم في الصيام (١١٠٢) باب النهي عن الوصال في الصوم (٢/ ٧٧٤).

له زكاة ورحمة، وصلاة وطهورًا، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»(١).

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرني بما شئت، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

قال النبيﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا**»(٢).

وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبيﷺ: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك. فقال: «**أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم**».

قالت عائشة: ما خير رسول اللهﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول اللهﷺ **يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا**(٤).

وعن عائشة أنها ركبت بعيرًا وفيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال رسول اللهﷺ: «**عليك بالرفق**»(٥).

---

(١) صحيح رواه البخاري في الدعوات باب قول النبي ﷺ من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة (١١/ ١٧٥) ومسلم في البر والصلة والأدب (٢٦٠١) باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً لذلك كان له زكاة وأجرًا ورحمة (٤/ ٢٠٠٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٦/ ٣٤٨) ومسلم في الجهاد (١٧٩٥) باب ما لقي النبي ﷺ من أذي المشركين (٣/ ١٤٢٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري في المناقب باب صفة النبي ﷺ ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧) باب مباعدته ﷺ للآثام (٤/ ١٨١٣)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥) باب التجاوز في الأمر.

(٤) صحيح: رواه البخاري في العلم باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا (١/ ١٩٥) وباب من جعل لأهل العلم أيامًا (١/ ١٩٧). ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٢١) باب الاقتصاد في الموعظة (٤/ ٢١٧٢).

(٥) صحيح: رواه البخاري في الأدب (٦٠٣٠) باب لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ولا متفاحشًا (١٠/ ٤٦٦)، وفي الدعوات باب قول النبي ﷺ يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا، ومسلم في البر والصلة والأدب (٢٥٩٤) باب فضل الرفق (٤/ ٢٠٠٤).

الفصل الثامن عشر
الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم

وأما خلقهﷺ في الوفاء، وحسن العهد، وصلة الرحم- فحدثنا القاضي أبو عامر محمد بن إسماعيل بقراءتي عليه، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الحبال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الأعرابي، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال حدثنا محمد بن سنان، قال: حدثنا إبراهيم ابن طهمان، عن بديل، عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، عن ابنه، عن عبد الله بن أبي الحمساء، قال: بايعت النبيﷺ ببيع قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدت أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «**يا فتى، لقد شققت عليّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك**»[١].

وعن أنس: كان النبيﷺ إذا أتي بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة**»[٢].

وعن عائشة قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها[٣].

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٩٦) باب في العدة (٤/ ٣٠١)، والبيهقي في السنن الكبري (١٠/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٢) والحاكم في المستدرك في البر والصله باب صلة النبيﷺ إلى صدائق خديجة (٤/ ١٧٥) وابن حبان في صحيحه (٧٠٠٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري في مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ خديجه وفضلها رضي الله عنها ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٥) باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها ، (٤/ ١٨٨٨) والترمذي في البر والصلة (٢٠١٧) باب ما جاء في حسن العهد (٤/ ٣٦٩) وفي المناقب (٣٨٧٥) باب فضل خديجة رضي الله عنها (٥/ ٧٠٢).

واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها [١].

ودخلت عليه امرأة، فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»[٢].

ووصفه بعضهم فقال: كان يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

وقال ﷺ: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحمًا سأبلها ببلالها**»[٣].

وقد صلى عليه السلام بأمامة ابنة ابنته يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

وعن أبي قتادة: وفد وفد للنجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك. فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم**»[٤].

ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن، وتعرفت له بسط له رداءه، وقال لها: «**إن أحببت أقمت عندي مكرمة محبة، أو متعتك ورجعت إلى قومك**»[٥] فاختارت قومها فمتعها.

وقال أبو الطفيل: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

وعن عمر بن السائب - أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبة، فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من

---

(١) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها (٤/ ١٨٨٩).

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٤٣٤٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب باب يبل الرحم ببلاها (١٠/ ٤٣٢).

(٤) ذكره البيهقي في السنن الكبرى باب الهجرة الأولى ثم الثانية (٢/ ٣٠٧).

(٥) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٢٢٦).

جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه.

[وكان يبعث إلي ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة، فلما ماتت سأل: «**من بقي من قرابتها**»؟. فقيل: لا أحد].

وفي حديث خديجة رضي الله عنها أنها قالت له ﷺ: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[١].

---

(١) صحيح رواه البخاري في الأنبياء باب اذكر في الكتاب موسى، ومسلم في الإيمان باب بدء الوحي (١/ ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢).

الفصل التاسع عشر
تواضعه ﷺ

وأما تواضعه ﷺ، على علو منصبه ورفعة رتبه - فكان أشد الناس تواضعًا، وأقلهم كبرًا.

وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع(١).

حدثنا أبو الوليد بن العواد الفقيه - رحمه الله- بقراءتي عليه في منزله بقرطبة سنة سبع وخمسمائة، حدثنا أبو علي الحافظ، حدثنا أبو عمر، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مسعر، عن أبي العنبس، عن أبي العدبس، عن أبي مرزوق، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا، فقمنا له. فقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضها بعضًا**»(٢).

وقال: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»(٣).

وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس.

---

(١) صحيح رواه مسلم في الإيمان (٣٠٢) باب الشفاعة (١/ ٤٧٦)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٤٠) والدارمي في السنن في المقدمة باب ما أعطي النبي ﷺ (١/ ٢٧).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٠) باب في قيام الرجل للرجل (٤/ ٣٦٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٥٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب اذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها (٤/ ٢٠٤).

وفي حديث عمر عنه: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[١].

وعن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي إليك حاجة. قال: «**اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتكِ**»[٢].

قال: فجلست، فجلس النبيﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.

قال أنس: كان رسول اللهﷺ يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف. قال: وكان يدعى إلى خبز الشعير، والإهالة السنخة فيجيب[٣]

وقال: وحج ﷺ على رحل رث، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: «**اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة**»[٤].

هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك مائة بدنة.

ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعًا لله تعالى.

ومن تواضعه ﷺ قوله: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**[٥]**، ولا تفضلوا بين**

---

(١) نفس الحديث السابق .

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٦) باب قرب النبيﷺ وتبركهم (٤/ ١٨١٢) وأبو داود في الأدب (٤٨١٨)، باب في الجلوس في الطرقات (٤/ ٢٥٨).

(٣) رواه الترمذي في الأحكام (١٣٣٨) باب ما جاء في قبول الهدنة (٣/ ٦١٤).

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد في الحج باب التواضع في الحج (٣/ ٢٢١) .

(٥) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب قوله تعالى: ﴿**وإن يونس لمن المرسلين**﴾ إلى قوله: ﴿**فمتعناهم**﴾ (٤/ ١٩٤). ومسلم في الفضائل (٢٣٧٦، ٢٣٧٧) باب في ذكر يونس عليه السلام (٤/ ١٨٤٦).

الأنبياء[١]، ولا تخيروني على موسى[٢]، ونحن أحق بالشك من إبراهيم[٣] ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي[٤]».

وقال للذي قال له: يا خير البرية: «**ذاك إبراهيم**»[٥].

وسيأتي الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله.

وعن عائشة، والحسن، وأبي سعيد، وغيرهم - في صفته، وبعضهم يزيد على بعض: كان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق[٦].

وعن أنس: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتى يقضي حاجتها[٧].

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال له: «**هون عليك، فإني لست**

---

(١) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب قوله تعالى: ﴿**وإن يونس لمن المرسلين**﴾ إلى قوله: ﴿**فمتعناهم إلى حين**﴾ (٤/ ١٩٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي ومسلم في الفضائل (٣٣٩) باب من فضائل موسى عليه السلام (٤/ ١٨٤١).

(٣) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب ونبئهم عن ضيف إبراهيم (٤/ ١٧٩) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٩) باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (٤/ ١٨٣٩).

(٤) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب قوله تعالى: ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾ ومسلم في الفضائل (١٥١) باب من فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام (٤/ ١٨٣٩).

(٥) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٩) باب من فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام (٤/ ١٨٣٩) وأبو داود في السنة (٤٦٧٢) باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤/ ٢١٧) وأحمد في مسنده (٣/ ١٧٨، ١٨٤).

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٣٨) باب ما يعمل الرجل في بيته (١٨٨).

(٧) صحيح: رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٢) باب الكبر (١٠/ ٤٨٩).

بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[١].

وعن أبي هريرة: دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل وقال للوزان: «**زن وأرجح**»[٢] - وذكر القصة- قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده، وقال: «**هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم**»[٣]. ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحمله، فقال: «**صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله**»[٤].

---

(١) رواه أبو داود في البيوع (٣٣٣٦) باب في الرجحان في الوزن (٣/ ٢٤٢)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٠٥، ١٤٢) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ١١١).

(٢) رواه أبو داود في البيوع (٣٣٣٦) باب في الرجحان في الوزن (٣/ ٢٤٢) والترمذي في البيوع (١٣٠٥)، باب ما جاء في الرجحان في الوزن (٣/ ٥٨٦)، والنسائي في البيوع باب الرجحان في الوزن (٧/ ٢٨٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٥٢).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٦٥٩٤) (٦/ ٣٥٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦١٦٢) (١١/ ٢٥).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٦٥٩٤)، (٦/ ٣٥٠) وأبو يعلى في مسنده (٦١٦٢)، (١١/ ٢٥)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٧١).

الفصل العشرون

عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته ﷺ

وأما عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته - فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادوه وعداه.

وكان يسمي قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة.

وقال تعالى: ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾[التكوير/ ٢١]: أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخل - وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد الأمين قد رضينا به.

عن الربيع بن خثيم: كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام.

وقال ﷺ: «**والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض**»[١].

حدثنا أبو عليّ الصدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خيرون، حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة، حدثنا أبو عليّ السنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن عليّ - أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به[٢]، فأنزل الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام/ ٣٣].

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/ ٢٣٩)، وذكره الهندي في كنز العمال (١٥٧٥٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١١).

وروى غيره: لا نكذبك ولا أنت فينا بمكذب.

وقيل: إن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر، فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا، تخبرني عن محمد، صادق [هو] أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمد قط.

وسأل هرقل عنه أبا سفيان، فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[(١)].

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، وأرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا، والله، ما هو بساحر.

وفي الحديث عنه: ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها.

وفي حديث عليّ - في وصفه ﷺ: أصدق الناس لهجة.

وقال في الصحيح: «ويحك! فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل»[(٢)].

قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسير سورة آل عمران (٤٥٥٣) باب قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء (٨/ ٦٢) ومسلم في الجهاد والبر (١٧٧٣) باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٣ / ٣٩٣، ١٣٩٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠) باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس (٦/ ٢٩٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ونصبر من قوي إيمانه (٢/ ٧٣٩)، وأحمد في مسنده (١/ ٤١١).

(٣) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠) باب صفة النبي ﷺ (٦/ ٦٥٤) ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧) باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله (٤/ ١٨١٣)، ومالك في الموطأ في حسن الخلق «٢» باب ما جاء في حسن الخلق (٢/ ٩٠٣).

قال أبو العباس المبرد: قسم كسرى أيامه، فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج.

قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، ولكن نبينا ﷺ جزء نهاره ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: «**أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع [إبلاغها] آمنة الله يوم الفزع الأكبر**»(١).

وعن الحسن: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحدًا بقرف أحد، ولا يصدق أحدًا على أحد(٢).

وذكر أبو جعفر الطبري عن عليّ عنه ﷺ: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت كذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم. فجلست أنظر، فضرب على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقض شيئًا. ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء**»(٣).

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٠) وعزاه للبيهقي والطبراني.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣١٠)، والهندي في كنز العمال (١٨٣٨٧).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦).

الفصل الحادي والعشرون
وقاره وصمته ﷺ

وأما وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فحدثنا أبو عليّ الجياني الحافظ إجازة، وعارضت بكتابه، قال: حدثنا أبو العباس الدلائي، أنبأنا أبو ذر الهروي، أخبرنا أبو عبد الله الوراق، حدثنا اللؤلؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عبد الرحمن بن سلام، حدثنا حجاج بن محمد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمر ابن عبد العزيز بن وهيب: سمعت خارجة بن زيد يقول: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئًا من أطرافه.

وروى أبو سعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه ﷺ محتبيًا(١).

وعن جابر بن سمرة أنه تربع(٢) وربما جلس القرفصاء(٣)، وهو في حديث قيلة، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيرًا له، واقتداء به. مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.

وفي صفته: يخطو تكفئًا، ويمشي هونًا، كأنما ينحط من صبب.

وفي الحديث الآخر: إذا مشى مشى مجتمعًا، يعرف في مشيته أنه غير غرض ولا وكل، أي غير ضجر ولا كسلان.

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٦) باب في جلوس الرجل (٤/ ٢٦٣) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١١٠).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٥٠) باب في الرجل يجلس متربعًا (٤/ ٢٦٤).

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٧) باب في جلوس الرجل (٤/ ٢٦٤).

وقل عبد الله بن مسعود: إن أحسن الهدي هدي محمدﷺ.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان في كلام رسول اللهﷺ ترتيل أو ترسيل.

قال ابن أبي هالة: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر.

قالت عائشة: كان رسول اللهﷺ يحدث حديثًا لو عده العاد أحصاه[١].

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيرًا، ويحض عليهما، ويقول: «**حبب إليّ من دنياكم النساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[٢].

ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب[٣]، والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسواك[٤]، وإنقاء البراجم والرواجب، واستعمال خصال الفطرة.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٧) باب صفه النبيﷺ (٦/ ٦٥) ومسلم في الزهد (٢٤٩٣) باب التثبت في الحديث (٤/ ١٩٤٠).

(٢) رواه النسائي في عشرة النساء باب حب النساء (٧/ ٦١)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ٢٨٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الجمعة (٨٨٧) باب السواك يوم الجمعة ومسلم (٢٥٢) والنسائي (١/ ١٢) وأحمد في مسنده (١/ ٢٣٧) وابن حبان في صحيحه (١٠٦٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم في الطهارة (٤٩) باب خصال الفطرة (١/ ٥٤١).

الفصل الثاني والعشرون

زهد في الدنيا

وأما زهده في الدنيا فقد تقدم من الأخبـار أثناء هذه السيرة ما يكفي. وحسبك من تقلله منها، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها إلي أن توفي ﷺ ودرعه مـرهونة عند يهودي في نـفقة عـياله، وهو يدعـو ويقول: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**(١).

حدثنا سـفيان بـن العاصي، والحسين بن مـحمد الحـافظ، والقاضي أبو عـبد الله التميمي، قالوا: حدثنا أحمد بن عـمر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي، قال: حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا أبو سفيان، حـدثنا أبو الحسين [مسلم] بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيـبة، حدثنا أبو مـعاوية عن الأعمـش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عـائشة، قـالت: ما شـبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تبـاعًا من خبـز حتى مـضي لسبيله(٢).

وفي رواية أخرى: من خبز شعـير يومين متواليين(٣)، ولو شاء الله لأعـطاه ما لا يخطر ببال.

وفي رواية أخرى: ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز بر حتى لقي الله تعالى(٤).

---

(١) صـحيح: رواه مسلم في الزكاة (١٠٥٥) باب في الكـفاف والقناعة (٢/ ٧٣٠) والترمذي في الزهد (٢٣٦١) باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (ح/ ٥٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الزهد (٢٩٧٠) باب كـتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٨١)، والترمذي في الزهد (٢٣٥٨)، باب ما جاء في معيشه النبي ﷺ وأهله (٤/ ٥٧٩).

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٥٧) باب ما جاء في معيشة النبي ﷺ (٤/ ٥٧٩).

(٤) تقدم تخريجه.

وقالت عائشة: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيراً[١].

وفي حديث عمرو بن الحارث: ما ترك إلا سلاحه وبغلته وأرضًا جعلها صدقة[٢].

قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكل ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي.

وقال لي: «**إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهبًا. فقلت: لا، يا رب، أجوع يومًا وأشبع يومًا، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك**»[٣].

وفي حديث آخر إن جبريل نزل عليه، فقال له: إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيثما كنت، فأطرق ساعة، ثم قال: «**يا جبريل، إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له**».

فقال له جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت.

وعن عائشة قالت: إن كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما نستوقد نارًا، إن هو إلا التمر والماء.

وعن عبد الرحمن بن عوف: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير[٤].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الوصية (١٦٣٥) باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (٣/ ١٢٥٦)، و أبو داود في الوصايا (٢٨٦٣) باب ما جاء في ما يؤمر به في الوصية (٣/ ١١١) وابن ماجه في الوصايا (٢٦٩٥) باب هل أوصى رسول الله ﷺ (٢/ ٩٠٠) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٣٩) باب الوصايا (٥/ ٤١٩)، والنسائي في الأحباس باب الأحباس (٦/ ٢٢٩) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٧٩) والدارقطني في السنن (٤/ ١٨٥).

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٧) باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٤/ ٥٧٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم في الزهد (٢٩٧٠) والترمذي في الزهد (٢٣٥٧) باب ما جاء في معيشه النبي ﷺ وأهله (٤/ ٥٧٩).

وعن عائشة وأبي أمامة، وابن عباس نحوه.

قال ابن عباس: كان ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاويًا لا يجدون عشاء[١].

وعن أنس: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة، ولا خبز له مرقق، ولا رأى شاة سميطًا قط[٢].

وعن عائشة: إنما كان فراشه الذي ينام عليه أدما حشوه ليف[٣].

وعن حفصة قالت: كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً نثنيه ثنيتين فينام عليه، فثنيناه له ليلة بأربع، فلما أصبح قال: «**ما فرشتم لي الليلة؟**» فذكرنا ذلك له، فقال: «**ردوه بحاله، فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي**».

وكان ﷺ ينام أحيانًا على سرير مرمول بشريط حتى يؤثر في جنبه[٤].

وعن عائشة قالت: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط ولم يبث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعًا يتلوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: «**يا عائشة،**

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الرقائق (٦٤٥٧) باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا (١١/ ٢٨٧) ومسلم في الزكاة (١٠٥٤) باب في الكفاف والقناعة (٢/ ٧٣٠) وفي الزهد باب المقدمة .

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأطعمة باب الخبز المرقق والأكل على الخوان والسفر (٩/ ٤٤٠). والترمذي في الأطعمة (١٧٨٨) باب ما جاء علام كان يأكل رسول الله ﷺ .

(٣) صحيح: رواه البخاري في الرقائق باب كيف كان عيش النبي ﷺ (١١/ ٢٨٧) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٢) باب التواضع في اللباس والاقتصار على الغليظ منه (٣/ ١٦٥٠) والترمذي في اللباس (١٧٦١) باب ما جاء في فراش النبي ﷺ (٤/ ٢٣٧) وأحمد في مسنده (٦/ ٧٣) .

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧) (٤/ ٥٨٨) وابن ماجه في الزهد باب مثل الدنيا (١٣٧٣).

ما لي وللدنـيا ، إخواني من أولي العـزم مـن الرسل صبـروا على مـا هو أشد من هذا، فـمضـوا على حالهم، فـقـدموا على ربهم، فـأكرم مـآبهم، وأجـزل ثوابهم، فأجـدني أستحـيي إن ترفهت في معيـشتي أن يقصر بي غـداً دونهم، وما من شيء هو أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي» .

قالت: فما أقام بعد إلا شهرًا حتى توفي ﷺ.

الفصل الثالث والعشرون

خوفه ربه وطاعته لهﷺ

وأما خوفه ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال في ما حدثناه أبو محمد بن عتاب قراءة مني عليه. قال: حدثنا أبو القاسم الطرابلسي، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا أبو عبد الله الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب - أن أبا هريرة كان يقول: قال رسول اللهﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»(١).

زاد في روايتنا، عن أبي عيسى الترمذي - رفعه إلي أبي ذر: «**إني أري ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله ، والله لو تعملون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلي الصعدات تجأورن إلى الله، لوددت أني شجرة تعضد**»(٢).

روي هذا الكلام: وددت أني شجرة تعضد - من قول أبي ذر نفسه. وهو أصح.

وفي حديث المغيرة: صلّى رسول اللهﷺ حتى انتفخت قدماه(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في تفسير سورة المائدة باب لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم (٨/ ١٣١). ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩) باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (٤/ ١٨٣٢).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٢) باب ما جاء في قول النبيﷺ :« **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً**» وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠) باب الحزن والبكاء (   ) وأحمد في مسنده (٥/ ١٧٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري في التهجد (١١٣٠) باب قيام النبيﷺ حتي ترم قدماه (٣/ ١٩)، رواه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهما (٢٨١٩) باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/ ٢١٧١) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٥١) (٦/ ١١٥).

وفي رواية : كان يصلى حتى ترم قـدماه، فقيل له: أتكلف هذا وقد غـفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

ونحوه عن أبي سلمة، وأبي هريرة.

وقالت عائشة: كان عمل رسول الله ﷺ ديمة، وأيكم يطيق ما كان يطيق![٢].

وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم[٣].

ونحوه عن ابن عباس، وأم سلمة، وأنس.

وقالت: كنت لا تشـاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته مـصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

وقال عـوف بن مـالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فـاستـاك ثم توضأ، ثـم قام يصلي، فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عـذاب إلا وقف فتـعوذ، ثم ركع، فـمكث بقـدر قيـامه، يقـول: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة**»[٤]، ثم سجد وقال مـثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك.

وعن حذيفة مثله، وقال: سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدتين نحوًا منه، وقال: حتى قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة[٥].

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) صحـيح: رواه البـخاري في الصـوم (١٩٨٧) باب هل يخص شيـئًا من الأيام (٤/ ٢٧٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١١) باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (٢/ ٤٤٠).

(٣) رواه أبو داود في الصوم (٢٤٣٠) باب في صوم المحرم (٢/ ٣٣٥) والنسائي في الصيام باب الاختلاف على محمد بن إبراهيم (٤/ ١٥٠) وأحمد في مسنده (١/ ٢٣١، ٢٢٧)، (٣/ ١٧٩)، (٦/ ١٠٧، ١٤٣).

(٤) رواه أبو داود في الصـلاة (٨٧٣) باب مـا يقـوله الرجل في ركـوعه وسـجـوده (١/ ٢٣٠) والنسائي في الافـتتـاح ، باب الدعاء في السـجود (٢/ ٢٢٣)، والبـيهقي في السـنن الكبرى (٢/ ٣١٠).

(٥) راوه أبو داود في الصلاة (٨٧٤) باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (١/ ٢٣٠).

وعن عائشة: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة(١).

وعن عبد الله بن الشخير: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل(٢).

وقال ابن أبي هالة: وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة(٣).

وقال عليه السلام: «**إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»(٤) - وروي: «**سبعين مرة**»(٥).

وعن عليّ رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته، فقال: «**المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة**».

وفي حديث آخر: «**وثمرة فؤادي في ذكره، وغمّي لأجل أمتي، وشوقي إلي ربي**».

---

(١) رواه النسائي في الافتتاح، باب تردد الآية (٢/ ١٧٧).

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (٩٠٤) باب البكاء في الصلاة (١/ ٢٣٧) والنسائي في السهو باب البكاء في الصلاة (٣/ ١٣) وأحمد في مسنده (٤/ ٢٥، ٢٦).

(٣) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٥٨).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٩٧، ٤٠٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٢) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٧٥)، (٨/ ٢٩٩).

(٥) صحيح: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (١١/ ١٠٤) والنسائي في التفسير وأحمد في مسنده (٢/ ٤٥٠).

الفصل الرابع والعشرين
صفات الأنبياء والرسل

اعلم وفقنا الله وإياك أن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، من كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق، وجميع المحاسن، هي هذه الصفة، لأنها صفات الكمال، والكمال والتمام البشري والفضل الجميع لهم صلوات الله عليهم، رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات، ولكن فضل الله بعضهم على بعض، قال الله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾[البقرة/ ٢٥٣]. وقال: ﴿ **وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[الدخان/ ٣٢].

وقد قال عليه السلام: «**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر**»، ثم قال آخر الحديث: «**على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، طوله ستون ذارعًا في السماء**»(١).

وفي حديث أبي هريرة: «**رأيت موسى فإذا هو رجل ضرب رجل أقنى، كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة، كثير خيلان الوجه ، أحمر كأنه خرج من ديماس**»(٢).

وفي حديث آخر: «**مبطن مثل السيف**»(٣)، قال: «**وأنا أشبه ولد إبراهيم به**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء (٣٣٢٧) باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٦/ ٤١٧). ومسلم في الجنة ووصفه نعيمها وأهلها (٢٨٢٦) باب أن في الجنة شجرة يسير الركب في ظلها مائة عام لا يقطعها (٤/ ٢١٨٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب وهل أتاك حديث موسى، وباب واذكر في الكتاب مريم (٤/ ١٨٦) ومسلم في الإيمان (١٦٥) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١/ ١٥١).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٧٤).

(٤) تقدم تخريجه .

وقال في حديث آخر في صفة عيسى: «**كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال**»(١).

وفي حديث أبي هريرة، عنهﷺ: «**ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبيًا إلا في ذروة من قومه**»(٢).

ويروى: «**في ثروة**»، أي كثرة ومنعه.

وحكى الترمذي، عن قتادة، ورواه الدارقطني من حديث قتادة عن أنس: ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهًا، وأحسنهم صوتًا.

وفي حديث هرقل: وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها(٣).

وقال تعالى في أيوب: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[ص / ٤٥].

وقال تعالى: ﴿**يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا**﴾[مريم/ ١٢: ١٥].

وقال: ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾[آل عمران/ ٣٩].

وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[آل عمران/ ٣٣، ٣٤].

وقال- في نوح: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾[الاسراء/ ٣].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في اللباس باب الجعد (٧/ ٢٠٧) ومسلم في الإيمان (١٦٩) باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١/ ١٥٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥٣٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي (١/ ٥).

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران/ ٤٥، ٤٦].

وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم/ ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[الأحزاب/ ٦٩].

قال النبي ﷺ: «كان موسى رجلاً حييًا ستيرًا ما يرى من جسده شيء استحياء..» الحديث[١].

وقال تعالى عنه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء / ٢١].

وقال في وصف جماعة منهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص/ ٢٦].

وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف/ ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسير باب: «ولا تكونوا كالذين آذوا موسى: «من سورة السجدة» والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٣).

والـنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِيـنَ (٨٩) أُوْلَئِكَ الَّذِيـنَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام/ ٨٤ : ٩٠].

فوصفهم بأوصاف جمّة من الصلاح والهدى والاجتباء والحكم والنبوة.

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات/ ١٠١]. و﴿عَلِيمٍ﴾[الذاريات/ ٢٨].

وقال: ﴿لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ الـلَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[الدخان/ ١٧، ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات/ ١٠٢].

وقال- في إسماعيل: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾[مريم / ٥٤، ٥٥].

وفي موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾[مريم/ ٥١].

وفي سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص/ ٣٠].

وقـال: ﴿وَاذْكُـرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الـدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُـمْ عِنـدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَـارِ﴾[ص/ ٤٥: ٤٧].

وفي داود: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص /٤٥]. ثم قـال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص/ ٢٠].

وقال – عن يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[يوسف/ ٥٥].

وفي موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾[الكهف/ ٦٩].

[وقال تعالى – عن شعيب: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[القصص/ ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا أُرِيـدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيـدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[هود/ ٨٨].

وقال: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾[الأنبياء/ ٧٤].

وقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء/ ٩٠].

قال سفيان: هو الحزن الدائم.

في آي كثيرة، ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم.

وجاء من ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: «**إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم،نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي**»(١).

وفي حديث أنس: وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم(٢).

وروي أن سليمان كان مع ما أعطي من الملك لا يرفع بصره إلى السماء تخشعًا وتواضعًا لله تعالى. وكان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ويأكل خبز الشعير.

وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين، وابن محجة الزاهدين.

وكانت العجوز تعترضه – وهو على الريح في جنوده، فيأمر الريح فتقف فينظر في حاجتها ويمضي.

وقيل ليوسف: ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

وروى أبو هريرة عنهﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه، فتسرج، فيقرأ القرآن قبل تسرج، ولا يأكل إلا من عمل يده»(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام (٤/ ٢٤٤). رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١١٦) باب ومن سورة يوسف (٥/ ٢٩٣). وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢،٤١٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب كان النبيﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه (٤/ ٢٣٢)، وابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٣٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب وآتينا داود زبورًا (٤/ ١٩٤) وفي التفسير باب سورة بني إسرائيل الإسراء (٦/ ١٠٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣١٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٢٧).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾[سبأ/ ١٠، ١١].

وكان سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يغنيه عن بيت المال.

وقال عليه السلام: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود. وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا. وكان يلبس الصوف، ويفترش الشعر، ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد، ويمزج شرابه بالدموع، ولم ير ضاحكًا بعد الخطيئة، ولا شاخصًا ببصره إلى السماء، حياء من ربه، ولم يزل باكيًا حياته كلها**»(١).

وقيل بكى حتى نبت العشب من دموعه، وحتى اتخذت الدموع في خده أخدودًا.

وقيل كان يخرج متنكرًا يتعرف سيرته، فيستمع الثناءعليه، فيزداد تواضعًا.

وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت حمارًا. قال: أنا أكرم على الله من أن يشغلني بحمار.

وكان يلبس الشعر، ويأكل الشجر، ولم يكن له بيت أينما أدركه النوم نام.

وكان أحب الأسامي إليه أن يقال له مسكين.

وقيل: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين كانت ترى خضرة البقل في بطنه من الهزال.

وقال عليه السلام: «**لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك أحب إليه من العطاء إليكم**»(٢).

وقال عيسى عليه السلام - لخنزير لقيه: اذهب بسلام. فقيل له في ذلك، فقال: أكره أن أعود لساني المنطق بسوء.

وقال مجاهد : كان طعام يحيى العشب.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الصيام (١٩٠) باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به (٢/ ٨١٦).
(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٣٣٢).

وكان يبـكي من خشـية الله حتى اتخـذ الدمع مجـرى في خده، وكـان يأكل من الوحش لئلا يخالط الناس.

وحكى الطبري، عن وهب، أن مـوسى كان يستظل بعـريش، ويأكل في نقرة من حجر، ويكرع فيها إذا أراد أن يشرب كما تكرع الدابة، تواضعًا لله بما أكرمه الله به من كلامه.

وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتـهم في الكمال وجميل الأخلاق، وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة، فلا نطول بها، ولا تلتفت إلى ما تجده ما في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا .

الفصل الخامس والعشرين

جمع الشمائل

قد أتيناك - أكرمك الله - في ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة، وأريناك صحتها لهﷺ، وجلينا من الآثار ما فيه مقنع، والأمر أوسع، فمجال هذا الباب في حقهﷺ ممتد، تنقطع دون نفاده الأدلاء، وبحر علم خصائصه زاخر لا تكدره الدلاء، لكنا أتينا فيه بالمعروف مما أكثره في الصحيح والمشهور من المصنفات، واقتصرنا في ذلك بقل من كل، وغيض من فيض، ورأينا أن نختم هذه الفصول بذكر حديث الحسن، عن أبي هالة، لجمعه من شمائله وأوصافه كثيرًا، وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله، ونصله بتنبيه لطيف على غريبه ومشكله.

حدثنا القاضي أبو عليّ الحسين بن محمد الحافظ - رحمه الله- بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسمائة ، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم عبد الله بن طاهر التميمي قراءة عليه، أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابوري ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي ، والقاضي أبو علي الحسن بن عليّ بن جعفر الوحشي، قالوا: حدثنا أبو القاسم عليّ بن أحمد بن محمد ابن الحسن الخزاعي، أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، أنبأنا أبو عيسى بن سورة الحافظ، قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جميع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي إملاء من كتابه، قال: حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هاله زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبد الله، عن ابن لأبي هالة، عن الحسن ابن عليّ بن أبي طالب رحمه الله، قال: سألت خالي هند بن أبي هالة.

قال القاضي أبو عليّ رحمه الله: وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن الحسن ابن أحمد بن خذاداذ الكرجي الباقلاني، قال: وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون، قالا: حدثنا أبو عليّ الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن

الحسن بن محمد بن شاذان بن حرب بن مهران الفارسي قراءة عليه فأقر به، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن عليّ بن [الحسين بن عليّ] بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب، قال: حدثني عليّ بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن عليّ، عن عليّ ابن الحسين، قال: قال الحسن بن عليّ - واللفظ لهذا السند: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ - وكان وصافًا - وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به، قال:

كان رسول الله ﷺ **فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ، من غير قَرَنٍ، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العينين، له نور يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنا، متماسكًا، سواء البطن والصدر، مشيح الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر بخرى كالخط، عاري الثديين، ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف - [أو قال: سائن الأطراف]، سبط العصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال تقلعًا، ويخطو تكفئًا، ويمشي هونًا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام.**

قلت: صف لي منطقه.

قال: كان رسول الله ﷺ **متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، لم يكن يذم ذواقًا، ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.**

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن عليّ زمانًا، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئًا.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: **كان دخوله لنفسه مأذونًا له في ذلك، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزء جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئًا، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم في ما أصلحهم، والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره.**

وقال في حديث سفيان بن وكيع: **يدخلون روادًا، ولا يتفرقون إلا عن ذواق، ويخرجونه أدلة** - يعني فقهاء.

قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟.

قال: كان رسول الله ﷺ **يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن**

أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه. ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

فسألته عن مجلسه: عما كان يصنع فيه.

فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه فيه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه. من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى.

وفي الرواية الأخرى: صاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء، وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته، وهذه الكلمة من غير الروايتين.

يتعاطون فيه بالتقوى متواصفين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويرحمون الغريب.

فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه.

فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ. ولا سخاب، ولا فحاش، ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يوئس منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا في ما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث. من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما

يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام.

هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع.

وزاد الآخر: قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟.

قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر. فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى.

وجمع له الحلم ﷺ في الصبر، فكان لا يغضبه شيء يستفزه. وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة.

انتهى الوصف بحمد الله وعونه.

الفصل السادس والعشرون
في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله: المشذَّب، أي البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: ليس بالطويل الممغط.

والشعر الرجل: الذي كأنه مُشِط فتكسر قليلاً، ليس بسبط ولا جعد.

والعقيقة: شعر الرأس. أراد إن انفرقت من ذات نفسها فرقها، وإلا تركها معقوصة. وروى: عقيصته.

وأزهر اللون: نيره. وقيل: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أي زينتها.

وهذا كما قال في الحديث الآخر: ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم(١).

والأمهق: هو الناصع البياض. والآدم: الأسمر اللون.

ومثله في الحديث الآخر: أبيض مشرب، أي فيه حمرة.

والحاجب الأزج: المقوص الطويل الوافر الشعر.

والأقنى: السائل الأنف، المرتفع وسطه.

والأشم: الطويل قصبة الأنف.

والقرن: اتصال شعر الحاجبين. وضده البلج.

ووقع في حديث أم معبد وصفه بالقرن.

والأدعج: الشديد سواد الحدقة.

وفي الحديث الآخر: أشكل العين، وأسجر العين، وهو الذي في بياضها حمرة(٢).

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٤٧) باب في صفة النبيﷺ ومبعثه وسنه (١٨١٨/٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٣٩) باب في صفة فم النبيﷺ وعينه وعقبه (١٨٢٠/٤).

والضليع: الواسع.

والشنب: رونق الأسنان، وماؤها.

وقيل: رقتها وتحريز فيها، كما يوجد في أسنان الشباب.

والفلج: فرق بين الثنايا.

ودقيق المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة.

بادن: ذو لحم متماسك، معتدل الخلق، يمسك بعضه بعضًا، مثل قوله في الحديث الآخر: لم يكن بالمطهم، ولا بالمكلثم، أي ليس بمسترخي اللحم.

والمكلثم: القصير الذقن.

وسواء البطن والصدر، أي مستويهما.

ومشيح الصدر، إن صحت هذه اللفظة فتكون من الإقبال، وهو أحد معاني «أشاح»، أي إنه كان بادي الصدر، ولم يكن في صدره قعس، وهو تطامن فيه. وبه يتضح قوله قبل: سواء البطن والصدر، أي ليس بمتقاعس الصدر، ولا مفاض البطن.

ولعل اللفظة: مَسيح - بالسين، وفتح الميم، بمعنى عريض، كما وقع في الرواية الأخرى. وحكاه ابن دريد.

والكراديس: رؤوس العظام، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: جليل المشاش والكتد.

والمشاش: رؤوس المناكب. والكتد: مجتمع الكتفين.

وشثن الكفين والقدمين: لحيمهما.

والزندان: عظما الذراعين.

وسائل الأطراف: أي طويل الأصابع.

وذكر ابن الأنباري أنه روي: سائل الأطراف، وقال: سائن - بالنون: [قال]: وهما بمعنى، تبدل اللام من النون، إن صحت الرواية بها.

وأما على الرواية الأخرى: وسائر الأطراف - فإشارة إلى فخامة جوارحه كما وقعت مفصلة فى الحديث .

ورحب الراحة: أي واسعها. وقيل: كني به عن سعة العطاء والجود. وخمصان الأخمصين: أي متجافي أخمص القدم، وهو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم.

مسيح القدمين: أي أملسهما، ولهذا قال: ينبو عنهما الماء.

وفي حديث أبي هريرة خلاف هذا، قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخمص.

وهذا يوافق معنى قوله: مسيح القدمين، وبه قالوا: سمى المسيح [عيسى] ابن مريم، أي [إنه] لم يكن له أخمص.

وقيل مسيح: لا لحم عليهما.

وهذا أيضًا يخالف قوله: شثن القدمين.

والتقلع: [هو] رفع الرجل بقوة.

والتكفؤ: الميل إلي سنن المشي، وقصده.

والهون: الرفق والوقار.

والذريع: الواسع الخطو، أي إن مشيه كان يرفع فيه رجليه بسرعة، ويمد خطوه، خلاف مشية المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة، كما قال: كأنما ينحط من صبب.

وقوله: يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه: أي لسعة فمه. والعرب تتمادح بهذا وتذم بصغر الفم.

وأشاح: مال وانقبض.

وحب الغمام: البرد.

وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة، أي جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه فتوصل عنه للعامة.

وقيل: يجعل منه للخاصة ، ثم يبدلها في جزء آخر بالعامة.

ويدخلون روادًا، أي محتاجين إليه وطالبين لما عنده.

ولا يتفرقون إلا عن ذواق: قيل: عن علم يتعلمونه، ويشبه أن يكون على ظاهره، أي في الغالب والأكثر .

والعتاد : العدة، والشيء الحاضر المعد.

والموازرة: المعاونة.

وقوله: لا يوطن الأماكن، أي لا يتخذ لمصلاه موضعًا معلومًا.

وقد ورد نهيه عن هذا مفسرًا في غير هذا الحديث.

وصابره: أي حبس نفسه على ما يريد صاحبه.

ولا تؤبن فيه الحرم: أي لا يذكرن فيه بسوء.

ولا تنثى فلتاته، أي لا يتحدث بها، أي لم تكن فيه فلتة، وإن كانت من أحد سترت.

ويرفدون: يعينون.

والسخاب : الكثير الصياح.

وقوله: ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ. قيل مقتصد في ثنائه ومدحه.

وقيل: إلا من مسلم.

وقيل: إلا من مكافئ على يد سبقت من النبي ﷺ له.

ويستفزه: يستخفه.

وفي حديث آخر في وصفه: منهوس العقب، أي قليل لحمها[1].

وأهدب الأشفار، أي طويل شعرها.

---

(١) تقدم تخريجه .

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته ﷺ.

لا خلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة، وأقربهم زلفى.

واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جدًا، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها وحصرنا معاني ما ورد منها في اثنى عشر فصلاً.

الفصل الأول

مكانته ﷺ

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه، والاصطفاء، ورفعة الذكر، والتفضيل، وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب.

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل إذنا بلفظه، قال: حدثنا أبو الحسن الفرغاني، حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر بن يعقوب، عن أبيها، قال: حدثنا حاتم - هو ابن عقيل، عن يحيى - هو ابن إسماعيل، عن يحيى الحماني، قال: حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عباية بن ربعي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني من خيرهم قسمًا، فلذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾**[الواقعة/ ٢٧] و **﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾**[الواقعة / ٤١]، **فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين**[(١)].

ثم جعل القسمين أثلاثًا، فجعلني في خيرها ثلثًا، وذلك قوله تعالى: **﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾**[الواقعة/ ٨]، **﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾**[الواقعة/ ٩] و**﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾**[الواقعة/ ١٠]، فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: **﴿جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[الحجرات / ١٣].

فأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله ولا فخر.

ثم جعل القبائل بيوتًا، فجعلني من خيرها بيتًا. فذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾**[الأحزاب/ ٣٣].

وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٤، ٢١٥).

النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»(١).

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٢).

ومن حديث أنس: «**أنا أكرم ولد آدم على ربّي ولا فخر**»(٣).

وفي حديث ابن عباس: «**أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**»(٤).

وعن عائشة، عنه عليه السلام: «**أتاني جبريل، فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم**»(٥).

وعن أنس: أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، فارفض عرقًا.

وعن ابن عباس، عنه عليه السلام: «**لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلي الأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبوي لم يلتقيا علي سفاح قط**».

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بقوله:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرًا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٠٩) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٥).
(٢) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٦) باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٤/ ١٧٨٢). والترمذي في المناقب (٣٦٠٥) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٤).
(٣) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٠) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٣٦٠٧).
(٤) رواه الترمذي في المناقب (١٣١٦) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ١١ ٠ ٣٦).
(٥) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٢١).

في بعض النسخ أبيات أخر، وهي قوله:

حتى احتوى بيتك المهيمن مـــن خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الـ ـأرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ ـور وسبل الرشاد نخترق
يا برد نار الخليل يا سببًا لعصمة النار وهي تحترق

[النطق: أوسط الجبال العالية].

وروى عنهﷺ، أبو ذر، وابن عمر، وابن عباس، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله- أنه قال: «**أعطيت خمسًا**»، وفي بعضها: «**ستًا لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلي الناس كافة، وأعطيت الشفاعة**»(١).

وفي رواية - بدل هذه الكلمة: «**وقيل لي: سل تعطه**»(٢).

وفي رواية: «**وعرض عَلَيَّ أمتي فلم يخف عليّ التابع من المتبوع**»(٣).

وفي رواية: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**». قيل: السود العرب، لأن الغالب على ألوانهم الأدمة، فهم من السود، والحمر: العجم(٤).

وقيل: البيض والسود من الأمم.

وقيل: الحمر: الإنس - والسود: الجن.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التيمم باب قول الله تعالى: ﴿**فلم تجدوا ماء فتيمموا**﴾ (١/ ٩٩). ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (١/ ٣٧٠).
(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٦، ٣٨، ٣٨٦، ٤٣٧، ٤٤٥).
(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٢).
(٤) تقدم تخريجه.

وفي الحديث الآخر - عن أبي هريرة: «**نصرت بالرعب، وأتيت جوامع الكلام، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي**»(١).

وفي رواية - عنه: «**وختم بي النبيون**»(٢).

وعن عقبة بن عامر أنه قال: قال عليه السلام: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني -والله- ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، وعلمت خزنة النار وحملة العرش**»(٤).

وعن ابن عمر: «**بعثت بين يدي الساعة**».

ومن رواية ابن وهب - أنه عليه السلام قال: «**قال الله تعالى: سل يا محمد فقلت ما أسأل يا رب؟ اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، واصطفيت نوحًا، وأعطيت سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فقال الله تعالى: ما أعطيتك خير من ذلك، أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمي، ينادى به في جوف السماء، وجعلت الأرض طهورًا لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت تمشي في الناس مغفورًا لك، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك، وجعلت قلوب أمتك مصاحفها، وخبأت لك شفاعتك، ولم أخبأها لنبي غيرك**».

وفي حديث آخر رواه حذيفة: «**بشرني**» - يعني ربه- «**بأني أول من يدخل الجنة**

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الاعتصام (٧٢٧٣) باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم وفي المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (١/ ٣٧٠).

(٢) صحيح: ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (١/ ٣٧٠) والترمذي في السير (١٥٥٣) باب ما جاء في العتيمة وأحمد في مسنده (٢/ ٤١٢) والبيهقي في السنن (٢/ ٤٣٢).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٢، ٢١٢).

(٤) ذكره الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٣٤٧).

(١) صحيح: رواه البخاري في فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي ومسلم في الإيمان (١٥٢)

ومعي من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا ليس عليهم حساب، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تغلب، وأعطاني النصر والعزة والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرًا، وطيب لي ولأمتي المغانم، وأحل لنا كثيرًا مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج» .

وعن أبي هريرة، عنه عليه السلام: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[١] .

معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عيانًا لا خبرًا إلى القيامة.

وفيه كلام يطول هذا نخبته. وقد بسطنا القول فيه وفيما ذكر فيه سوى هذا، آخر باب المعجزات.

وعن عليّ رضي الله عنه: كل نبي أعطي سبعة نجباء، وأعطي نبيكم ﷺ أربعة عشر نجيبًا، منهم أبو بكر ، وعمر، وابن مسعود، وعمار[٢] .

وقال ﷺ : «**إن الله قد حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار**»[٣] .

وعن العرباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وعدة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم**»[٤] .

باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٤).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٧٨٥) باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام (٥/ ٦٦٢) .

(٣) صحيح: رواه البخاري في اللقطة باب كيف نعرف لقطة مكة ومسلم في الحج (١٣٥٥) باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد علي الدوام (٢/ ٩٨٨).

(٤) وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٧).

(١) ذكره الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠) ، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢١) (٥/ ٢٦٢).

وعن ابن عباس، قال: إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم، قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿**وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾[الأنبياء/ ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[الفتح/ ١، ٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾[إبراهيم/ ٤].

وقال لمحمد: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾[سبأ/ ٢٨].

وعن خالد بن معدان أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك.

وقد روى نحوه عن أبي ذر، وشداد بن أوس، وأنس بن مالك، فقال: «**نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم**[1]- يعني قوله: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً**﴾ [البقرة/ ١٢٩]. - «**وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض**».

وفي حديث آخر: «**ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوءة ثلجًا، وأخذاني فشقا بطني**».

قال في غير هذا الحديث: «**من نحري إلى مراق بطني، ثم استخرجا منه قلبي، فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه**».

قال في حـديث آخر: «**ثم تناول أحـدهما شـيئًا فـإذا بخاتم في يده من نور يحـار الناظر دونه، فختم به قلـبي، فامتلأ إيمانًا وحكمة، ثم أعـاده مكانه، وأمرّ الآخر يده على مفرق صدري فالتأم** ».

وفي رواية: إن جبـريل قال: «**قلب وكيع، أي شـديد فيـه عينان تبـصران، وأذنان سميـعتان، ثم قال أحدهما لـصاحبه: زنه بعشرة من أمـته، فوزنني فرجحـتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمـتـه، فوزنـني بهم فـوزنتهم، ثم قـال: زنه بألف مـن أمتـه، فـوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها**».

قال في الحديث الآخر: «**ثم ضموني إلى صدورهم، وقـبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: يا حبيب لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك**».

وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «**ما أكرمك على الله! إن الله معك وملائكته**».

قال في حديث أبي ذر: «**فما هو إلا أن وليا عني، فكأنما أرى الأمر معاينة**».

وحكى أبو محمد مكي، وأبو الـليث السمرقندي وغيرهما - أن آدم عند معـصيته قال: اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي.

ويروى: تقبل توبتي. فقال له الله: من أين عرفت محمدًا؟ فقال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ويروى: محمد عبدي ورسولي، فـعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه، وغفر له.

وهذا عنـد قـائلـه تأويل قـوله تعـالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**﴾[البقرة/ ٣٧].

وفي رواية الآجري [قال]: فقال آدم، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدرًا عندك ممن جعلت اسـمه مع اسمك، فأوحى الله إليـه: وعزتي وجلالي، إنه لآخـر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك.

قال: وكان آدم يكني بأبي محمد، وقيل: بأبي البشر.

ورُوي عن سريج بن يونس أنه قال: إن لله ملائكة سياحين عيادتها كل دار فيها أحمد، أو محمد، إكرامًا منهم لمحمد ﷺ.

وروى ابن قانع القاضي، عن أبي الحمراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما أسرى بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أيدته بعليّ**».

وفي التفسير، عن ابن عباس- في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا**﴾ [الكهف/ ٨٢] - قال: لوح من ذهب فيه مكتوب: عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجبًا لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبًا لمن رأي الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! أنا الله ، ولا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي.

وعن ابن عباس: على باب الجنة مكتوب: إني أنا الله، لا إله إلا أنا، محمد رسول الله، لا أعذب من قالها.

وذكر أنه وجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي مصلح، وسيد أمين.

وذكر السمنطاوري أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولودًا ولد على أحد جنبيه مكتوب: لا إله إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول الله.

وذكر الأخباريون أن ببلاد الهند وردًا أحمر مكتوبًا عليه بالأبيض: لا إله إلا الله، محمدًا رسول الله.

وروى عن جعفر بن محمد، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ألا ليقم من اسمه محمد، فليدخل الجنة لكرامة اسمه عليه السلام

وروى ابن القاسم في سماعه، وابن وهب في جامعه، عن مالك: سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلا قد وقوا.

وعنه عليه السلام: ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة[1].

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٤٥٢٠٥).

وعن عبد الله بن مسعود: إن الله نظر إلى قلوب العباد، واختار منها قلب محمد عليه السلام، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته.

وحكى النقاش أن النبيﷺ لما نزلت: ﴿**وما كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾[الأحزاب/ ٥٣] - قام خطيبًا، فقال: «**يا معشر أهل الإيمان، إن الله تعالى فضلني عليكم تفضيلاً، وفضل نسائي على نسائكم تفضيلاً ...**» الحديث .

الفصل الثاني
كرامة الإسراء

في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية، وإمامة الأنبياء، والعروج به إلي سدرة المنتهى، وما رأى من آيات ربه الكبرى.

ومن خصائصه - عليه السلام قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز، وشرحته صحاح الأخبار، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الاسراء/ ١].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم/ ١:١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الاسراء به عليه السلام، إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخواص نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديث كثيرة منتشرة - رأينا أن نقدم أكملها ، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها:

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ، والفقيه أبو بحر بسماعي عليهما، والقاضي أبو عبد الله التميمي، وغير واحد من شيوخنا، قالوا: حدثنا أبو العباس العذري، [قالوا]: حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان،

حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه**» - قال: «**فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة**» .

ثم عرج بنا إلي السماء ، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل ، فقيل: من أنت: قال: جبريل: قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا ﷺ، فرحبا بي، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، «**ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي، ودعا لي بخير**».

ثم عرج بنا إلي السماء الرابعة وذكر مثله، «**فإذا أنا بإدريس ، فرحب بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى:** ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾[مريم / ٥٧] .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله، «**فإذا أنا بهارون، فرحب بي، ودعا لي بخير.**

ثم عرج بنا رلى السماء السادسة ، فذكر مثله «فإذا أنا بموسى فرحب بى ،ودعا لى بخير».

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله، «فإذا أنا بإبراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه».

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال»، قال: «**فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم**

وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فأساله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم».

قال: «فرجعت إلي ربي، فقلت: يا رب، خفف عن أمتي. فحط عني خمسًا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسًا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرًا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة».

قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته ، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسول اللهﷺ: «فقلت: قد رجعت إلي ربي حتى استحييت منه»[(١)].

قال القاضي - رضي الله عنه: جوَّد ثابت رضي الله عنه هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا.

وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطًا كثيرًا، لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر في أوله مجيء الملك له، وشق بطنه، وغسله بماء زمزم، وهذا إنما كان وهو صبي، وقبل الوحي.

وقد قال شريك في حديثه: وذلك قبل أن يوحى إليه، وذكر قصة الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي.

وقد قال غير واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الصلاة باب كيف فرضت الصلاة ومسلم في الإيمان (١٦٢) باب الإسراء برسول اللهﷺ إلى السماوات وفُرض الصلاة (١/ ١٤٥) وأحمد في مسنده

وقد روي ثابت عن أنس، من رواية حماد بن سلمة أيضًا مجيء جبريل إلي النبيﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وشقه قلبه - تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما رواه الناس، فجود في القصتين، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلي بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، فأزاح كل إشكال أوهمه غيره[١].

وقد روى يونس ، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول اللهﷺ قال: «**فرج سقف بيتي، [وأنا بمكة]، فنزل جبريل ، ففرج صدري ، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بنا إلى السماء ....**» فذكر القصة[٢].

وروى قتادة الحديث، بمثله، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، وفها تقديم وتأخير وزيادة ونقص، وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات.

وحديث ثابت، عن أنس - أتقن وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء زيادات نذكر منها نُكَتاً مفيدة في غرضنا:

منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قول كل نبي له: «**مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح**»، **إلا آدم وإبراهيم فقالا: «والابن الصالح»**[٣].

وفيه - من طريق ابن عباس: « **ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»[٤].

(١٤٨/٣).

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٦٢) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات (١٤٥/١).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٦٣) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة (١٤٨/١).

(٣) تقدم تخريجه (١٦٣) حديث .

وعن أنس: «**ثم انطلق بي حتى أتيت سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدرى ما هي**» **قال**: «**ثم أدخلت الجنة**»[١].

وفي حديث مالك بن صعصعة: «**فلما جاوزته**» - يعني موسى- «**بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي**»[٢].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأممتهم، فقال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن النار، فسلم عليه. فالتفت فبدأني بالسلام**»[٣].

وفي حديث أبي هريرة: «**ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين. قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة**»! ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم، وذكر كلام كل واحد منهم، وهُم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان[٤].

ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه عزّ وجل فقال: «**كلكم أثنى على ربه، وأنا أثنى على ربي. الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء. وجعل أمتي خير أمة، وجعل أمتي أمة وسطًا، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجلعني فاتحًا وخاتمًا**»[٥].

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد.

---

(١) تقدم تخريجه (١٦٣) حديث.

(٢) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (٢٥٠) باب الاسراء برسول الله ﷺ (١/ ١٤٥).

(٣) ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٨٧).

(٤) ذكره الزيلعى في نصب الراية (١/ ٢٦٠).

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٩).

ثم ذكر أنه عرج به إلي السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء، نحو ما تقدم.

وفي حديث ابن مسعود: «وانتهي بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها»، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[النجم/ ١٦]. قال: «فراش من ذهب»[١].

وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أنس: «فقيل لي: هذه السدرة المنتهى ينتهى إليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك، وهي السدرة المنتهى، يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسبر الراكب في ظلها سبعين عامًا، وإن ورقة منها مظلة الخلق، فغشيها نور، وغشيتها الملائكة»[٢].

قال: فهو قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[النجم/ ١٦].

فقال الله تبارك وتعالى لي: سل. فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكًا عظيمًا. وكلمت موسى تكليمًا، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا، وسخرت له الجن والأنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت موسى التوارة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمة والأبرص، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل.

فقال لي ربي تعالى: قد اتخذتك خليلاً. فهو مكتوب في التوارة: محمد حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون، وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقًا. وآخرهم بعثًا، وأعطيتك سبعًا من المثاني، ولم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك

---

(١) صحيح رواه مسلم في الإيمان (١٧٣) باب ذكر سدرة المنتهى (١/ ١٥٧).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧١) وعزاه إلى البزار ورجاله موثقون إلا أن الربيع بن أنس قال عن أبي العالية أو غيره متابعيه مجهول.

خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبيًا قبلك وجعلتك فاتحًا وخاتمًا».

وفي الرواية الأخرى قال: فـأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات(١).

وقال: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ**﴾[النجم: ١١، ١٢]. رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح.

وفي حديث شريك أنه رأى موسى في السابعة - قال: بتفضيل كلام الله.

قال: ثم عـلا به فوق ذلك بما لا يعلمـه إلا الله، فقال مـوسى: لم أظن أن يرفع علي أحد.

وقد روي عن أنس أنه ﷺ صلّى بالأنبياء ببيت المقدس.

[وعن أنس رضي الله عنه، قال: قـال رسول الله ﷺ: «**بينما أنا قـاعد ذات يوم إذ دخل جبـريل، فوكز بين كتـفي، فقمت إلي شـجرة فيهـا مثل وكري الطائر، فقـعد في واحدة وقعدت في الأخرى، فنمت حتى سدت الخـافقين. ولو شئت لمسست السماء. وأنا أقلب طرفي، نظرت جـبريل كـأنه حلس لاطئ، فعـرفت فضل علمـه بالله علي، وفـتح لي باب الـسـمـاء، ورأيت النور الأعظم، ولط دوني الحـجـاب، وفـرجـه الدر والياقوت.**

ثم أوحى الله إلى ما شاء أن يوحى](٢)».

وذكـر البـزار عن علـي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أراد الله تـعـالى أن يعلم رسوله الأذان جاء جـبريل بدابة يقال لها البراق، فذهب يركـبها، فاستصـعبت عليه، فقال لها جبريل: اسكني، فوالله ما ركبك عـبد أكرم على الله من محمد ﷺ، فركبها حتى أتى إلى الحـجاب الذي يلي الرحمن تعـالى، فبينا هو كـذلك إذ خرج ملك من الحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «**يا جبريل من هذا**»؟.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه البخاري في الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ١٤٥).

قال: والذي بعثك بالحق، إني لأقرب الخلق مكانًا، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فقال الملك: الله أكبر. الله أكبر. فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر. أنا أكبر.

ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله. فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا الله لا إله إلا أنا.

وذكر مثل هذا في بقية الآذان، إلا أنه لم يذكر جوابًا عن قوله: حي على الصلاة. حيّ على الفلاح.

وقال: ثم أخذ الملك بيد محمد، فقدمه، فأم أهل السماء، فيهم آدم ونوح[1].

قال أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، راويه: أكمل الله تعالى لمحمد ﷺ الشرف على أهل السموات والأرض.

قال القاضي - رضي الله عنه: ما في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والباري جل اسمه منزه عما يحجبه. إذا الحجب إنها تحيط بمقدر محسوس، ولكن حجبه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء وكيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين/ ١٥].

فقوله في هذا الحديث: «الحجاب»، «وإذ خرج ملك من الحجاب» - يجب أن يقال: إنه حجاب حجب به من وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته، وعجائب ملكوته وجبروته.

ويدل عليه من الحديث قول جبريل- عن الملك الذي خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فدل على أن هذا الحجاب لم يختص بالذات.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٢٨) وعزاه إلى البزار وفيه زيادة ابن المنذر والسيوطي في الدار المنثور (٤/١٦٦).

ويدل عليه قول كعب في تفسير: «سدرة المنتهى» - قال: إليها ينتهي علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله، لا يجاوزها علمهم.

وأما قوله: الذي يلي الرحمن فيحمل على حذف المضاف، أي يلي عرش الرحمن، أو أمرًا ما من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه، مما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ أى أهلها [يوسف/ ٨٢].

وقوله: فقيل من وراء الحجاب: صدق [عبدي]، أنا أكبر - فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلام الله، ولكن من وراء حجاب، كما قال: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ** ﴾[الشورى/ ٥١]، أي وهو لا يراه، حجب بصره عن رؤيته.

فإن صح القول بأن محمدًا ﷺ رأي ربه - عز وجل- فيحتمل أنه في غير هذا الموطن بعد هذا أو قبله، رفع الحجاب عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

الفصل الثالث

حقيقة الإسراء

ثم اختلف السلف والعلماء: هل كان إسراء بروحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات:

فذهبت طائفة إلي أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي، وإلى هذا ذهب معاوية.

وحكى عن الحسن، والمشهور عنه خلافه، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحجتهم قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾[الإسراء: ٦٠].

وما حكوا عن عائشة رضي الله عنها: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ.

وقوله: «**بينا أنا نائم**»(١).

وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام . . . وذكر القصة، ثم قال في آخرها: «**فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام**».

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة، ومالك ابن صعصعة، وأبي حبة البدري، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، وابن شهاب، وابن زيد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، وهو دليل قول عائشة، وهو قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين. وقول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في مناقب الأنصار باب المعراج (٧/ ٢٤١) . ومسلم في الإيمان (١٦٣) باب الإسراء (١/ ١٤٥).

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾[الإسراء/ ١]، فجعل «إلى المسجد الأقصى» غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبيﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلي زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح.

ثم اختلفت هذه الفرقتان: هل صلّى ببيت المقدس أم لا؟.

ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه. وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان ، وقال: والله ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا

قال القاضي: والحق من هذا والصحيح إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده، ولم يقل: ﴿**بعبده**﴾. وقوله تعالى: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾[النجم /١٧]، ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم، وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن منهم ذلك إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما روى غيره، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء، فيقال: من معك؟ فيقال: محمد، ولقائه الأنبياء فيها، وخبرهم معه، وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك.

وفي بعض هذه الأخبار : «**فأخذ**» -يعني جبريل- «**فعرج بي إلى السماء ...**» إلى قوله: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»، وأنه وصل إلى

سدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة، ورأى فيها ما ذكره.

قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبيﷺ لا رؤيا منام.

وعن الحسن فيه: «**بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه، فقمت فلم أر شيئًا، فعدت لمضجعي**» - ذكر ذلك ثلاثًا، فقال في الثالثة: «**فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد فإذا بدابة ...**» وذكر خبر البراق.

وعن أم هانئ: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتى، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة، ونام بيننا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ، فلما صلّى الصبح وصلينا قال: «**يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون**»(١).

وهذا بين في أنه بجسمه.

وعن أبي بكر من رواية شداد بن أوس عنه - أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسرى به: طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك. فأجابه: «**إن جبريل عليه السلام حملني إلى المسجد الأقصى**»(٢).

وعن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**صليت ليلة أسرى بي في مقدم المسجد، ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث ...**»(٣). وذكر الحديث.

وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة، فتحمل على ظاهرها.

وعن أبي ذر، عنه ﷺ: «**فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، فشرح صدري،**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٦٥).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٣) وعزاه إلى البزار والطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن إبراهيم بن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٤٨)، والهندي في كنز العمال (٣٥٤٤٧).

(٤) صحيح: رواه البخاري في الصلاة (٣٤٩) باب كيف فرضت الصلوات في الاسراء =

ثم غسله بماء زمزم....» إلى آخر القصة، «ثم أخذ بيدي، فعرج بي»(٤).

وعن أنس: «**أتيت فانطلق بي إلى زمزم، فشرح عن صدري**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «**لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كربا ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه**»(٢).

ونحوه عن جابر:

وقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث الإسراء عنهﷺ أنه قال: «**ثم رجعت إلي خديجة وما تحولت عن جانبها**».

= (١/ ٥٤٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤) باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ١٥٠) وأحمد في مسنده (١/ ١٢٢، ١٤٣).

(١) صحيح: رواه البخاري في الصلاة (٣٤٩) باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (١/ ٥٤٧). ومسلم في الإيمان (١٦٣) باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ١٤٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٧٢) باب ذكر المسيح بن مريم عليه السلام والمسيخ الدجال (١/ ١٥٧).

الفصل الرابع
في إبطال حجج من قال إنها نوم

احتجوا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾[الإسراء/ ٦٠]، فسماها رؤيا؟ .

قلنا: قوله سبحانه وتعالى: ﴿**الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾[الإسراء/ ١] - يرده ، لأنه لا يقال في النوم: أسرى.

وقوله: ﴿**فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾. يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء بشخص، إذ ليس في الحلم فتنة. ولا يكذب به أحد، لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة.

على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قضية الحديبية، وما وقع في نفوس الناس من ذلك. وقيل غير هذا.

وأما قولهم: إنه قد سماها في الحديث منامًا.

وقوله في حديث آخر: «**بين النائم واليقظان**».

وقوله أيضًا: وهو نائم. وقوله: «**ثم استيقظت**» - فلا حجة فيه، إذ قد يحتمل أن أول وصول الملك إليه كان وهو نائم، أو أول حمله والإسراء به وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائمًا في القصة كلها إلا ما يدل عليه: ثم استقيظت وأنا في المسجد الحرام، فلعل قوله: استيقظت بمعنى أصبحت، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته.

ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله، وإنما كان في بعضه.

وقد يكون قوله: استيقظت وأنا في المسجد الحرام لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض، وخامر باطنه من مشاهدة الملأ الأعلى، وما

رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

ووجه ثالث أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه، ولكنه أسرى بجسده وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا. قال: تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى.

ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات.

ووجه رابع، وهو أن يعبر بالنوم هاهنا عن هيئة النائم من الاضطجاع، ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد، عن همام: «**بينا أنا نائم**» - وربما قال: مضطجع.

وفي رواية هدبة، عنه: «**بينا أنا نائم في الحطيم**» - وربما قال: في الحجر - مضطجع. وقوله في الرواية الأخرى: «**بين النائم واليقظان**».

فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالبًا.

وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من: النوم، وذكر شق البطن، ودنو الرب عزّ وجل الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنس، فهي منكرة من روايته، إذ شق البطن في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره ﷺ وقبل النبوة، ولأنه قال في الحديث: «قبل أن يبعث»، والإسراء بإجماع كان بعد المبعث، فهذا كله يوهن ما وقع في رواية أنس، ما أن أنسًا قد بين من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره، وأنه لم يسمعه من النبي ﷺ، فقال مرة: عن مالك بن صعصعة، وفي كتاب مسلم: لعله عن مالك بن صعصعة - على الشك. وقال مرة: كان أبو ذر يحدث.

وأما قول عائشة: ما فقد جسده، فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن حينئذ زوجه، ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت بعد، على الخلاف في الإسراء متى كان، فإن الإسراء كان في أول الإسلام على قول الزهري ومن وافقه بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجـرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأشبه أنه لخمس.

والحجة لذلك تطول، وليست من غرضنا، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها علي خبـر غيرها، وغيرها يقول خلافه مما وقع نصًا في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضًا فليس حـديث عائـشة رضي الله عنهـا بالثـابت، والأحاديث الأخـر أثبت، ولسنا نعني حديث أم هانئ، وما ذكرت فيه خديجة.

وأيضًا فقـد روي في حديث عـائشة: «مـا فقدت»، ولـم يدخل بهـا النبي ﷺ إلا بالمدينة.

وكل هذا يوهنه، بل الذي يدل عـليه صـحيح قـولهـا: إنه بجسـده، لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤيا عين، ولو كانت عندها منامًا لم تنكره.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[النجم/ ١١] - فقد جعل ما رآه للقلب، وهنا يدل على أنه رؤيا نوم ووحي، لا مشاهدة عين وحس.

قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾[النجم/ ١٧]- فقد أضاف الأمر للبصر.

وقد قال أهل التفسـير في قوله تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[النجم/ ١١]، أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها.

وقيل: ما أنكر قلبه ما رأته عينه.

الفصل الخامس

رؤيتــه لــربــه

وأما رؤيته - ﷺ لربه جل عز- فاختلف السلف فيها، فأنكرته عائشة.

حدثنا أبو الحسين سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه، قال: حدثني أبي وأبو عبد الله بن عـتاب الفقيه، قـالا: حدثنا القاضي يونس بن مغيـث، حدثنا أبو الفضل الصـقلي، حدثنا ثابت بن قـاسم بن ثابت، عن أبيـه وجده، قالا حـدثنا عبـد الله بن عليّ، قال: حدثنا محمود بن آدم، حـدثنا وكيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مـسروق - أنه قـال لعائـشة رضي الله عنهـا - يا أم المؤمنين، هل رأى مـحمـد ربه؟ فقالت: لقـد قف شعري مما قلت. ثلاث من حدثك بهن فقـد كذب: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فـقد كذب، ثم قرأت: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[الأنعام/ ١٠٣]، وذكر الحديث[(١)].

وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود.

ومثله عن أبي هريرة أنه [قال]: إنما رأى جبـريل. واختلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين، والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رآه بعينه.

وروى عطاء عنه - أنه رآه بقلبه.

وعن أبي العالية، عنه: رآه بفؤاده مرتين[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسـير سورة النجم باب حدثنا يحيى حدثنا وكيع (١/ ٤٧٢)، ومسلم في الإيمان (١٧٥) باب مـعنى قول الله عز وجل: ﴿**ولقد رآه نزلة أخرى**﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/ ١٥٨).

(٢) صـحـيح: رواه مـسلم في الإيمان (١٧٦) باب معني قـول الله عـز وجل: ﴿**ولقـد رآه نزلة أخرى**﴾ وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١/ ٥٨).

وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، روي ذلك عنه من طرق، وقال: إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمداً بالرؤية.

وحجته قوله تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ**﴾[النجم/ ١١، ١٢، ١٣].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمدﷺ، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

وحكى أبو الفتح الرازي، وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب.

وروى عبد الله بن الحارث، قال: اجتمع ابن عباس وكعب، فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول إن محمداً قد رأى ربه مرتين، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى، فكلمه موسى، ورآه محمد بقلبه[١].

وروى شريك عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية، قال: رأى النبيﷺ ربه.

وحكى السمرقندي، عن محمد بن كعب القرظي، وربيع بن أنس - أن النبي ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «**رأيته بفؤادي، ولم أره بعيني**»[٢].

وروى مالك بن يخامر، عن معاذ، عن النبي ﷺ، قال: «**رأيت ربي** ...» وذكر كلمة، «**فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى** ..» الحديث[٣].

وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه.

وحكاه أبو عمر الطلمنكي عن عكرمة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة النجم (٧/ ٦٤٦).
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة النجم (٧/ ٦٤٧).
(٣) أحمد في مسنده (٥/ ٢٤٣). والسيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٤٧).

وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة . هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

وحكى النقاش، عن أحمد بن حنبل - أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه - حتى انقطع نفسه - يعني نفس أحمد.

وقال أبو عمر: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالإبصار.

وقال سعيد بن جبير: لا أقول رآه، ولا لم يره.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وابن مسعود، فحكي عن ابن عباس وعكرمة: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود: رأى جبريل.

وحكى عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.

وعن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾[الشرح/ ١] - قال : شرح صدره للرؤية ، وشرح صدر موسى للكلام.

وقال أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه وجماعة من أصحابه أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه، وقال: كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتي مثلها نبينا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية .

ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال القاضي أبو الفضل: والحق الذي لا امتراء فيه - أن رؤيته تعالي في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها.

والدليل على جوازها في الدنيا سؤال موسى عليه السلام لها. ومحال أن يجهل نبي ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزًا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فقال له الله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف/ ١٤٣]: أي لن تطيق، ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثلاً مما هو أقوى من بنية موسى وأثبت، وهو الجبل.

وكل هذا ليس فيه مـا يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيـه جوازها على الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع على اسـتحالتها ولا امتناعـها، إذ كل موجود فرؤيته جـائزة غير مستحيلة.

ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام/ ١٠٣]، لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة.

وقد استـدل بعضهم بهذه الآيات نـفسها على جواز الـرؤية وعدم استحالتـها على الجملة.

وقد قيل: لا تدركـه أبصار الكفار. وقيل: لا تدركـه الأبصار: لا تحيط به، وهو قول ابن عباس. وقد قيل: لا تدركه الأبصار، وإنما يدركه المبصرون.

وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿**لن تَرَانِي**﴾[الأعراف/ ١٤٣]. وقوله: ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾[الأعراف/ ١٤٣]- لما قـدمناه، ولأنهـا ليـست على العـمـوم، ولأن من قـال: معناها: لن تراني في الدنيا- إنما هو تأويل.

وأيضًا فليس فـيـه نص الامـتناع، وإنمـا جاءت فـي حق مـوسى، وحـيث تتطرق التـأويلات وتتسلط الاحتمالات، فليس للقطع إلبه سبيل.

وقوله: ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾، أي من سؤالي ما لم تقدره لي.

وقد قال أبو بكر الـهذلي - في قوله: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾، أي ليس لبشـر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، وإنه من نظر إليّ مات.

ولقد رأيت لبعض السلف والمتـأخرين ما معناه: إن رؤيته تعـالى في الدنيا ممتنعة، لضعف تركيب أهل الدنيا، وقواهم، وكونهـا متغيرة غرضًا للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة علـى الرؤية، فإذا كان في الآخـرة وركبـوا تركيبًا آخـر، ورزقوا قـوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية.

وقد رأيت نحـو هذا لمالك بن أنس رحمه الله، قـال: لم ير في الدنيا، لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رئي الباقي بالباقي.

وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده، وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه.

وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحاها لإدراك ما أدركاه، ورؤية ما رأياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر - في أثناء أجوبته عن الآيتين - ما معناه: إن موسى عليه السلام رأى الله، فلذلك خر صعقًا، وإن الجبل رأى ربه فصار دكًا بإدراك خلقه الله له. واستنبط ذلك، والله أعلم، من قوله: ﴿**وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾[الاعراف/ ١٤٣].

ثم قال: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾[الاعراف/ ١٤٣].

وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه - على هذا القول.

وقال جعفر بن محمد: شغله بالجبل حتى تجلّى، ولولا ذلك لمات صعقًا بلا إفاقة.

وقوله هذا يدل على أن موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسرين - في الجبل- أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبينا له، إذ جعله دليلاً على الجواز.

ولا مرية في الجواز، إذ ليس في الآيات نص بالمنع.

وأما وجوبه لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه - فليس فيه قاطع أيضًا ولا نص، إذ المعول فيه على آيتي «النجم»، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلي النبي ﷺ، فيجب العمل باعتقاد مضمنه.

ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية.

وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن.

وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل. فروي: «نور أنى أراه».

وحكى بعض شيوخنا أنه روي: «**نور إني أراه**»[١].

وفي حديثه الآخر: سألته، فقال: رأيت نورًا. وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح رأيت نورًا فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نورًا منعه وحجبه عن رؤية الله.

وإلى هذا يرجع قوله: «**نور أنى أراه**» أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر: وهذا مثل ما في الحديث الآخر: «**حجابه النور**»[٢].

وفي الحديث الآخر: «**لم أره بعيني، ولكن رأيته بقلبي مرتين**»، وتلا: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**﴾[النجم/ ٩][٣]. والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء، لا إله غيره.

فإن ورد حديث نص بَيِّنٌ في الباب أعتقد ووجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده، والله الموفق.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٧٨) باب في قوله عليه السلام نور أنى أراه وفي وقوله رأيت نورًا (١/ ١٦١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة الإسراء.

الفصل السادس

مناجاته لله تعالى

وأمــا مــا ورد فــي هذه القـصة من مناجاتـه لله تعالى وكلامـه بقوله: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾[النجـم/ ١٠] - إلى ما تضمنته الأحـاديث - فأكثر المفسرين على أن الموحي الله عـز وجل إلى جبريل، وجبــريل إلى مـحمدﷺ إلا شـذوذًا منهم، فـذكر عن جـعفـر بن محمـد الصـادق، قـال: أوحى إليـه بلا واسطة، ونحوه عن الواسطـي، وإلى هذا ذهب بعــض المتكلمــين - أن مـحــمـدًا كـلم ربه في الإسراء.

وحكـي عـن الأشعــري، وحكـوه عـن ابن مـسـعـود وابن عـبـاس، وأنكره آخرون.

وذكـر النقاش، عـن ابن عبـاس - في قـصة الإسـراء، عنهﷺ في قـوله: ﴿**دَنَا فَتَدَلَّىٰ**﴾[النجم/ ٨] - قال: «**فارقني جبريل، وانقطعت الأصوات عني، فسمعت كلام ربي وهو يقول: ليهدأ روعك يا محمد، ادن، ادن**».

وفي حديث أنس في الإسراء نحوًا منه، وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾[الشورى/ ٥١]، فقـالوا: هي ثلاثة أقـسام: من وراء حجـاب كتكليـم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبيناﷺ، الثالث قوله: وحيًا، ولم يبق من تقسيم الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة.

وقد قيل: الوحي هنا: هو ما يلقيه في قلب النبي دون واسطة.

وقد ذكـر أبو بكر البزار، عـن عليّ في حديث الإسـراء ما هو أوضح في سـماع النبيﷺ لكلام الله من الآية، فذكـر فيه: «**فقال الملك: الله أكـبر. الله أكبر**» - فقيل

لي من وراء الحجاب: «صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر». وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك[١].

ويجيء الكلام في مشكل هذين الحديثين في الفصل بعد هذا مع ما يشبهه. وفي أول فصل من الباب منه.

وكلام الله تعالي لمحمدﷺ، ومن اختصه من أنبيائه، جائز غير ممتنع عقلاً، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فإن صح في ذلك خبر احتمل عليه، وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به، نص ذلك في الكتاب، وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه علي ما ورد في الحديث: في السماء السابعة بسبب كلامه. ورفع محمداً فوق هذا كله حتى بلغ مستوى وسمع صريف الأقلام، فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام، فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض

---

(١) تقدم تخريجه .

درجات.

الفصل السابع

الدنو والقرب

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية: من الدنو والقرب من قوله: ﴿**دَنَا فَتَدَلَّىٰ** (٨) **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾[النجم/٨،٩]- وأكثر المفسرين أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل عليه السلام، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من السدرة المنتهى.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هو محمد دنا فتدلى من ربه.

وقيل: معنى دنا قرب، وتدلى زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد، أى قرب.

وحكى مكي، والماوردي- عن ابن عباس: هو الرب دنا محمد، فتدلى إليه: أي أمره وحكمه.

وحكى النقاش عن الحسن، قال: دنا من عبده محمدﷺ فتدلى، فقرب منه، فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته.

قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر: تدلى الرفرف لمحمدﷺ ليلة المعراج، فجلس عليه، ثم رفع فدنا من ربه.

قال: «**فارقني جبريل، وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي عز وجل**».

وعن أنس في الصحيح: «**عرج بي جبريل إلي سدرة المنتهى**(١)**، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى**» ، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الصلاة باب كيف فرضت الصلاة (١/ ٩٧،٩٨) ومسلم في الإيمان باب الإسراء (١/ ١٤٥،١٤٦،١٤٧).

خمسين صلاة . . وذكر حديث الإسراء.

وعن محمد بن كعب: هو محمد دنا من ربه، فكان كقاب قوسين.

قال: وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين.

وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود.

وقال أيضًا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه، ودنا محمد ﷺ إلي ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب.

قال القاضي أبو الفضل: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله، أو إلى الله- فليس بدنو مكان، ولا قرب مدى، بل كما ذكرناه - عن جعفر الصادق: ليس بدنو حد، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس، وبسط، وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «**ينزل ربنا إلي السماء الدنيا**»(١) - على أحد الوجوه: نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان.

قال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، بل كلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعدًا - يعني عن درك حقيقته، إذ لا دنو للحق ولا بعد.

وقوله: ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ - فمن جعل الضمير عائدًا إلى الله، لا إلى جبريل على هذا - كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة عن محمدﷺ، وعبارة عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفي، وإنافة المنزل والمرتبة من الله له. ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «**من تقرب منى شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(٢)، قرب بالإجابة

(١) صحيح: رواه البخاري في التهجد بالليل باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (٢/ ٦٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨) باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (١/ ٥٢١).

(٢) صحيح: رواه البخاري في التوحيد باب قوله الله تعالى: ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٥) باب الحث على ذكر ء تعالى (٤/ ٢٠٦١).

والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول.

الفصل الثامن
في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة

حدثنا [القاضي]، أبو عليّ، حدثنا أبو الفضل، وأبو الحسين، قالا: حدثنا أبو يعلى السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»**(١).

وفي رواية ابن زحر، عن الربيع بن أنس - في لفظ هذا الحديث: **«أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، لواء الكرم بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف عليّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»**.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: **«وأكسى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم بذلك المقام غيري»**(٢).

وعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبي يومئذ، آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»**(٣).

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٠) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٥).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١١) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٥).

(٣) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) باب من سورة بني إسرائيل (٥/ ٣٠٨)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) باب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٠).

وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع**»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**»[٢].

وعن أنس: «**أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الناس تبعًا**»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه، قال النبي ﷺ قال «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وتدرون بم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين**» - وذكر حديث الشفاعة[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**أطمع أكون أعظم الأنبياء أجرًا يوم القيامة**».

وفي حديث آخر: «**أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة**»! **ثم قال**: «**إنهما في أمتي يوم القيامة، أما إبراهيم فيقول: أنت دعوتي وذريتي، فاجعلني من أمتك وأما عيسى، فالأنبياء إخوة بنو علات، أمهاتهم شتى، وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي، وأنا أولى الناس به**»[٥].

قوله: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**». هو سيدهم في الدنيا، ويوم القيامة. ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسُّودد والشفاعة دون غيره، إذ لجأ الناس إليه في ذلك، فلم

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨) باب في فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٤/ ١٧٨٢) وأحمد في مسنده (٢/ ٥٤٠) وأبو داود في السنة (٤٦٧٣) باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤/ ٢١٨).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٦) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٨٤) باب إثبات الشفاعة (١/ ١٧٢).

(٤) صحيح: رواه البخاري في التفسير سورة الإسراء باب ذرية من حملنا مع نوح ومسلم في الإيمان (١٨٨) باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٧٥).

(٥) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب واذكر في الكتاب مريم ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) باب فضائل عيسى بن مريم (٤/ ١٨٣٧).

والسيد: هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذ سيدًا منفردًا من بين البشر، لم يزاحمه أحد في ذلك، ولا ادعاه، كما قال تعالى: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[غافر/١٦].

والملك له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرة انقطعت دعوى المدعين لذلك في الدنيا.

وكذلك لجأ إلى محمد ﷺ جميع الناس في الشفاعة، فكان سيدهم في الأخرى دون دعوى.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدًا**»(٢).

وعن أبي ذر نحوه، وقال: «طوله ما بين عمان إلى أيلة، يشخب فيه ميزابان من الجنة»(٣).

وعن ثوبان مثله، وقال: «**أحدهما من ذهب، والآخر من ورق**»(٤).

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٨٤) باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (١/ ١٧٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الرقائق باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿**إنا إعطيناك الكوثر**﴾ ومسلم في الفضائل (٢٢٩٢) باب إثبات حوض نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه (٤/ ١٧٩٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠٣) باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ وصفاته (٤/ ١٨٠١).

(٤) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٩٢) باب إثبات حوض نبينا محمد ﷺ (٤/ ١٧٩٣).

وفي رواية حارثة بن وهب: «**كما بين المدينة وصنعاء**»[١].

وقال أنس: أيلة وصنعاء[٢].

وقال ابن عمر: «**كما بين الكوفة والحجر الأسود**».

وروى حديث الحوض أيضًا أنس، وجابر، وسمرة، وابن عمر، وعقبة، وابن عامر، وحارثة بن وهب الخزاعي، والمستورد، وأبو برزة الأسلمي، وحذيفة بن اليمان، وأبو أمامة، وزيد بن أرقم، وابن مسعود، وعبد الله بن زيد، وسهل بن سعد، وسويد بن جبلة، [وأبو بكر، وعمر بن الخطاب، وابن بريدة]، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله الصنابحي، وأبو هريرة، والبراء، وجندب، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو بكرة، وخولة بنت قيس، وغيرهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

الفصل التاسع
في تفضيله بالمحبة والخلة

جاءت بذلك الآثار الصحيحة، واختص على ألسنة المسلمين بحبيب الله، أخبرنا

أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت أحمد، حدثنا أبو الهيثم، وحدثنا حسين بن محمد الحافظ سماعًا عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عبد بن أحمد، وحدثنا أبو الهيثم، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا فليح، حدثنا أبو النضر، عن بسر بن سعيد، عن أبي سعيد، عن النبيﷺ - أنه قال: «**لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر**»(١).

وفي حديث آخر: «**وإن صاحبكم خليل الله**»(٢).

ومن طريق عبد الله بن مسعود: «**وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً**»(٣).

وعن ابن عباس، قال: جلس ناس من أصحاب النبيﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبًا! إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «**سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر**» (٥/ ٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٨٣) باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤/ ١٨٥٥)، والترمذي في المناقب (٣٦٥٥) باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأحمد في مسنده (١/ ٣٧٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري في فضائل الصحابة باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلاً**» ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١) باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٤/ ١٨٥٤).

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمه الله تكليمًا.

وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه.

وقال آخر: وآدم اصطفاه الله.

فخرج عليهم فسلم، وقال: «**قد سمعت كلامكم وعجبكم، أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، وهو كذلك، وموسى نجي الله، وهو كذلك، وعيسى روح الله، هو كذلك، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**»[١].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «**إني اتخذتك خليلاً، فهو مكتوب في التوارة: أسب حبيب الرحمن**».

قال القاضي أبو الفضل: اختلف في تفسير الخلة، وأصل اشتقاقها، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال.

وقيل: الخليل المختص، واختار هذا القول غير واحد.

وقال بعضهم: أصل الخلة الاستصفاء: وسمي إبراهيم خليل الله، لأنه يوالي فيه ويعادي فيه، وخلة الله له نصره، وجعله إمامًا لمن بعده.

وقيل: الخليل: أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلة وهي الحاجة، فسمي بها إبراهيم، لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قبل غيره، إذ جاءه جبريل وهو في المنجنيق، ليرمى به في النار، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقال أبو بكر بن فورك: الخلة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

وقال بعضهم: أصل الخلة المحبة، ومعناه الإسعاف، والإلطاف، والترفيع،

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٦) باب من فضل النبي ﷺ.

والتشفيع، وقد بين ذلك في كتابه تعالى بقوله: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾[المائدة/ ١٨] .

فأوجب للمحبوب ألا يؤاخذ بذنوبه.

قال: هذا، والخلة أقوى من البنوة، لأن البنوة قد تكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[التغابن/ ١٤] .

ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة: فإذًا تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عمن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي ألطافه عندهما، وما خالل بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفائه لهما واستصفاء قلوبهما عمن سواه، حتى لم يخاللهما حب لغيره، ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه، وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «**ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لكن أخوة الإسلام**» (١).

واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخلة، أو درجة المحبة؟ فجعلهما بعضهم سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيبًا، لكنه خص إبراهيم بالخلة، ومحمدًا بالمحبة.

وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع، واحتج بقوله ﷺ: «**لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل**». فلم يتخذه.

وقد أطلق المحبة لفاطمة، وابنيها، وأسامة وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة، لأن درجة الحبيب [نبينا] أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب قول النبي ﷺ: «**سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر**» (٥/ ٤) .

وأصل المحبة الميل إلي ما يوافق المحب، ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق، وهي درجة المخلوق، فأما الخالق - جلا جلاله- فمنزه عن الأغراض، فمحبته لعبده تمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحُجُب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال في الحديث: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به**»(١).

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله، كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، برضاه يرضى، وبسخطه يسخط(٢)، ومن هذا عبر بعضهم عن الخلة بقوله:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقت كنت حديثي وإذا ما سكت كنت الغليلا

فإذا مزية الخلة، وخصوصية المحبة حاصلة لنبيناﷺ بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة، المتلقاه بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿**قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[آل عمران/ ٣١].

حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذه حنانًا كما اتخذت النصاري عيسى بن مريم، فأنزل الله - غيظًا لهم، ورغمًا على مقالتهم هذه الآية: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾[آل عمران/ ٣٢] ، فزاده شرفًا بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾[آل عمران/ ٣٢].

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلامًا في الفرق بين المحبة

(١) صحيح: رواه البخاري في الرقائق باب التواضع (١/ ١٣١).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٥٣، ٥٤، ٩١، ٩٤، ٩٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٩٩).

والخلة يطول، جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة، ونحن نذكر منه طرفًا يهدي إلى ما بعده:

فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة، من قول تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾[الأنعام/ ٧٥]. والحبيب يصل لحبيبه به، من قوله: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[النجم/ ٩].

وقيل: الخليل: الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾[الشعراء/ ٨٢]. والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾[الفتح/ ٢].

والخليل قال: ﴿**وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ**﴾[الشعراء/ ٨٧]. والحبيب قيل له: ﴿**يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ**﴾[التحريم/ ٨]. فابتدئ بالبشارة قبل السؤال.

والخليل قال في المحنة: ﴿**حَسْبِيَ اللَّهُ**﴾[التوبة/ ١٢٩]. والحبيب قيل له: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ**﴾[الأنفال/ ٦٤].

والخليل قال: ﴿**وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ**﴾[الشعراء/ ٨٤]. والحبيب قيل له: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[الشرح/ ٤]. أعطي بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾[إبراهيم/ ٣٥]. والحبيب قيل له: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾[الأحزاب/ ٣٣].

وفيما ذكرناه تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال، وكل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

الفصل العاشر
في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء/ ٧٩].

أخبرنا الشيخ أبو عليّ الغساني الجياني في ما كتب إليّ بخطه، حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصلي، حدثنا أبو زيد، وأبو أحمد: قالا حدثنا محمد بن يوسف: قال حدثنا محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا إسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن عليّ، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان، اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[١].

وعن أبي هريرة: سئل عنها رسول الله ﷺ- يعني قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء/ ٧٩]، فقال: «**هي الشفاعة**»[٢].

وروى كعب بن مالك، عنه ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود**»[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنه - وذكر حديث الشفاعة - قال فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده[٤].

وعن ابن مسعود عنه ﷺ أن قيامه عن يمين العرش مقامًا لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسير في سورة الإسراء (٨/ ٢٣٩).

(٢) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٣٧) باب الإسراء (٥/ ٣٠٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٥٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٢٥).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٢٦).

ونحوه عن كعب والحسن.

وفي رواية: «**هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه**»(١).

وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لقائم المقام المحمود**». قيل: وما هو؟ قال: «**ذلك يوم ينزل الله تبارك وتعالى [على كرسيه]**»(٢). الحديث.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عنه ﷺ: «**خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، لأنها أعم، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطائين**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «**شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق لسانَه وقلبُه**»(٣).

وعن أم حبيبة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أريت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعة يوم القيامة فيهم، ففعل**»(٤).

وقال حذيفة: يجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، سكوتًا لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادى محمد فيقول: «**لبيك وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك لا إليك تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت**» **قال: «فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله»**.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: إذا دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، فتبقى آخر زمرة من الجنة وآخر زمرة من النار، فتقول زمرة النار لزمرة الجنة: ما نفعكم إيمانكم، فيدعون ربهم ويضجون، فيسمعهم أهل الجنة فيسألون آدم وغيره بعده

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٢٨).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/٣٠٧).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (١/٦٨).

في الشـفاعة لهـم، فكل يعتـذر حتى يأتوا مـحمـدًا ﷺ فيشـفع لهم، فذلـك المقام المحمود[١].

ونحوه عن ابن مسعود أيضًا، ومجاهد.

وذكره عليّ بن الحسين عن النبي ﷺ.

وقال جابر بن عبد الله ليزيد الفقير: سـمعت بمقام محمد -يعني الذي يبعثه[٢] الله فيه؟ .

قلت: نعم. قال: فإنه مـقام محمد المحمـود الذي يخرج الله به من يخرج -يعني من النار- وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين.

وعن أنس نحوه، وقال: فهذا المقام المحمود الذي وعده.

[وعن سلمان: المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيامة.

ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قتادة: كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة، وعلى أن المقام المحـمود مقـامه عليـه الصلاة والسلام لـلشفاعـة مذاهب السلف من الصـحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين.

وبذلك جاءت الشـفاعة مـفسرة في صـحيح الأخبـار عنه عليه الصـلاة والسلام، وجاءت مقـالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف، يجب ألا تثـبت، إذا لم يعضدها صحيح أثر، لا سند نظر.

ولو صحت لكان لها تأويل غير مسـتنكر، لكن ما فسره النبيﷺ في صحيح الآثار يرده، فلا يـجب أن يلتفت إليـه، مع أنه لم يأت في كتـاب ولا سنة، ولا أتفق على المقال أمة، وفي إطلاق ظاهره منكر من القول وشنعة].

وفي رواية أنس وأبي هريرة وغـيرهما، دخل حـديث بعضهـم في حديث بعض:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٢٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (٢٩٣) باب خروج عصاة المؤمنين من النار .

قال ﷺ: «يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون» أو قال: «فيلهمون، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا»(١).

ومن طريق آخر عنه: «ماج الناس بعضهم في بعض»(٢).

وعن أبي هريرة: «وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم، فيأتون آدم فيقولون» زاد بعضهم: «أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟.

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا! ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي»(٣).

قال- في رواية أنس: «ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم».

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلي غيري. اذهبوا إلى إبراهيم، فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في بدء الخلق باب قول الله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾ (٤/ ١٦٣) ومسلم في الإيمان (١٩٣) باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/ ١٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (٢٠٩) باب الشفاعة (١/ ١٩٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري في التفسير في سورة الإسراء باب ذرية من حملنا مع نوح (٨/ ٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (١٩٤) باب ادنى أهل الجنة منزلة (١/ ١٨٥).

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا ..» فذكر مثله، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن «**نفسي، نفسي، لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله**».

وفي رواية: «**فإنه عبد آتاه الله التوارة، وكلمه وقربه نجيًا**».

قال: «**فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقتله النفس، نفسي نفسي، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته**».

فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فأوتي، فأقول: أنا لها.

فأنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجدًا».

وفي رواية: «**فآتي تحت العرش، فأخر ساجدًا**».

وفي رواية: «**فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله**».

وفي رواية: «**فيفتح الله عليَّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتح على أحد قبلي**».

قال- وفي رواية أبي هريرة: «**فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمتي، يا رب، أمتي. فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في ما سوى ذلك من الأبواب**»(١).

ولم يذكر في رواية أنس هذا الفصل، وقال - مكانه: «**ثم أخر ساجدًا، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول: يا رب، أمتي، أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه، فأنطلق فأفعل.**

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسير في سورة الاسراء باب ذرية من حملنا مع نوح (٨/ ٢٤٧) ومسلم في الإيمان (١٩٣) باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/ ١٨١).

ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد ...» وذكر مثل الأول، وقال فيه: «**مثقال حبة من خردل. قال: فأفعل، ثم أرجع...»** وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: «**من كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل، فأفعل**».

وذكر في المرة الرابعة: «**فيقال لي: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع وسل تعطه.**

فأقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله. قال: ليس ذلك إليك.

ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله[١].

ومن رواية قتادة عنه، قال: «**فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن**»، أي وجب عليه الخلود[٢].

وعن أبي بكر، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وحذيفة مثله، قال: «**فيأتون محمدًا فيؤذن له، وتأتي الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط**»[٣].

وذكر في رواية أبي مالك، عن حذيفة: «**فيأتون محمدًا فيشفع، فيضرب الصراط، فيمرون: أولهم كالبرق، ثم كالريح، والطير، وشد الرجال، ونبيكمﷺ على الصراط يقول: اللهم سلم سلم، حتى يجتاز الناس**»[٤]. وذكر آخرهم جوازًا .. الحديث.

وفي رواية أبي هريرة: «**فأكون أول من يجيز**».

وعن ابن عباس، عنهﷺ: «**يوضع للأنبياء منابر يجلسون عليها. ويبقى منبري لا أجلس عليه قائمًا، بين يدي ربي منتصبًا، فيقول الله تبارك وتعالى: ما تريد أن أصنع بأمتك؟ فأقول: يا رب، عجل حسابهم، فيدعى بهم، فيحاسبون**[٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان (١٩٣) باب أدنى أهل الجنة منزلة (١/ ١٨٤).
(٢) صحيح: رواه البخاري في التفسير في ما جاء في فاتحة الكتاب وأحمد في مسنده (٣/ ١١٦)
(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) (٤/ ٥٣٩).
(٤) صحيح: رواه البخاري في الرقاق باب الصراط جسر جهنم (١١/ ٤٥٣)، ومسلم في الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩٣).
(٥) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٩١١٧).

فمنهم من يدخل الجنة برحمته، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، ولا أزال أشفع حتى أعطى صكاكًا برجال قد أمر بهم إلى النار، حتى إن خازن النار ليقول: يا محمد، ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة».

ومن طريق زياد النميري، عن أنس - أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول من تنفلق الأرض عن جمجمته ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، ومعي لواء الحمد يوم القيامة، وأنا أول من تفتح له الجنة ولا فخر، فآتي فآخذ بحلقة الجنة، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمدًا، فيفتح لي، فيستقبلني الجبار تعالى، فأخر له ساجدًا..** » وذكر نحو ما تقدم[١].

ومن رواية أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر**».

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته -ﷺ، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع الناس للحشر، وتضيق بهم الحناجر، ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحذيفة.

وهذا الحديث أتقن، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلي الجنة - كما تقدم في الحديث - ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب، ودخل النار منهم حسب ما تقتضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله. وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «**لكل بني دعوة يدعو بها، واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[٢].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الإيمان باب قول النبي ﷺ : «**أنا أول الناس يشفع في الجنة**» وأحمد في مسنده (٣/ ١٤٤) .

(٢) صحيح: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٤) باب لكل نبي دعوة مستجابة (١١/ ٩٩)، ومسلم في الإيمان باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته .

قال أهل العلم: معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم، ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة ، ولنبينا ﷺ منها ما لا يعد، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضمنت لهم إجابة دعوة في ما شاءوه، يدعون بها علي يقين من الإجابة .

وقد قال محمد بن زياد، وأبو صالح، عن أبي هريرة في هذا الحديث: «**لكل نبي دعوة دعا بها في أمته ، فاستجيب له، وأنا أريد أن أدخر، دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»(١).

وفي رواية أبي صالح: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته**»(٢).

ونحوه في رواية أبي زرعة عن أبي هريرة.

وعن أنس مثل رواية ابن زياد، عن أبي هريرة.

فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبرﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا وأعطي بعضها، ومنع بعضها، وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال والرغبة.

جزاه الله أحسن ما جزى نبيًا عن أمته، وﷺ كثيرًا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٥) باب لكل نبي دعوة مستجابة (١١/ ٩٩) .

(٢) صحيح: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٥) باب لكل نبي دعوة مستجابة (١١/ ٩٩).

الفصل الحادي عشر
في تفضيله في الجنة بالوسيلة
والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، والفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد، بقراءتي عليهما، قالا: حدثنا أبو عليّ الغساني، حدثنا النمري، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، وحيوة، وسعيد بن أبي أيوب، عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص - أنه سمع النبيﷺ- يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو .**

فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[(١)].

وفي حديث آخر - عن أبي هريرة: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة»[(٢)].

وعن أنس: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر حافتاه قباب اللؤلؤ .

قلت: لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله ». قال: «ثم ضرب بيده إلي طينه، فاستخرج مسكًا»[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه البخارى في الأذان (٦١١) باب ما يقول إذا سمع المنادي (٢/١٠٨)، ومسلم في الصلاة (٣٨٤) باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل الله له الوسيلة (١/١٨٨).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٢) باب في فضل النبي ﷺ (٥/٥٨٦).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٩٦٦) باب تفسير سورة الكوثر (٨/٦٠٣)، وأحمد في مسنده (٣/٢٠٧).

وعن عائشة وعبد الله بن عمرو مثله، قال: «**ومجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج**».

وفي رواية - عنه: «**فإذا هو يجري، ولم يشق شقا، عليه حوض ترد عليه أمتي...**» وذكر حديث الحوض.

ونحوه عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا، قال: الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه.

وقال سعيد بن جبير: والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله .

وعن حذيفة - في ما ذكر ﷺ عن ربه: «**وأعطاني الكوثر، وهو نهر في الجنة ، يسيل في حوضي**»[١].

وعن ابن عباس - في قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾[الضحى / ٥] قال: ألف قصر، من لؤلؤ ترابهن المسك، وفيه ما يصلحهن.

وفي رواية أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في التفسير (٤٩٦٦) باب تفسير سورة الكوثر (٨/ ٦٠٣).

الفصل الثاني عشر
الأحاديث الواردة في النهي عن تفضيله

فإن قلت: إذا تقرر من دليل القرآن، وصحيح الأثر، وإجماع الأمة - كونه أكرم البشر، وأفضل الأنبياء - فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل؟ كقوله- في ما حدثنا الأسدي: قال: حدثنا السمرقندي، حدثنا الفارسي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة: سمعت أبا العالية يقول: حدثني ابن عم نبيكم ﷺ - يعني ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «**ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»(١).

وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة قال- يعني رسول الله ﷺ: «**ما ينبغي لعبد...**» الحديث.

وفي حديث أبي هريرة - في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا.

فبلغ ذلك النبيﷺ ، فقال: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»(٢) وفي رواية: «**لا تخيروني على موسى**»(٣) - فذكر الحديث.

وفيه: «**ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى**»(٤).

وعن أبي هريرة: «**من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب**»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٧٣) باب من فضائل موسى ﷺ (٤/ ١٨٤٣).

(٥) صحيح: رواه البخاري في التفسير (٤٦٠٤) باب إنا أوحينا إليك إلى قوله ويونس وهارون وسليمان (٨/ ١١٦) .

وعن ابن مسعود: «**لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى**»[١].

وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل، فقال له: يا خير البرية، فقال: «**ذاك إبراهيم...**»[٢].

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

أحدها - أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف، وأن من فضل بلا علم فقد كذب.

وكذلك قوله: «**لا أقول إن أحدًا أفضل منه**»[٣]- لا يقتضي تفضيله هو، وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني- أنه قالﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب، وهذا لا يسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث- ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقُّص بعضهم، أو الغض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام، إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**﴾[الصافات/ ١٤٠]. ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [الأنبياء/ ٨٧] - فربما يخيل لمن لا علم عنده حطيطته، بذلك.

الوجه الرابع- منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطاف، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من الرسل، ومنهم من

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء (٣٤١٢) باب قول الله تعالى: ﴿**إن يونس لمن المرسلين**﴾ (٦/ ٥١٩) ، وأحمد في مسنده (١/ ٤٤٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٩) باب من فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام (٤/ ١٨٣٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧٨، ١٨٤) .

(٣) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٧٣) باب من فضائل موسى عليه السلام (٤/ ١٨٤٣).

رفع مكانا عليًا، ومنهم من أوتي الحكم صبيًا، وأوتي بعضهم الزبر، وبعضهم البينات، ومنهم من كلم الله ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا**﴾[الإسراء/ ٥٥].

وقال: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾[البقرة/ ٢٥٣].

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر، وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأطهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته، واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه، وتُحف ولايته، واختصاصه.

وقد روي أن النبيﷺ قال: «**إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسخ منها تفسخ الربع**»، فحفظ رسول اللهﷺ موضع الفتنة، من أوهام من يسبق إليه بسببها حرج في نبوته، أو قدح في اصطفائه، وحط عن رتبته، ووهن في عصمته، شفقة منهﷺ على أمته.

وقد يتوجه علي هذا الترتيب، وجه خامس، وهو أن يكون «أنا» راجعًا إلي القائل نفسه، أي لا يظن أحد - وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة، ما بلغ - أنه خير من يونس، لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار لم تحطه عنها حبة خردل ولا أدني.

ونزيد في القسم الثالث في هذا بيانًا إن شاء الله تعالى.

فقد بان لك الغرض، وسقط بما حررناه شبهة المعترض، [وبالله التوفيق، وهو المستعان لا إله إلا هو].

الفصل الثالث عشر
في أسمائه: ﷺ ، وما تضمنته من فضيلته

حدثنا أبو عمران موسى بن أبي تليد الفقيه، قال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح ، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسة، أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»(١).

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمدًا، وأحمد.

فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه، وطوى أثناء ذكره عظيم شكره.

فأما اسمه أحمد فأفعل، مبالغة من صفة الحمد.

ومحمد: مفعل، مبالغة من كثرة الحمد، فهو -ﷺ- أجل من حمد، وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمدًا، فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتم له كمال الحمد، ويتشهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد- كما قال ﷺ- ما لم يعط غيره، وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين، فحقيق أن يسمى محمدًا و أحمد.

ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته - فن آخر، وهو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه.

أما أحمد الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٣٥٣٢) باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٦/ ٦٤١)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤) باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨).

به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبسٌ على ضعيف القلب أو شك.

وكذلك محمد أيضًا لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺ وميلاده أن نبيًا يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك، رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وهم: محمد بن أحيحة ابن الجلاح الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم.

ويقال: أول من تسمى بمحمد محمد بن سفيان: و اليمن تقول: بل محمد بن اليجمد من الأزد.

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره حتى تحققت السمتان لهﷺ، ولم ينازع فيهما.

وأما قولهﷺ: «**وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر**» ففسر في الحديث. ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب، وما زوي له من الأرض، ووعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عامًا، بمعنى الظهور والغلبة، كما قال تعالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾[التوبة/ ٣٣].

[وقد ورد تفسيره في الحديث أنه الذي محيت به سيئات من اتبعه].

وقوله: «**وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي**»، أي على زماني وعهدي، أي ليس بعدي نبي، كما قال: وخاتم النبيين.

وسمي عاقبًا، لأنه عقب غيره من الأنبياء.

[وفي الصحيح: «**أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي**».

وقيل: معنى على قدمي، أي يحشر الناس بمشاهدتي، كما قال تعالى: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾[البقرة/ ١٤٣].

[وقيل: علـى قدمي: على سـابقتي، قال الله تـعالى: ﴿**أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس/ ٢].

[وقيل: على قدمي: أي قدامي، وحولي، أي يجتمعون إليّ يوم القيامة.

وقيل: [على قدمي: على سنتي].

ومعنى قوله: «**لي خمسة أسماء**»: قيل: إنها موجـودة في الكتب المتقدمة، وعند أولي العلم من الأمم السالفة، [والله أعلم].

وقد روي عنهﷺ: «**لي عشرة أسماء**»، وذكر منها: طه ويس[١] وحكاه مكي.

وقد قيل فـي بعض تفسير طه: إنه يا طاهر، يا هادي، وفي يس: يا سـيد، حكاه السلمي عن الواسطي، وجعفر بن محمد.

وذكره غيره: «**لي عشرة أسماء**»، فذكـر الخمسة التي في الحـديث الأول، قال: «**وأنا رسول الرحمة، ورسول الراحة، ورسول الملاحم، وأنا المقتفي، قفيت النبيين، وأنا قيم**».

والقيم: الجامع الكامل، كذا وجدته، ولم أروه.

وأرى أن صوابه قثم - بالثاء كما ذكرناه بعد عن الحربي، وهو أشبه بالتفسير.

وقد وقع أيضًا في كـتب الأنبياء، قال داود عليـه السلام: اللهم ابعث لنا محـمدًا مقيم السنة بعد الفترة، فقد يكون القيم بمعناه.

وروى النقاش عنهﷺ: «**لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدثر، والمزمل، وعبد الله**»[٢].

[وفي حديث - عن جبـير بن مطعم رضي الله عنه: هي ست: «**محمد، وأحمد، وخاتم، وعاقب، وحاشر، وماح**]».

وفي حديث أبي موسى الأشعـري - أنه كان ﷺ يسمي لنا نفسه أسمـاء، فيقول:

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٦٢).

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٦٣).

«أنا محمد، وأحمد ، والمقفي، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ونبي الرحمة»(١).

ويروى : «**المرحمة ، والراحة**».

وكل صحيح إن شاء الله.

ومعنى المقفى معنى العاقب.

وأما نبي الرحمة والتوبة، والمرحمة والراحة - فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء/١٠٧]، وكما وصفه بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم. ، ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة/١٢٨].

وقال في صفة أمته: «**إنها أمة مرحومة**».

وقال الله تعالى فيهم: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾[البلد/١٧]، أي يرحم بعضهم بعضًا، فبعثه ربه تعالى رحمة لأمته، ورحمة للعالمين، ورحيمًا بهم، ومترحمًا ومستغفرًا لهم، وجعل أمته أمة مرحومة، ووصفها بالرحمة.

وأمرها ﷺ بالتراحم، وأثنى عليه، فقال: «**إن الله يحب من عباده الرحماء**»(٢).

وقال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٣).

وأما رواية نبي الملحمة فإشارة إلى ما بُعث به من القتال والسيف- ﷺ، وهي صحيحة.

وروى حذيفة مثل حديث أبي موسى، وفيه: «**ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم**».

---

(١) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥) باب في أسمائه ﷺ (١/ ١٨٢٩).

(٢) صحيح : رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (٣/ ١٨٠) ومسلم في الجنائز (٩٢٣) باب البكاء على الميت (٢/ ٦٣٥، ٦٣٦) .

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٤١) باب في الرحمة (٤/ ٢٨٧) . والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) باب ما جاء في رحمة المسلمين (٤/ ٣٢٤).

وروى الحربي في حديثه ﷺ أنه قال: «**أتاني ملك فقال لي: أنت قثم**»، أي مجتمع قال: والقثم: الجامع للخير، وهذا اسم هو في أهل بيته معلوم.

وقد جاءت من ألقابه - ﷺ وسماته في القرآن عدة كثيرة سوى ما ذكرناه، كالنور، والسراج المنير، والمنذر، والنذير، والمبشر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحق المبين، وخاتم النبيين، والرءوف الرحيم، والأمين، وقدم الصدق، ورحمة العالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، والنجم الثاقب، والكريم، والنبي الأمي، وداعي الله - في أوصاف كثيرة ، وسمات جليلة.

وجرى منها في كتب الله المتقدمة، وكتب أنبيائه، وأحاديث رسوله، وإطلاق الأمة جملة شافية، كتسميته بالمصطفى، والمجتبى، وأبي القاسم، والحبيب، ورسول رب العالمين، والشفيع، والمتقي، والمصلح، والطاهر، والمهيمن، والصادق، والمصدوق، والهادي، وسيد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وحبيب الله، وخليل الرحمن، وصاحب الحوض المورود، والشفاعة، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وصاحب التاج، والمعراج، واللواء، والقضيب، وراكب البراق، والناقة والنجيب، وصاحب الحجة والسلطان، والخاتم، والعلامة والبرهان، وصاحب الهراوة والنعلين.

ومن أسمائه في الكتب: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدس، [وروح القدس]، وروح الحق، وهو معنى البارقليط في الإنجيل.

وقال ثعلب : الباز قليط :الذي يفرق بين الحق والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة: ماذ ماذ، ومعناه: طيب، طيب، وحمطايا، والخاتم، والحاتم، حكاه كعب الأحبار.

قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم [الله به] الأنبياء. والحاتم: أحسن الأنبياء خلقًا وخُلقًا.

ويسمي بالسريانية: : مشفح والمنحمنا، واسمه في التوارة أحيد- روي ذلك عن ابن سيرين.

ومعني صاحب القضيب: أي السيف، وقع ذلك مفسرًا في الأنجيل: قال: معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك.

وقد يحمل على أنه القضيب الممشوق الذي كان يمسكهﷺ، وهو الآن عند الخلفاء.

واما الهراوة التي وصف بها فهي في اللغة العصا، وأراها - والله أعلم- العصا المذكورة في حديث الحوض: «**أذود الناس عنه بعصاي**»(١) - لأهل اليمن.

وأما التاج فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذ إلا للعرب، والعمائم تيجان العرب.

وأوصافه، وألقابه، وسماته في الكتب كثيرة، وفيما ذكرناه منها مقنع إن شاء الله.

[وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم.

وروي عن أنس أنه لما ولد له إبراهيم جاءه جبريل فقال له: السلام عليك يا أبا إبراهيم].

(١) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٣٠١) باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (١٧٩٩/٤).

الفصل الرابع عشر
في تشريف الله تعالى له بما سماه من أسمائه الحسنى
ووصفه به من صافته العلا

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله تعالى: ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول، لانخراطه في سلك مضمونها، وامتزاجه بعذب معينها، لكن لم يشرح الله الصدر للهداية إلي استنباطه ، ولا أنار الفكر لاستخراج جوهره والتقاطه إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله، فرأينا أن نضيفه إليه، ونجمع به شمله.

فاعلم أن الله تعالى خص كثيرًا من الأنبياء بكرامة خلعها عليهم قال الله تعالى: ﴿**وبَشَّرُوهُ بغُلامٍ عَليمٍ**﴾[الذاريات/ ٢٨] من أسمائه، كتسمية إسحاق، وإسماعيل بعليم قال الله تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾[الصافات/ ١٠١]، وحليم قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[التوبة/ ١١٤]، وإبراهيم بحليم قال الله تعالى: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾[الاسراء/ ٣]، ونوح بشكور قال الله تعالى: ﴿**وَبَرًا بِوَالِدَيْهِ**﴾[مريم/ ١٤] وقال تعالى: ﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي**﴾[مريم / ٣٢]، وعيسى ويحيى ببر قال الله تعالى: ﴿**وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾[الدخان/ ١٧]، وموسى بكريم قال الله تعالى: ﴿**إن خير من إستأجرت القوى الأمين**﴾[القصص/ ٢٦]، وقوي، ويوسف بحفيظ عليم قال الله تعالى: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[يوسف/ ٥٥]، وأيوب بصابر قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ**﴾[ص/ ٤٥] وإسماعيل بصادق الوعد، كما نطق بذلك الكتاب العزيز من مواضع قال الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ**﴾[مريم/ ٥٤] .

وفضل نبينا محمدﷺ: بأن حلاه منها في كتابه العزيز، وعلى ألسنة أنبيائه بعدة كثيرة اجتمع منها جملة بعد إعمال الفكر، وإحضار الذكر، إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين، ولا من تفرغ فيها لتأليف فصلين.

وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسمًا، ولعل الله تعالى - كما ألهم إلى ما علم منها وحققه - يتم النعمة بإبانة ما لم يظهره لنا الآن، ويفتح غلقه.

فمن أسمائه تعالى: الحميد، ومعناه المحمود، لأنه حمد نفسه، وحمده عباده، ويكون أيضًا بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسمى الله تعالى النبيﷺ محمدًا، وأحمد، فمحمد بمعنى محمود وكذا وقع اسمه في زبور داود.

وأحمد بمعنى أكبر من حمد، وأجل من حمد، وأشار إلي نحو هذا حسان بقوله:

وشق له من اسمه ليجله، فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن أسمائه تعالى الرؤوف الرحيم وهما بمعنى متقارب

وقد سماه في كتابه بذلك، فقال: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[التوبة/ ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى الحق المبين. ومعنى الحق: الموجود، والمتحقق أمره. وكذلك المبين، أي البين أمره وإلهيته.

بان، وأبان بمعنى واحد. ويكون بمعنى المبينّ لعباده أمر دينهم ومعادهم.

وسمى النبي-ﷺ بذلك في كتابه، فقال: ﴿**حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ**﴾[الزخرف/ ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ**﴾[الحجر/ ٨٩]. وقال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾[يونس/ ١٠٨]. وقال: ﴿**فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾[الأنعام/ ٥]، قيل: محمد .وقيل القرآن. ومعناه هنا ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره- وهو بمعنى الأول.

والمبين: البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[النحل/ ٤٤] .

ومن أسمائه تعالى: النور، ومعناه ذو النور، أي خالقه، أو منور السموات والأرض بالأنوار، ومنور قلوب المؤمنين بالهداية.

وسماه نورًا، فقال: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾[المائدة/ ١٥] قيل: محمد، وقيل القرآن.

وقال فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب/ ٤٦]، سمي بذلك لوضوع أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى: الشهيد، ومعناه العالم. وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وسماه شهيدًا وشاهدًا، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾[الأحزاب/ ٤٥ والفتح/ ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة/ ١٤٣]، وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى: الكريم، ومعناه الكثير الخير. وقيل: المفضل. وقيل: العفو وقيل: العلي.

وفي الحديث المروي في أسمائه تعالى: «**الأكرم**»(١).

وسماه تعالى كريمًا بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة/ ٤٠ والتكوير/ ١٩]، قيل محمد، وقيل: جبريل.

وقال ﷺ: «**أنا أكرم ولد آدم**»(٢).

ومعاني الاسم صحيحة في حقه ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: العظيم، ومعناه الجليل الشأن، الذي كل شيء دونه.

وقال في النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم/ ٤].

ووقع في أول سفر من التوارة - عن إسماعيل: وستلد عظيمًا لأمة عظيمة، فهو عظيم وعلى خلق عظيم.

ومن أسمائه تعالى: الجبار، ومعناه المصلح، وقيل القاهر. وقيل العلي العظيم الشأن. وقيل المتكبر.

وسمي النبي- ﷺ في كتاب داود بجبار، فقال: تقلد أيها الجبار سيفك، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك.

---

(١) رواه ابن ماجه في الدعوات (٣٨٦١) باب أسماء الله عز وجل (٢/ ١٢٧٠).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٠) باب في فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٥).

ومعناه في حق النبي -ﷺ: إما لإصلاحه الأمة بالهداية والتعليم، أو لقهره أعداءه، أو لعلو منزلته على البشر، وعظيم خطره.

ونفى عنه تعالى - في القرآن- جبرية التكبر التي لا تليق به، فقال: ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ**﴾[ق/ ٤٥].

ومن أسمائه - تعالى: الخبير، ومعناه المطلع بكنه الشيء، العالم بحقيقته. وقيل معناه المخبر.

وقال الله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾[الفرقان/ ٥٩] .

قال القاضي بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غير النبيﷺ.

والمسؤول الخبير هو النبيﷺ.

وقال غيره: بل السائل النبيﷺ. والمسؤول هو الله تعالى، فالنبي خبير بالوجهين المذكورين، قيل: لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه، وعظيم معرفته، مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به.

ومن أسمائه تعالى: الفتاح، ومعناه الحاكم بين عباده، أو فاتح أبواب الرزق والرحمة، والمنغلق من أمورهم عليهم، أو يفتح قلوبهم وبصائرهم لمعرفة الحق، ويكون أيضًا بمعنى الناصر، كقوله تعالى: ﴿ **إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ**﴾[الأنفال/ ١٩]، أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وقيل: معناه مبتدئ الفتح والنصر.

وسمى الله تعالى محمداًﷺ بالفاتح في حديث الإسراء الطويل - من رواية الربيع ابن أنس، عن أبي العالية وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: من قول الله تعالى: «**وجعلتك فاتحًا وخاتمًا**»(١).

وفيه - من قول النبيﷺ في ثنائه على ربه، وتعديد مراتبه: «**ورفع لي ذكري،**

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٢) وعزاه إلى البزار ، جاله موثقون إلا أن الربيع بن أنس قال عنه أبي العالية فتابعيه مجهول .

وجعلني فاتحًا وخاتمًا»، فيكون الفاتح هنا بمعنى الحاكم، أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته، أو الفاتح لبصائرهم لمعرفة الحق والإيمان بالله! أو الناصر للحق، أو المبتدئ بهداية الأمة، أو المبدأ المقدم في الأنبياء والخاتم لهم، كما قال ﷺ: «**كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث**»[١].

ومن أسمائه تعالى في الحديث: الشكور[٢]، ومعناه المثيب على العمل القليل. وقيل المثني على المطيعين، ووصف بذلك نبيه نوحًا عليه السلام فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾[الإسراء/ ٣] .

وقد وصف النبي ﷺ نفسه بذلك، فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[٣]، أي معترفًا بنعيم ربي، عارفًا بقدر ذلك، مثنيًا عليه، مجهدًا نفسي في الزيادة من ذلك، لقوله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[إبراهيم/ ٧].

ومن أسمائه تعالى: العليم، والعلام. وعالم الغيب والشهادة.

ووصف نبيه ﷺ بالعلم، وخصه بمزية منه: فقال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾[النساء/ ١١٣]. وقال: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة/ ١٥١].

ومن أسمائه تعالى: الأول، والآخر، ومعناهما: السابق للأشياء قبل وجودها، والباقي بعد فنائها.

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال وعزاه إلى ابن سعد عن قتادة مرسلاً (٣٩١٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري في التوحيد باب أن لله تعالى مائة أسم إلا واحد (١٣/ ٣٨٩)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٧) باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٤/ ٢٠٦٣). والترمذي في الدعوات (٣٥٠٧) باب ما جاء في التسبيح باليد (٥/ ٥٣١).

(٣) صحيح: رواه البخاري في التفسير (٤٨٣٦) باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا (٨/ ٤٤٨)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٩) باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العيادة (٤/ ٢١٧١).

وتحقيقه أنه ليس له أول ولا آخر.

وقال ﷺ: «**كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث**»(١)، وفسر بهذا قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ**﴾[الأحزاب/ ٧]، فقدم محمدﷺ.

وقد أشار إلى نحو منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومنه قوله: «نحن الآخرون السابقون»(٢).

وقوله: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وأول شافع، وأول مشفع**»(٣)، وهو خاتم النبيين، وآخر الرسل ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: القوي: [و﴿**ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾] [الذاريات/ ٥٨]، ومعناه: القادر.

وقد وصفه الله تعالى بذلك، فقال: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ**﴾ [التكوير/ ٢٠]. قيل: محمد. وقيل: جبريل.

ومن أسمائه تعالى: الصادق، في الحديث المأثور(٤).

وورد في الحديث أيضًا اسمه ﷺ بالصداق المصدوق.

ومن أسمائه تعالى: الولي، و المولى، ومعناهما الناصر، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾[المائدة/ ٥٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: رواه مسلم في الجمعة (٨٥٥) باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢/ ٥٨٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٩،٢٧٤).

(٣) رواه الترمذي في المناقب (٣٦١٥، ٣٦١٦) باب في فضائل النبيﷺ (٥/ ٥٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) باب ذكر الشفاعة (٢/ ١٤٤٠).

(٤) رواه ابن ماجة في الدعاء (٣٨٦١) باب أسماء الله عز وجل (٢/ ٣٣٠).

(٥) صحيح: رواه البخاري في التفسير (٤٧٨١) باب سورة الأحزاب حدثني إبراهيم بن المنذر (٨/ ٣٧٦).

وقال ﷺ: «أنا ولي كل مؤمن»(٥).

وقال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[الأحزاب/ ٦] .

وقال ﷺ: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[1].

ومن أسمائه تعالى: العفو، ومعناه الصفوح.

وقد وصف الله تعالى بهذا نبيه في القرآن، والتوارة، وأمره بالعفو، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾[الاعراف/ ١٩٩].

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[المائدة/ ١٣].

وقال له جبريل - وقد سأله عن قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، قال: أن تعفو عمن ظلمك.

وقال - في التوارة والإنجيل في الحديث المشهور، في صفته: ليس بفظ ولا غليظ، ولكن يعفو ويصفح.

ومن أسمائه تعالى: الهادي، وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده، وبمعنى الدلالة والدعاء. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يونس/ ٢٥]. وأصل الجميع من الميل. وقيل: من التقديم.

وقيل في تفسير ﴿طه﴾ إنه يا طاهر، يا هادي، يعني النبي ﷺ. وقال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى/ ٥٢] .

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾[الاحزاب/ ٤٦] .

فالله تعالى مختص بالمعنى الأول: قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[القصص/ ٥٦].

وبمعنى الدلالة ينطلق على غيره تعالى.

ومن أسمائه تعالى: المؤمن المهيمن، قيل: هما بمعنى واحد، فمعنى المؤمن في

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٧١٣) باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٥/ ٦٣٣).

حقـه تعالى: المصـدق وعده عبـاده، والمصدق قـوله الحق، والمصدق لعـباده المؤمنين ورسله. وقيل: الموحد نفسه. وقيل: المؤمن عباده في الدنيا من ظلمه، والمؤمنين في الآخرة من عذابه.

وقيل المهيمن بمعنى الأمين، مصغر منه، فقلبت الهمزة هاء.

وقد قيل: إن قولهم في الدعاء: آمين - أنه اسـم من أسماء الله تعالى، ومعناه معنى مؤمن.

وقيل: المهيمن بمعنى الشاهد والحافظ.

والنبي ﷺ امين، ومهـيمن، ومؤمن، وقد سـماه تعالى أمينًا، فـقال: ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾[التكوير/ ٢١].

كان -ﷺ- يعرف بالأمين، وشهر به قبل النبوة وبعدها، وسماه العباس في شعره مهيمنًا في قوله:

ثم احتوى بيتك المهيمن من   خندف علياء تحتها النطق

قيل: المراد: يا أيها المهيمن، قاله القتبي، والإمام أبو القاسم القشيري.

وقال تعالى: ﴿**يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[التوبة/ ٦١]، أي بصدق.

وقال ﷺ: «**أنا أمنة لأصحابي**»[(١)]، فهذا بمعنى المؤمن.

ومن أسـمائه تـعالى: القـدوس، ومـعناه المنزه عن النقـائص المطهـر من سمـات الحدث، وسمي بـيت المقدس، لأنه يتطهر فيـه من الذنوب، ومنه: الوادي المقدس، وروح القدس.

وقع في كتب الأنبياء في أسمائه ﷺ: المـقدس، أي المطهر من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[الفتح/ ١]، أو الذي يتطهر به من

---

(١) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣١) بب بيان أن بقاء النبيﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة (٤/ ١٩٦١) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٩٩).

الذنوب، ويتنزه باتباعه عنها، كما قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة/ ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾[المائدة/ ١٦].

أو يكون مقدسًا بمعنى مطهرًا، من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية.

ومن أسمائه تعالى: العزيز، ومعناه: الممتنع الغالب، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾[المنافقون/ ٨]، أي الامتناع وجلالة القدر.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[التوبة/ ٢١].

وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾[آل عمران/ ٣٩]، و﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾[آل عمران/ ٤٥].

وسماه الله تعالى مبشرًا، ونذيرًا، أي مبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته.

ومن أسمائه تعالى في ما ذكره بعض المفسرين: طه، ويس. وقد ذكر بعضهم أيضًا أنهما من أسماء محمد ﷺ وشَرَّفَ وكَرَّم.

الفصل الخامس عشر
استدراك في صفات الخالق والمخلوق

قال القاضي أبو الفضل: وفقه الله، وها أنا أذكر نكتة أذيّل بها هذا الفصل، وأختم بها هذا القسم، وأزيح الأشكال بها في ما تقدم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوي التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسنى أسمائه، وعليِّ صفاته، لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه في المعنى الحقيقي إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق فكما أن ذاته لا تشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى - منزه عن ذلك، بل لم يزل بصفاته وأسمائه، وكفى في هذا قوله: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾.

ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات.

وزاد هذه النكتة الواسطي -رحمه الله- بيانًا، وهي مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضي الله عنهم.

وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله- قوله هذا، ليزيده بيانًا، فقال: هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد ، وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات، وهي بوجودها مستغنية، وكيف يشبه فعله فعل الخلق، وهو لغير جلب أنس، أو دفع

نقص حصل، ولا لخواطر وأغراض وجد، ولا بمباشرة ومعالجة ظهر، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه.

وقال آخر - من مشايخنا: ما توهمتموه بأوهامكم، أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم.

وقال الإمام أبو المعالي الجويني: من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره، فهو مشبه، ومن اطمأن إلى النفي المحض فهو معطل وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد.

وما أحسن قول ذي النون المصري: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وما تصور في وهمك فالله بخلافه.

وهذا كلام عجيب نفيس محقق، والفصل الآخر، تفسير لقوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشورى/ ١١].

والثاني تفسير لقوله: ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[الأنبياء/ ٢٣]. والثالث، تفسير لقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[النحل/ ٤٠].

ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات، والتنزيه، وجنبنا طرفي الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته.

الباب الرابع
في ما أظهره الله تعالى
على يديه من المعجزات
وشرّفه به من الخصائص
والكرامات

الفصل الأول

المقـــــدمـــة

قال القاضـي أبو الفضـل : حسب المتأمل أن يحـقق أن كتابنا هذا لم نجمـعه لمنكر نبوة نبينا ﷺ، ولا لطاعن في معجزاته، فنحـتاج إلى نصب البراهين عليها، وتحصين حوزتها، حتى لا يتوصل المطاعن إليها، ونذكر شروط المعجز والتحدي وحده، وفساد قـول من أبـطل نسخ الشـرائـع، ورده: بل ألفناه لأهـل مـلتـه، الملبين لـدعـوته، والمصدقين لنبوته، ليكون تأكيدًا في محبتهم له، ومنماة لأعمالهم، وليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

ونيتنا أن نثبت في هذا البـاب أمهات معجزاته، ومشـاهير آياته، لتدل، علي عظيم قدره عند ربه. وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد، وأكثره مما بلغ القطع، أو كاد، وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة.

وإذا تأمل المتأمل المصنف ما قدمنها من جميل أثره، وحـميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته.

وقد كفـى هذا غير واحد فى إسـلامه والإيمان به فروينا عن الترمـذي، وابن قانع وغيرهمـا بأسانيدهم - أن عبد الله بـن سلام، قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جـئته **لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.**

حدثنا به القاضي الشـهيد أبو عليّ رحمه الله، قال: حدثنا أبـو الحسين الصيرفي، وأبو الفـضل بن خيرون، عن أبـي يعلى البغـدادي، عن أبي عليّ السنجي، عن ابن محبوب، عن الترمـذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب الثـقفي، ومحمد ابن جعفر، وابن أبي عـدي، ويحيى بن سعيد، عن عوف بن أبي جـميلة الأعرابي، عن زرارة بن أوفى ، عن عبد الله بن سلام . . . الحديث.

وعن أبي رمثة التيمي: أتيت النبي ﷺ، ومعي ابن لي، فأريته، فلما رأيته قلت: هذا نبي الله.

وروى مسلم وغيره أن ضمادًا لما وفد عليه، فقال له النبي ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**» - قال له: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك[١].

وقال جامع بن شداد: كان رجل منا يقال له طارق، فأخبر أنه رأى النبي ﷺ بالمدينة، فقال: «**هل معكم شيء تبيعونه؟**» قلنا هذا البعير قال: «**بكم؟**» قلنا بكذا وكذا وسقًا من تمر، فأخذ بخطامه، وسار إلى المدينة، فقلنا: بعنا من رجل لا ندري من هو، ومعنا ظعينة، فقالت: أنا ضامنة لثمن البعير، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر لا يخيس فيكم.

فأصبحنا، فجاء رجل بتمر فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر، وتكتالوا حتى تستوفوا. ففعلنا.

وفي خبر الجلندي ملك عمان - لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام- قال الجلندي: والله، لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي.

وقال نفطويه- في قوله تعالى: ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾[النور/ ٣٥] هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ، يقول: يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنًا كما قال ابن رواحة:

---

(١) صحيح: رواه البخاري في النكاح (٥١٤٦) باب الخطبة (٩/ ١٠٩). ومسلم في الجمعة (٨٦٨) باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٣).

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر

وقال آن نأخذ في ذكر النبوة والوحي والرسالة، وبعده في معجزة القرآن، وما فيه من برهان ودلالة.

الفصل الثاني
بين النبوة والرسالة

اعلم أن الله جل اسـمه قـادر على خلق المعـرفة في قلـوب عبـاده، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداء دون واسطة لو شاء، كما حكي عن سنته في بعض الأنبياء، وذكره بعض أهل التـفسير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾[سورة الشورى / ٥١].

وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه، وتكون تلك الواسطة، إما من غير البـشر، كالملائكة مع الأنبياء أو من جنسهم كـالأنبياء مع الأمم، ولا مانع لهذا من دليل العقل .

وإذا جاز هذا ولم يستـحل، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من مـعجزاتهم - وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به، لأن المعجزة مع التحدي من النبيﷺ قائم مقام قول الله: صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه، وشاهد على صدقه فيما يقوله. وهذا كاف، والتطويل فيه خارج عن الغـرض، فمن أراد تتبعه وجده مستـوفى في مصنفات أئمتنا رحمهم الله.

فالنبـوة في لغة من همـز مأخـوذة من النبـأ، وهو الخبـر، وقد لا تهمـز على هذا التأويل تسهيلاً.

والمعنى أن الله تعالى أطلعـه على غيبـه، وأعلمه أنه نبيـه، فيكون نبي منبأ فـعيل بمعنى مفعول، أو يكون مخبرًا عما بعثه الله تعالى به، ومنبئًا بما أطلعه الله عليه فعيل بمعنى فاعل، ويكوّن عند من لم يهمـزه من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض، ومعناه أن له رتبة شريفة، ومكانة نبيهة عند مولاه منيفة، فالوصفان في حقه مؤتلفان.

وأما الرسول فهو المرسل، ولم يأت فعول بمعنى مفعل في اللغة إلا نادرًا. وإرساله

أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه، واشتقاقه من التتابع، ومنه قولهم: جاء الناس أرسالاً، إذا تبع بعضهم بعضًا، فكأنه ألزم تكرير التبليغ، أو ألزمت الأمة اتباعه .

واختلف العلماء: هل النبي والرسول بمعنى، أو بمعنيين؟ فقيل هما سواء، وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾[الحج/ ٥٢]، فقد ثبت لهما معًا الإرسال، ولا يكون النبي إلا رسولاً، ولا الرسول إلا نبيًا.

وقيل: هما مفترقان من وجه، إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك، وحوز درجتها، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول ، وهو الأمر بالإنذار والإعلام كما قلنا.

وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ. قالوا والمعنى ما أرسلنا من رسول إلى أمة أو نبي ليس بمرسل إلى أحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبي غير رسول، وإن أمر بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح، والذي عليه الجماء الغفير، أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد ﷺ.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: «**إن الإنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي**»(١).

وذكر أن الرسل، ومنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم عليه السلام.

فقد بان لك معنى النبوة والرسالة، وليستا عند المحققين ذاتا للنبي، ولا وصف ذات، خلافًا للكرامية، في تطويل لهم، وتهويل، ليس عليه تعويل.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٦).

وأما الوحي فأصله الإسراع، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمي وحيًا، وسميت أنواع الإلهامات وحيًا، تشبيهًا بالوحي إلى النبي، وسمي الخط وحيًا، لسرعة حركة يد كاتبه، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم/ ١١]، أي أومأ ورمز.

وقيل: كتب، ومنه قولهم: الوحا، أي السرعة.

وقيل أصل الوحي السر والإخفاء، ومنه سمي الإلهام وحيًا، ومنه قوله: ﴿وإنَّ الشياطينَ ليوحونَ إلى أولِّيائهم﴾[الأنعام/ ١٢١]، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾[القصص/ ٧]، أي ألقي في قلبها.

وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى/ ٥١]، أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة.

الفصل الثالث
معنى المعجزات

اعلم أن معني تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين، ضرب هو من نوع قدرة البشرة، فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل لله دل على صدق نبيه، كصرفهم عن تمني الموت. وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأى بعضهم، ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد، إلا الله، فكون ذلك على يد النبيﷺ من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ دلائل نبوته وبراهين صدقه - من هذين النوعين معًا، وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا، كما سنبينه، وهي - في كثرتها - لا يحيط به ضبط، فإن واحدًا منها - وهو القرآن، لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعُجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور: إنا أعطيناك الكوثر.... فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات على ما نفصله في ما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها علم قطعًا، ونقل إلينا متواترًا كالقرآن ، فلا مرية، ولا خلاف، بمجيء النبي به، وظهوره من قبل، واستدلاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا.

وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به، فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة.

ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظرًا، كما سنشرحه .

قال بعض أئمتنا: ويجري هذا المجري على الجملة أنه قد جرى على يديه ﷺ آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معينا القطع فيبلغه جميعها، فلا مرية في جريان معانيها على يديه، ولا يختلف مؤمن ولا كافر - أنه جرت على يديه عجائب، وإنما خلاف المعاند في كونها من قبل الله.

وقد قدمنا كونها من قبل الله، وأن ذلك بمثابة قوله : صدقت.

فقد علم وقوع مثل هذا أيضًا من نبينا ضرورة لاتفاق معانيها، كما يعلم ضرورة جود حاتم، وشجاعة عنترة، وحلم أحنف، لاتفاق الأخبار الواردة عن كل واحد منهم على كرم هذا، وشجاعة هذا، وحلم هذا، وإن كان كل خبر بنفسه لا يوجب العلم، ولا يقطع بصحته.

والقسم الثاني: ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع، وهو على نوعين: نوع مشتهر منتشر، رواه العدد، وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار، كنبع الماء من بين الأصابع، وتكثيره الطعام.

ونوع منه اختص به الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر اشتهار غيره، لكنه إذا جمع إلى مثله اتفقا في المعنى، واجتمعا على الإتيان بالمعجز، كما قدمنها.

قال القاضي أبو الفضل: وأنا أقول صدعًا بالحق: إن كثيرًا من هذه الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع.

أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر عن جوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء يرفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه.

وكذلك قصة نبع الماء[١]، وتكثير الطعام[٢]- رواه الثقات والعدد الكثير عن الجماء الغفير، عن العدد الكثير من الصحابة.

ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً عمن حدث بها من جملة الصحابة وإخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق، وفي غزوة بواط، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة مخالفة للرواي في ما حكاه، ولا إنكار لما ذكر عنهم أنهم رأوه كما رآه، فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوت على باطل، والمداهنة في كذب، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكرًا عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه، كما أنكر بعضهم على بعض أشياء، رواها من السنن والسير وحروف القرآن. وخطأ بعضهم بعضًا، ووهمه في ذلك، مما هو معلوم، فهذا النوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته لما بينه.

وأيضًا فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وبنيت على باطل، لابد بعد مرور الأزمان وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف ضعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف، الطارئة. وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الآحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهورًا، ومع تداول الفرق، وكثرة طعن العدو، وحرصه على توهينها، وتضعيف أصلها، واجتهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوة وقبولاً، وللطاعنين عليها إلا حسرة وغليلاً.

وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان معلوم من آياته على الجملة بالضرورة.

وهذا حق لا غطاء عليه: وقد قال به من أئمتنا القاضي، والأستاذ أبو بكر وغيرهما، رحمهم الله، وما عندي أوجب قول القائل: إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها، وشغله بغير ذلك من المعارف،

(١) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبيﷺ (٤/ ١٧٨٣).
(٢)والإمام مالك في الموطأ في صفة النبيﷺ باب جامع ما جاء في الطعام .

وإلا فمن اعتنى بطرق النقل، وطالع الأحاديث والسير لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه .

ولا يبعد أن يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولا يحصل عند آخر: فإن أكثر الناس يعلمون - بالخبر- كون بغداد موجودة، وأنها مدينة عظيمة، ودار الإمامة والخلافة، وآحاد من الناس لا يعلمون اسمها، فضلاً عن وصفها، وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر النقل عنه - أن مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية في أول ليلة من رمضان عما سواه، وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة، والاقتصار في المسح على بعض الرأس، وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره، وإيجاب النية في الوضوء، واشتراط الولي في النكاح، وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه المسائل، وغيرهم ممن لن يتشغل بمذاهبم ولا روى أقوالهم لا يعرف هذا من مذاهبهم فضلاً عمن سواه.

وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بيانًا إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع
في إعجاز القرآن

[قال القاضي أبو الفضل رحمه الله].

اعلم - وفقنا الله وإياك- أن كتاب الله العزيز مُنْصَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها - حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذه الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب: فيخطبون بديهًا في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسعر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان. ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً.

منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي.

منهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية.

وكلا البابين لهما في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحًا لبلوغ

أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في القل والكثر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالا، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في السجع والشعر سجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخًا بهم في كل حين، ومقرعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[يونس/ ٣٨].

﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾[البقرة/ ٢٣، ٢٤].

و﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء/ ٨٨].

وقل: ﴿**فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾[هود/ ١٣]. وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب، ولهذا قيل: فلان يكتب كما يقال له، وفلان يكتب كما يريد.

وللأول على الثاني فضل، وبينهما شأو بعيد.

فلم يزل يقرعهم ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآبائهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون

أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر/ ٢٤]، و﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[القمر/ ٢]، و﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾[الفرقان/ ٤]، و﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[الأنعام/ ٢٥]، والمباهتة والرضا بالدنية، كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة/ ٨٨]. و﴿ فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فصلت/ ٥]، و﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت/ ٢٦] .

والادعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[الأنفال/ ٣١].

وقد قال لهم الله: ولن تفعلوا، فما فعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم - كمسيلمة- كشف عواره جميعهم وسلبهم الله ما ألفوه، من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون.

ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل/ ٩٠]. قال: والله، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر.

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر/ ٩٤] - فسجد، وقال: سجدت لفصاحته.

وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[يوسف/ ٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- كان يومًا نائمًا في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، واستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا [هي] قد جمع فيها ما أنزل على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا

والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[النور/ ٥٢].

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية، فقال لها قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص/ ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين، وبشارتين.

بهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين.

وكون القرآن من قبل النبيﷺ، وأنه أتى به - ملعوم ضرورة، وكونه - عليه السلام- متحديًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيل من ليس من أهلها أن يعلم ذلك بعجز المفكرين من أهلها عن معارضته واعتراف المفسرين بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[البقرة /١٧٩]. وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[سبأ/ ٥١]. وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت/ ٣٤]. وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[هود/ ٤٤].

وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[العنكبوت/ ٤٠].

وأشباهها من الآية، بل أكثر القرآن - حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلومًا زواخر، ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان - آية لمتأمله، من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها.

ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارت عنها على كثرة ترددها حتي تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا معادة لمعادها.

الفصل الخامس
إعجاز النظم والإسلوب

الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم، أو سجع أو رجز، أو شعر.

ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن -رق، فجاءه أبو جهل منكرًا عليه- قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

وفي خبره الآخر - حين جمع قريشًا عند حضور الموسم، وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا، لا يكذب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن قال: والله ما هو بكاهن. ما هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون . قال: ما هو بمجنون، ولا بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: نقول شاعر . قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه، ومبسوطه، ومقبوضه، ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما فنقول: قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا، إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول أنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته.

فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ**

تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[المدثر/ ١١ : ٢٤].

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم، قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

وقال النضر بن الحارث نحوه.

وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخاه أنيسًا، فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعرًا في الجاهلية، أنا أحدهم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذر بخبر النبيﷺ. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

والأخبار في هذه صحيحة كثيرة.

والإعجاز بكل واحد من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين.

وذهب بعض [المحققين] المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقوله تمجه الأسماع، وتنفر منه القلوب.

والصحيح ما قدمناه، والعلم بهذا كله ضرورة قطعًا .

ومن تفنن في علوم البلاغة، وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئـمة أهل السنة في وجه عجـزهم عنه، فأكثرهم يقـول: إنه ما جمع في قوة جزالتـه، ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه، وإيجـازه، وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مـقدور البـشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقـدار الخلق عليها، كإحياء الموتى، وقلب العصا، وتسبيح الحصى.

وذهب الشـيخ أبو الحسن إلـى أنه مما يمكن أن يدخل مثلـه تحت مقـدور البشـر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه.

وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة عليهم بما يصـح أن يكون في مقدور البـشر، وتحديهم بأن يأتوا بمـثله - قاطع، وهو أبلغ في التعـجيز، وأحـرى بالتقريع، والاحـتجاج بمجيء بشر مـثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم ، وهو أبهر آية، وأقمع دلالة.

وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء، والقتل، وتجرعوا كاسات الصغار، والذل، وكـانوا من شموخ الآنف، وإباية الضيم، بحيث لا يؤثرون ذلك اخـتيـارًا، ولا يرضـونه إلا اضطرارًا، وإلا فالمعـارضـة لو كانت من قـدرهم، والشغل بها أهون عـليهم، وأسرع بالنجح وقطع العذر وإفحـام الخصم لديهم، وهم ممن لهم قدرة على الكلام، وقدرة في المعرفة به لجـميع الأنام، وما منهم إلا من جهد جهده، واسـتنفد ما عنده في إخفاء ظهـوره، وإطفاء نوره، فما جلوا في ذلك خبـيئة من بنات شفاههم، ولا أتوا بنطفة من معين مـياههم، مع طول الأمد، وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسـوا فما نبسـوا، ومنعوا فانقطعوا، فـهذان نوعان من إعجازه .

الفصل السادس
الإخبار عن المغيبات

الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر به، كقوله تعالى: ﴿**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾[الفتح/ ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿**وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾[الروم/ ٣].

وقوله: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة/ ٣٣].

وقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور/ ٥٥].

وقوله: ﴿**إذا جاءَ نصرُ الله والفتحُ. ورأيتَ الناسَ يدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجًا. فسبِّح بحمدِ ربِّكَ واستغفرْه إنه كان توابًا**﴾[النصر/ ١: ٣].

فكان جميع هذا، كما قال، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام.

واستخلف [الله] المؤمنين في الأرض، ومكن فيها دينهم، وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال عليه السلام: «**زويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها**» (١).

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/ ٢٢١٥).

وقوله: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر/ ٩]، فكان كذلك، لا يكاد يُعد من سعى في تغييره، وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة، لا سيما القرامطة، فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم، اليوم نيفًا على خمسمائة عام، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، والحمد لله.

ومنه قوله: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾[القمر/ ٤٥].

وقوله: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**﴾[التوبة/ ١٤].

وقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[التوبة/ ٣٣].

وقوله: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ**﴾[آل عمران/ ١١١]. فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حلفهم، وتقريعهم بذلك، كقوله: ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ**﴾[المجادلة/ ٨].

وقوله: ﴿**يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[آل عمران/ ١٥٤].

وقوله: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[المائدة/ ٤١].

وقوله: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**﴾[النساء/ ٤٦] .

وقد قال مبديًا، ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر: ﴿**وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ**﴾[الأنفال/ ٧] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر/ ٩٥] .

ولما نزلت بشر النبيﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم: وكان المستهزئون نفرًا بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا.

وقوله: ﴿ **والله يعصمك من الناس**﴾[المائدة/ ٦٧] ، فكان كذلك على كثرة من رام ضره، وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة وصحيحة.

الفصل السابع

إخباره عن القرون السالفة والأمم البائدة

الوجه الرابع ما أنبأ من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة. والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم.

وقد علموا أنه ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدراسة ولا مثافنة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه - ﷺ عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء [والقصص]، وبدء الخلق، وما في التوارة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد، ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ، وتعنيتهم إياه - عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح، وذي القرنين ، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، ومن طيبات أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم.

وقوله: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾[الفتح/ ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن، فأجابهم وعرفهم بما أوحي إليه من

ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترف بعناده وحسدهم إياه، كأهل نجران، وابن صوريا، وابني أخطب وغيرهم.

ومن باهت في ذلك بعض المباهتة، وادعى أن في ما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة - دعي إلى إقامة حجته، وكشف دعوته، فقيل له: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[آل عمران/ ٩٣، ٩٤].

فقرع ووبخ، ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحده، ومتواقح يُلقي على فضيحته من كتابه يده.

ولم يؤثر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفه، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[المائدة/ ١٥، ١٦].

الفصل الثامن

التحدي والتعجيز في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية.

ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه: آي وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك، كقوله لليهود: ﴿**قُلْ إن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عندَ اللَّه خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إن كُنتُمْ صَادقِينَ (٩٤) ولَن يَتَمَنَّوْهُ أَبدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾[البقرة/ ٩٤، ٩٥].

قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ**﴾، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبدًا، فلم يتمنه واحد منهم.

وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه» - يعني يموت مكانه.

فصرفهم الله عن تمنيه وجزعهم، ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوحي إليه، إذ لم يتمنه أحد منهم، وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا، ولكن الله يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزته، وبانت حجته.

قال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة، ولا واحد، من يوم أمر الله بذلك نبيه - يقدم عليه، ولا يجيب إليه.

وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم.

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى، حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبو الإسلام، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل**

لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[آل عمران/ ٦١] .

فامتنعوا منها، ورضوا بأداء الجزية، وذلك أن «العاقب» عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي، وأنه ما لاعن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.

ومثله قوله: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾**[البقرة/ ٢٣، ٢٤] .

فأخبرهم أنهم لا يفعلون، كما كان.

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب. ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها .

الفصل التاسع

روعته في السمع وهيبته في القلوب

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورًا، كما قال تعالى: ويودون انقطاعه لكراهتهم له.

ولهذا قالﷺ: «إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم، وأما المؤمن فلا تزال روعته به، وهيبته إياه، مع تلاوته - توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشة، لميل قلبه إليه، وتصديقه به»، قال تعالى: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[الزمر/ ٢٣] .

وقال: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الحشر/ ٢١].

ويدل على أن هذا شيء خص به - أنه يعتري من لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني - أنه مر بقارئ - فوقف يبيك، فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به، ومنهم من كفر.

فحكى في الصحيح، عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبيﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ**﴾[الطور/ ٣٥،٣٧]. - كاد قلبي أن يطير للإسلام (١).

وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٨٥٤) سورة الطور حدثنا عبد الله بن يوسف (٨/ ٤٦٩).

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ في ما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[فصلت/ ١: ١٣].

فأمسك عتبة بيده على فيِّ النبي ﷺ، وناشده الرحم أن يكف.

وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملقٍ يديه خلف ظهره، معتمد عليهما، حتى انتهى إلى السجدة، فسجد النبي ﷺ، وقام عتبة لا يدري بما يراجعه، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه، فاعتذر لهم، وقال: والله لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له.

وقد حكي عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك.

فحكى أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه، وشرع فيه، فمر بصبي يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾[هود/ ٤٤] - فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل وقته.

وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمنه، فحكي أنه رام شيئًا من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج - بزعمه - على منوالها - قال: فاعترتني خشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة.

الفصل العاشر
بقاؤه على الزمن

ومن وجوده إعجازه المعدود كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر/ ٩] .

وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت/ ٤٢] .

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز، الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته على ما كان عليه اليوم - مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلى وقتنا هذا - حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه، والنكوص على عقبيه .

الفصل الحادي عشر
وجوه أخرى للإعجاز

وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرة، منها أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضًا طريًا، وغيره من الكلام - ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه - يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويونس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها.

ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه: «**لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا نزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾**[1][الجن/ ١، ٢] .

ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة، بمعرفتها، ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم، ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعد - أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها، كقوله تعالى: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾** [يس/ ٨١].

و: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**[يس/ ٧٩].

و: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾**[الأنبياء/ ٢٢] .

---

(١) رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ١٧٢).

إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم، والمواعظ، والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم.

قال الله - جل اسمه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام/ ٣٨].

و: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل/ ٨٩].

و: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[الروم/ ٥٨].

وقال-ﷺ: **«إن الله أنزل هذا القرآن آمرًا وزاجرًا، وسنة خالية، ومثلاً مضروبًا، فيه نبؤكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد»**[1].

ونحوه عن ابن مسعود، وقال فيه: **«ولا يختلف، ولا يُتشانأ، فيه نبأ الأولين والآخرين»**.

وفي الحديث: قال الله تعالى لمحمدﷺ: **«إني منزل عليك توارة حديثة، تفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فيها ينابيع العلم، وفهم الحكمة، وربيع القلوب»**.

وعن كعب: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقول، ونور الحكمة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[النمل/ ٧٦].

وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران/ ١٣٨].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦) باب ما جاء في فضل القرآن (٥/ ١٧٢).

فجـمع فيـه مع وجازة ألفـاظه، وجوامع كلمـه أضعـاف ما في الكتب قـبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات.

ومنها جمعه فيه بين الدليل ومدلوله، وذلك أنه احتج بنظم القرآن، وحسن رصفه وإيجازه وبلاغتـه، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهـيه، ووعده ووعيده، فـالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معًا من كلام واحد، وسورة منفردة.

ومنها أن جـعله في حيـز المنظوم الذي لم يعهـد، ولم يكن في حيـز المنثور، لأن المنظوم أسـهل عـلى النفـوس، وأوعى للقلوب، وأسـمح فـي الآذان، وأحلى على الأفهام، فالناس إليه أميل، والأهواء إليه أسرع.

ومنها تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه، وتقريبه على متحفظيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾[القمر/ ١٧].

وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، فكيف الجماء على مرور السنين عليهم. والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضًا، وحسن ائتلاف أنواعه، والتئام أقسامها، وحسن التخلص مـن قصة إلى أخـرى، والخروج من باب إلى غـيره على اختـلاف معـانيه، وانقسـام السورة الواحدة إلى أمر ونهي، وخـبر واستخـبار، ووعد ووعيـد، وإثبات نبـوة، وتوحيـد وتفريد، وترغـيب وترهيب، إلى غـير ذلك من فـوائده، دون خلل يتخلل فصوله.

والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضـعفت قوته، ولانت جزالته، وقل رونقه، وتقلقت ألفاظه.

فتأمـل أول «ص»، وما جمع فيـها من أخبار الكفـار وشقاقهم وتقـريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، وما ذكر من تكذيبهم لمحمد ﷺ، وتعجبهم مما آتى به، والخبر عن اجتماع ملئـهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامـهم، وتعجيزهم وتوهينهم،

ووعيـدهم بخزي الدنيا والآخـرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعـيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبيـر النبي ﷺ على أذاهم، وتسليته بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء، كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام.

ومنه الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة، وهذا كله وكثير مما ذكرناه أنه ذكر في إعجاز القرآن، إلى وجوه كثـيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها، إذ أكثرها داخل في باب بلاغتـه، فلا يجب أن يعد فنًا منفـردًا في إعجازه، إلا في باب تفـصيل فنون البلاغة، وكذلك كثير مما قدمنا ذكره عنهم يُعد في خواصه وفضائله، لا إعجازه.

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا، فليعتمد عليها، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي. والله ولي التوفيق.

الفصل الثاني عشر

في انشقاق القمر وحبس الشمس

قال الله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾[القمر/ ١، ٢].

أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه:

أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله، حدثنا الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن شعبة، وسفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**».

وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي ﷺ [١].

وفي بعض طرق الأعمش: ونحن بمنى.

ورواه أيضًا - عن ابن مسعود- الأسود، وقال: حتى رأيت الجبل بين فرجتي القمر[٢].

ورواه عنه مسروق - أنه كان بمكة - وزاد: فقالت كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة !.

(١) صحيح : رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٢) باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٨) وأحمد في مسنده (٣/ ١٦٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدار المنثور في تفسير سورة القمر (٦/ ١٤٧) .

فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا، فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وحكى السمرقندي عن الضحاك نحوه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سحر، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا: أرأوا ذلك أم لا؟.

فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقًا، فقالوا - يعني الكفار: سحر مستمر. ورواه أيضًا - عن ابن مسعود- علقمة، فهؤلاء أربعة عن عبد الله.

وقد رواه غير ابن مسعود، كما رواه ابن مسعود، منهم أنس، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وعليّ، وجبير بن مطعم، فقال عليّ - من رواية أبي حذيفة الأرحبي: انشق القمر ونحن مع النبيﷺ.

وعن أنس: سأل أهل مكة النبيﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما.

رواه عن أنس قتادة .

وفي رواية معمر وغيره، عن قتادة، عنه: أراهم القمر مرتين انشقاقه، فنزلت: **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾**.

ورواه عن جبير بن مطعم ابنه محمد، وابن ابنه جبير بن محمد.

ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

ورواه عن ابن عمر مجاهد، ورواه عن حذيفة أبو عبد الرحمن السلمي ومسلم بن أبي عمران الأزدي.

وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة، والآية مصرحة، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم - لكثرتهم- على الكذب، لما كانت علينا به حجة، إذ ليس

القمـر في حد واحـد لجمـيع أهل الأرض، فقـد يطلع على قوم قـبل أن يطلع على آخرين، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض، أو يحول بين قوم وبينه سحـاب أو جبال، ولهذا نجد الكسـوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعض جزئية، وفي بضعـها كلية، وفي بعضها لا يعرفهـا إلا المدعوون لعلمها، ﴿**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[يس/ ٣٨].

وآية القمر كانت ليلاً، والعادة من الناس بالليل الهدو والسكون وإيجاف الأبواب، وقطع التصرف، ولا يكاد يعـرف من أمور السماء شيـئًا، إلا من رصد ذلك، واهتبل به.

ولذلك ما يـكون الكسوف القمـري كثـيرًا في البـلاد، وأكثرهم لا يعلـم به حتى يخبر، وكثيرًا ما يحدث الثقـات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء، ولا علم عند أحد منها.

وخرج الطحاوي - في مـشكل الحديث، عن أسماء بنت عـميس من طريقين- أن النبي ﷺ كـان يوحى إليه، ورأسـه في حجـر عليّ، فلم يصل العصـر حتى غـربت الشمس، فـقال النبي ﷺ: «**أصليت يا علـيّ؟**» **قـال: لا. فـقـال:** «**اللهم إنه كـان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس**».

قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتـها طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر.

قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات.

وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن [يكون] سبيله العلم المتخلف عن حفظ حديث أسماء، لأنه من علامات النبوة.

وروى يونس بن بكيـر في زيادة المغـازي في روايتـه عن ابن إسـحاق: لما أسـري برسول الله، وأخبر قومه بالرفقة والعـلامة التي في العير قالوا: متى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم يجئ، فدعا رسول الله، فزيد له في النهار ساعة، وحبست عليه الشمس.

الفصل الثالث عشر
في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته

[قال المؤلف رحمه الله]:

أما الأحاديث في هذا فكثيرة جدًا.

روى حديث نبع الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة، منهم أنس، وجابر، وابن مسعود:

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي عيسى بن سهل، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو عمر بن الفخار، حدثنا أبو عيسى، حدثنا يحيى، حدثنا ملك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه.

قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم(١).

ورواه أيضًا - عن أنس -، وقال: بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر.

قال: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاثمائة(٢).

وفي رواية عنه: وهم بالزوراء عند السوق(٣).

ورواه أيضًا حميد، وثابت والحسن ، عن أنس.

وفي رواية حميد: قلت: كم كانوا؟ قال: ثمانين.

---

(١) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٣).

(٢) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٣).

(٣) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٧٩ ٢٢) تفضيل نبينا عليه الصلاة والسلام على جميع الخلق (٤/ ١٧٨٣) .

ونحوه عن ثابت عنه.

وعنه أيضًا: وهم نحو من سبعين رجلاً.

وأما ابن مسعود ففي الصحيح من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اطلبوا من معه فضل ماء**»، فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ(١).

وفي الصحيح، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر رضي الله عنه: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منه، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

وفيه: فقلت: كم كنتم؟ قالوا: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشر مائة(٢).

وروي مثله عن أنس، عن جابر، وفيه أنه كان بالحديبية.

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه، في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال:

قال لي رسول الله ﷺ: «**يا جابر، ناد، الوضوء ...**» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب، فأتي به النبي ﷺ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدرى ما هو، وقال: «**ناد بجفنة الركب**»، فأتيت بها، فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة، وفرق أصابعه، وصب جابر عليه، وقال: بسم الله [كما أمره ﷺ]، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء، فاستقوا حتى رووا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٢) باب علامات النبوة في الإسلام (٦/ ٦٧٢)، والترمذي في المناقب (٣٦٣٣) باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به (٥/ ٥٩٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٦) باب علامات النبوة في الإسلام (٦/ ٦٧٢)، ومسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٣).

فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[(١)].

وعن الشعبي: أتي النبي ﷺ في بعض أسفاره بإداوة ماء وقيل: ما معنا يا رسول الله ماء غيرها، فسكبها في ركوة، ووضع إصبعه وسطها، وغمسها في الماء، وجعل الناس يجيئون ويتوضؤون ثم يقومون.

قال الترمزى : وفى الباب ، عن عمران بن حصين . ومثل هذا فى هذه المواطن الحفلة والجموع الكثرية لا تتطرق التهمة إلى المحدث به ، لأنهم كانوا اسرع شىء إلى تكذيبه لما جُبلت عليه النفوس من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل فهؤلاء قدرووا هذا ، وأشاعوه ، ونسبوا حضور الجُماء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتصديق جميعهم له .

---

(١) صحيح : رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٥) باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٣٣)، ومسلم في الزهد والرقاق (٣٠١٣) باب في حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٤/ ٢٣٠٧) ، والترمذي في المناقب (٣٦٣١) باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ وما قد خصه الله عز وجل به (٥/ ٥٩٦) ﷺ على جميع الخلق (٤/ ١٧٨٣).

الفصل الرابع عشر
تفجير الماء ببركته

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته، وانبعاثه بمسه ودعوته في ما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس[١].

قال- في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق.

ثم قال: «**يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ها هنا قد ملئ جنانًا**»[٢].

وفي حديث البراء، وسلمة بن الأكوع - وحديثه أتم - في قصة الحديبية، وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروى خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها[٣].

قال البراء: وأتي بدلو منها، فبصق فدعا.

وقال سلمة: فإما دعا، وإما بصق فيها، فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم.

وفي غير هذه الروايتين- في هذه القصة- من طريق ابن شهاب [في الحديبية]: فأخرج سهمًا من كنانته، فوضع في قعر قليب ليس فيه ماء؟ فروي الناس حتى ضربوا بعطن.

وعن أبي قتادة - وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره، فدعا بالميضأة، فجعلها في ضبنه، ثم التقم فمها، فالله أعلم - نفث فيها أم

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٧٠٦) باب في معجزات النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٤)، والإمام مالك في الموطأ في قصر الصلاة في السفر (١/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٣٤).

لا، فشرب الناس حتى رووا وملئوا كل إناء معهم، فخيل إليَّ أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً[١].

وروى مثله عمران بن حصين[٢].

وذكر الطبري حديث أبي قتادة على غير ما ذكره أهل الصحيح - وأن النبيﷺ خرج بهم مَدًا لأهل مؤتة عندما بلغه قتل الأمراء:

وذكر حديثًا طويلاً فيه معجزات وآيات النبيﷺ، وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء في غد.

وذكر حديث الميضأة، قال: والقوم زهاء ثلاثمائة[٣].

وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قتادة: «**احفظ علي ميضأتك، فإنه سيكون لها نبأ...**» وذكر نحوه[٤].

ومن ذلك حديث عمران بن حصين حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطش في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه، وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان . . . الحديث، فوجداها وأتيا بها إلى النبي ﷺ، فجعل في إناء من مزادتيها، وقال فيه ما شاء أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم فتحت عزاليهما، وأمر الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئًا إلا ملأوه.

قال عمران: وتخيل إلي أنهما لم تزدادا إلا امتلاء، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها. وقال: « **اذهبي ، فإنا لم نأخذ من مائك شيئًا ، ولكن الله سقانا ...**» الحديث بطوله[١].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبيﷺ (٤/ ١٧٨٣).

(٢) الترمذي في المناقب (٩٣٦٣١) ، باب في آيات إثبات نبوة النبيﷺ وما قد خصه الله عز وجل به (٥/ ٥٩٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٩) باب في معجزات النبيﷺ (٤/ ١٧٨٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٠) باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (١/ ٤٧١).

وعن سلمة بن الأكوع: قال نبي الله ﷺ: «**هل من وضوء؟**» فجاء رجل بإداوة فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة . . (الحديث بطوله[٢]).

وفي حديث عمر - في جيش العسرة: وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه فرغب أبو بكر إلى النبي ﷺ في الدعاء فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ولم تجاوز العسكر.

وعن عمرو بن شعيب - أن أبا طالب قال للنبي، وهو رديفه بذي المجاز: عطشت وليس عندي ماء، فنزل النبي ﷺ، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء فقال: «**اشرب**».

والحديث في هذا الباب كثير: ومنه الإجابة بدعاء الاستقساء وما جانسه.

(١) صحيح: رواه مسلم في المساجد (٦٨٠، ٦٨١) باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (١/ ٤٧١)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٣٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم في اللقطة (١٧٢٩) باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت والمؤاساة فيها (٣/ ١٣٥٤).

الفصل الخامس عشر
تكثير الطعام

ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه:

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ رحمه الله، حدثنا العذري، حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا أبى سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا الحسن بن أعين، حدثنا معقل، عن أبي الزبير، عن جابر - أن رجلاً أتي النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره، فقال: «**لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم**»(١).

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور، وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده، أي إبطه، فأمر بها ففتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول(٢).

وحديث جابر في إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق.

وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز.

وكان رسول الله ﷺ بصق في العجين والبرمة، وبارك.

رواه عن جابر سعيد بن ميناء، وأيمن.

[وعن ثابت مثله، عن رجل من الأنصار وامرأته، ولم يسمهما، قال: وجيء بمثل الكف، فجعل رسول الله ﷺ يبسطها في الإناء ويقول: «**ما شاء الله**»، فأكل منه من في البيت والحجرة والدار، وكان ذلك قد امتلأ ممن قدم معه ﷺ لذلك، وبقي بعد ما شبعوا مثل ما كان في الإناء].

---

(١) صحيح : رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨١) باب في معجزات النبيﷺ (٤/ ١٧٨٤) .

(٢) صحيح : رواه مسلم في الأشربة (٢٠٤٠) باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه (٣/ ١٦١٢).

وحديث أبي أيوب أنه صنع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما، فقال له النبي ﷺ: «**ادع ثلاثين من أشراف الأنصار**»، فدعاهم فأكلوا حتى تركوا، ثم قال: «**ادع ستين**»، فكان مثل ذلك، ثم قال: «ادع سبعين» فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبايع.

قال أبو أيوب: فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً(١).

وعن سمرة بن جندب: أُتي النبي، بقصعة فيها لحم، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث أنه عُجن صاع من طعام وصنعت شاة، فشوي سواد بطنها، قال: وأيم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حز له حزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا [منهما] أجمعون، وفضل في القصعتين، فحملته على البعير(٢).

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، عن أبيه، ومثله لسلمة ابن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فذكروا مخمصة أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد، فجاء الرجل بالحثية من الطعام، وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على نطع.

قال سلمة: فحزرته كربضة العنز، ثم دعا الناس بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤوه وبقى منه.

وعن أبي هريرة: أمرني النبي ﷺ أن ادعو له أهل الصفة، فتتبعتهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيديهم صفحة، فأكلنا ما شئنا، وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع.

وعن عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة، ويشربون الفرق، فصنع لهم مداً من

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في دعوة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه (٦/ ٩٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الأشربة (٢٠٥٦) باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٣/ ١٦٢٧).

طعام، فأكلا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه وقال أنس: إن النبيﷺ حين ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قومًا سماهم، وكل من لقيت، حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدم إليهم تورًا، فيه قدر مد من تمر جعل حيسًا، فوضعه قدامه، غمس ثلاث أصابعه، وجعل القوم يتغدون ويخرجون وبقي التور نحوًا مما كان، وكان القوم أحدًا، أو اثنين وسبعين(١).

[وفي رواية أخرى في هذه القصة أو مثلها: إن القوم كانوا زهاء ثلاثمائة، وأنهم أكلوا حتى شبعوا. وقال لي : «ارفع»، فلا أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت(٢).

وفي حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليّ رضي الله عنه - أن فاطمة طبخت قدرًا لغدائها ووجهت عليًا إلى النبيﷺ ليتغدي معهما، فأمرهما فغرفت منها لجميع نسائه صفحة صفحة، ثم له ﷺ ولعليّ، ثم لها، ثم رفعت القدر، وإنها لتفيض، قالت: فأكلنا منها ما شاء الله].

وأمر عمر بن الخطاب أن يزود أربعمائة راكب من أحمس، فقال: يا رسول الله، ما هي إلا أصوع. قال: «اذهب»، فذهب فزودهم منه، وكان قدر الفصيل الرابض، من التمر، وبقي بحاله.

من رواية دكين الأحمسي، ومن رواية جرير.

ومثله من رواية النعمان بن مقرن الخبر بعينه، إلا أنه قال: أربعمائة ركاب من مزينة.

ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه بعد موته، وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله، فلم يقبلوه، ولم يكن في تمرها سنين كفاف دينهم، فجاءه النبيﷺ بعد أن أمره

(١) صحيح: رواه البخاري في النكاح (٥١٦٣) باب الهدية للعروس (٩/ ١٣٤) ومسلم في النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب .
(٢) تقدم تخريجه .

بجدها، وجعلها بيادر فـي أصولها، فمشى فيها، ودعا، فـأوفى منه جابر غرماء أبيه، وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة[١].

وفي رواية مثل ما أعطاهم، قال: وكان الغرماء يهود، فعجبوا من ذلك.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أصـاب الناس مخمصة، فـقال لي رسول اللهﷺ: «هـل مـن شيء؟» قلت نعم، شـيء مـن التـمـر في المـزود. قـال: «**فأتني به**»، فأدخل يده فأخرج قبضة، فـبسطها ودعا بالبركة، ثم قال: «**ادع عشرة**». فأكلوا حتى شبعوا، ثم عشرة كذلك، حـتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا. قال: «**خذ ما جئت به، وأدخل يدك، واقـبض منه ولا تكبـه**». فقـبضت على أكـثر مما جئت به، فـأكلت منه وأطعمت حياة رسـول اللهﷺ، وأبي بكر، وعمر، إلى أن قتل عثمـان فانتهب مني، فذهب.

وفي رواية: فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا من وسق في سبيل الله[٢].

وذكرت مثل هذه الحكاية في غزوة تبوك، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة.

ومنه أيضًا حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع، فاستتبعه النبي ﷺ، فوجد لبنًا في قدح قد أهدي إليه، وأمـره أن يدعو أهل الصفة. قال: فقلت: مـا هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربة أتقوى بها. فدعوتهم.

وذكر أمر النبي ﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يأخذه الآخر حتى روي جمعيهم.

قال: فأخذ النبي ﷺ القدح، وقال: «**بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب**» شربت، ثم قال: «اشرب»، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا، فأخذ القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة[١].

وفي حديث خالد بن عبـد العزى أنه أجزر النبي ﷺ شاة، وكان عيال خـالد كثيرًا

(١) صحيح : رواه البخاري في الجهاد باب إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون (٥/ ١٢٣) .

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٣٩) باب مناقب لأبي هريرة رضي الله عنه (٥/ ٦٨٥) .

يذبح الشاة فلا تبد عياله عظمًا عظمًا، وإن النبي ﷺ أكل من هذه الشاة وجعل فضلتها في دلو خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا - ذكر خبره الدولابي.

وفي حديث الآجري في إنكاح النبي ﷺ لعليّ فاطمة - أن النبي، أمر بلالاً بقصعة من أربعة أمداد أو خمسة، ويذبح جزورًا لوليمتها - قال: فأتيته بذلك فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رفقة رفقة، يأكلون منها حتى فرغوا، وبقيت منها فضلة، فبرك فيها، وأمر بحملها إلى أزواجه، وقال: «**كلن وأطعمن من غشيكن**».

وفي حديث : أنس تزوج رسول الله ﷺ، فصنعت أمي أم سليم حيسًا، فجعلته في تور، فذهبت به إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**ضعه، وادع لي فلانًا وفلانًا، ومن لقيت**».

فدعوتهم، ولم أدع أحدًا لقيته إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «**تحلقوا عشرة عشرة**»، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي «ارفع»، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[1].

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح. وقد اجتمع على معنى حدث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا ينعد بعدهم.

وأكثرها في قصص مشهورة، ومجاميع مشهودة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها على ما أنكر منها.

الفصل السادس عشر

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٥١٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٤٤٦).
(٢) تقدم في تخريجه .

في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

حدثنا أحمد بن محمد بن غلبون الشيخ الصالح في ما أجازنيه عن أبي عمر الطلمنكي، عن أبي بكر بن المهندس، عن أبي القاسم البغوي، حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي، حدثنا أبو حيان التيمي - وكان صدوقًا - عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفره، فدنا منه أعرابي، فقال: «**يا أعرابي، أين تريد؟**» قال: إلى أهلي. قال: «**هل لك إلى خير؟**» قال: وما هو؟ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله». قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: «**هذه الشجرة السمرة، وهي بشاطئ الوادي، وادعها فإنها تجيبك**».

فأقلبت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهد ثلاثًا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: «**قل لتلك الشجرة رسول الله ﷺ يدعوك**».

قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله.

قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك .

قال: «**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**». قال: فأذن لي أن أقبل يديك ورجليك، فإذن له[1].

وفي الصحيح - في حديث جابر بن عبد الله الطويل: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين في شاطئ الوادي، فانطلق

(١) رواه الحاكم في المستدرك في البر والصلة باب حق الزوج على الزوجة (٤/ ١٧٢)، وقال =

رسول الله ﷺ إلى أحداهمـا، فأخذ بغصن من أغصانهـا، فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**»[١]، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده.

وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كان بالمنـصف بينهما قال: «التئما علي بإذن **الله**»، فالتأمتا.

وفي رواية أخرى: فـقال: «**يا جابـر، قل لهذه الشـجرة: يقـول لك رسول الله ﷺ: الحقي بصـاحبتك حـتى أجلس خلفكما**». ففعلت، فـرجعت حتى لحقت بصاحبـتها فجلس خـلفهمـا، فخـرجت أحضر، وجلست أحـدث نفسي، فـالتفت فـإذا برسول الله ﷺ مقبـلاً والشجرتان قد افـترقتا، فـقامت كل واحدة منهما عـلى ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة. فقال برأسه هكذا يمينا وشمالاً.

وروى أسامـة بن زيد نحـوه، قال: قال رسـول الله ﷺ في بعض مغـازيه: «**هل تعني مكانًا لحاجة رسول الله ﷺ؟** » فقلت : إن الوادي ما فيه موضع بالناس. فقال: «**هل ترى من نخل أو حجارة ؟** » قلت: أرى نخلات متقاربات. قال: «**انطلق وقل لهن: إن رسـول الله ﷺ يأمـركن أن تأتين لمخـرج رسـول الله ﷺ، وقل للحـجـارة مـثل ذلك**».

فقلت ذلك لهن، فوالذي بعـثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حـتى اجتمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركامًا خلفهن.

فلمـا قضى حـاجته قـال لي: «**قل لهن يفـترقن**»، فوالذي نـفسي بيده لرأيـتهن والحجارة - يفترقن حتى يعدن إلى مواضعهن.

وقـال يعلى بن سـيابة: كـنت مع النبي ﷺ في مـير . . و ذكـر نحـواً من هذين الحديثين، وذكر: فأمر وديتين فانضمتا. وفي رواية: أشاءتين[١].

= الحاكم هذا حـديث صحيح الإسناد ولم يخـرجاه وقال الذهبي: صـحيح قلت بل واه في إسناد صالح بن حبان متروك .

(١) صحيح : رواه مـسلم في الزهد باب حديث جابر (٤/٦ ٠ ٢٣). والبيـهقي في دلائل النبوة باب انقياد الشجر لنبينا محمد ﷺ (٦/٨).

وعن غيلان بن سلمة الثقفي مثله: في شجرتين.

وعن ابن مسعود، عن النبيﷺ مثله في غزاة حنين.

وعن يعلى بن مرة - وهو ابن سيابة - أيضًا، وذكر أشياء رآها من رسول اللهﷺ، فذكر أن طلحة أو سمرة جاءت فأطافت به، ثم رجعت إلى منبتها، فقال رسول اللهﷺ: «إنها استأذنت أن تسلم علي»(٢).

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: آذنت النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له - شجرة (٣).

وعن مجاهد، عن ابن مسعود في هذا الحديث: إن الجن قالوا: من يشهد لك؟ قال: «هذه الشجرة. تعالي يا شجرة»، فجاءت تجر عروقها لها قعاقع (٤).

وذكر مثل الحديث الأول أو نحوه.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابن عمر، وبريدة، وجابر، وابن مسعود، ويعلى ابن مرة، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، وعليّ بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهم - قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها.

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث هي.

وذكر ابن فورك أنهﷺ سار في غزوة الطائف ليلاً، وهو وسن، فاعترضته سدرة، فانفرجت له نصفيه حتي جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هناك معروفة معظمة.

ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه - أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ - ورآه حزينًا: أتحب أن أريك آية ؟ قال: «نعم». فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/١٧٣).

(٤) صحيح: رواه البخاري في الأذان باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ومسلم في الصلاة باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن.

(٥) تقدم تخريجه.

وراء الوادي، فقال: «**ادع تلك الشجرة**»، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه.

قال: «**مرها فلترجع**»، فعادت إلى مكانها [١].

وعن عليٍّ نحو هذا: ولم يذكر فيها جبريل، قال: «**اللهم أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها**»، فدعا شجرة [٢]... وذكر مثله.

وحزنه ﷺ لتكذيب قومه وطلبه الآية لهم لا له.

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ أرى ركانة مثل هذه الآية في شجرة دعاها فأتت حتى وقفت بين يديه، ثم قال: «**ارجعي**»، فرجعت[٣].

وعن الحسن أنه ﷺ شكا إلى ربه من قومه وأنهم يخوفونه، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه، فأوحى إليه أن ائت وادي كذا فيه شجرة، فادع غصنًا منها يأتك. ففعل، فجاء يخط الأرض خطًا حتى انتصب بين يديه، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «**ارجع كما جئت**»، فرجع، فقال: «**يا رب، علمت أن لا مخافة علي**».

ونحو منه عن عمر، وقال فيه: «**أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها...**»[٤] وذكر نحوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال لأعرابي: «**أرأيت**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور في التفسير (٢/ ١٥٤)، والحاكم في المستدرك في البر والصلة باب حق الزوج على الزوجة (٤/ ١٧٢) وقال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخرجاه قال الذهبي صحيح قلت: بل واه في إسناده صالح بن حبان متروك في هذه الرواية أي رواية الحاكم لم يذكر جبريل عليه السلام.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب مشى العذق الذي دعاه محمد ﷺ إليه حتى وقف بين يديه ثم رجوعه إلي مكانه بإذنه (٦/ ١٣).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب مشى العذق الذي دعاه النبي محمد ﷺ إليه حتى وقف بين يديه ثم رجوعه بإذنه (٦/ ١٤).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب مشي العذق الذي دعاه النبي محمد ﷺ إليه حتى وقف بين يديه ثم رجوعه إلى مكانه بإذنه (٦/ ١٣) ورواية البيهقي عن عمر.

إن دعـوت هذا العـذق من هذه النخلة أتشـهـد أني رسـول الله؟» قال: نعم، فـدعاه فجعل ينقر حتى أتاه. فقال: «**ارجع**»، فعاد إلى مكانه[١].

وخرجه الترمذي ، وقال: هذا حديث صحيح[٢] .

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب مشي العذق الذي دعاه النبي محمدﷺ إليه حتى وقف بين يديه ثم رجوعه إلى مكانه بإذنه (٦/ ١٦).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٨) باب في آيات إثبات نبوه النبيﷺ (٥/ ٥٩٤).

الفصل السابع عشر
في قصة حنين الجذع له ﷺ

ويعضد هذه الأخبار حديث أنين الجذع، وهو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قد خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة ، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث(١).

قال الترمذي: وحديث أنس صحيح(٢).

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفًا على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار(٣).

وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجد بخواره.

وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به.

وفي رواية المطلب [وأُبي]: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت.

زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «**إن هذا بكى لما فقد من الذكر**»(٤).

وزاد غيره: «**والذي نفسي بيده: لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة: تحزنًا**

(١) صحيح :رواه البخاري في بدء الخلق باب علامات النبوة (٤/ ٢٣٧) .
(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٧) باب في إثبات نبوة النبي ﷺ (٥/ ٥٩٤).
(٣) صحيح : رواه البخاري في بدء الخلق باب علامات النبوة (٤/ ٢٣٧) .
(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٣٠٠) .

على رسول الله ﷺ»، فأمر به ﷺ فدفن تحت المنبر(١).

كذا في حديث المطلب، وسهل بن سعد، وإسحاق، عن أنس.

[وفي بعض الروايات عن سهل: فدفنت تحت منبره، أو جُعلت في السقف].

وفي حديث أبي: فكان إذا صلى النبي ﷺ صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض، وعاد رفاتًا.

وذكر الإسفراييني أن النبي ﷺ دعاه إلى نفسه، فجاء يخرق الأرض، فالتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه.

وفي حديث بريد: فقال - يعني النبي ﷺ: **«إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة، فيأكل أولياء الله من ثمرك»**، ثم أصغى له النبي ﷺ يسمع ما يقول.

فقال: تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا أبلى فيه.

فسمع من يليه.

فقال النبي ﷺ: **«قد فعلت»**، ثم قال: **«اختار دار البقاء على دار الفناء»**.

فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

رواه - عن جابر- حفص بن عبيد الله، ويقال: عبيد الله بن حفص، وأيمن، وأبو نضرة، وابن المسيب، وسعيد بن أبي كرب، وكريب، وأبو صالح.

ورواه عن أنس بن مالك الحسن، وثابت، وإسحاق بن أبي طلحة.

ورواه عن ابن عمر: نافع، وأبو حية، ورواه أبو نضرة، وأبو الوداك، عن أبي سعيد، وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس، وأبو حازم، وعباس بن سهل، عن

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ذكر المنبر الذي اتخذ لرسول الله ﷺ وما ظهر عند وضعه وجلوس النبي ﷺ (٢/ ٥٥٨).

سهل بن سعد، وكثيـر بن زيد عن المطلب، وعبد الله بن بريدة عن أبيه، والطفيل بن أبي عن أبيه.

قال القـاضي أبو الفضل: فهـذا حديث كمـا تراه خرجه أهل الصـحة، ورواه من الصحابة من ذكرنا، وغيرهم من التـابعين ضعفهم، إلى من لم نذكره، وبمن دون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله المثبت على الصواب.

الفصل الثامن عشر
في سائز الجمادات

ومثل هذا في سائر الجمادات:

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن المرابط، حدثنا المهلب، حدثنا أبو القاسم، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا المروزي، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه(١).

وقال أنس: أخذ النبي ﷺ كفًا من حصى، فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن في يد أبي بكر رضي الله عنه فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن.

وروى مثله أبو ذر، وذكر أنهن سبحن في كف عمر وعثمان.

وقال عليّ كنا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله(٢).

وعن جابر بن سمرة عنه ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليَّ**»، قيل إنه الحجر الإسود(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٥٧٩) باب علامات النبوة في الإسلام (٦/ ٦٧٩) وأحمد في مسنده (١/ ٤٦٠).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٦) باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ (٥/ ٥٩٣) والبيهقي في دلائل النبوة باب مبتدأ البعث والتنزيل (٢/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٧) باب فضل نسب النبي ﷺ (٤ / ١٧٨٢)=

وعن عائشة رضي الله عنها: «**لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله**».

وعن جابر بن عبد الله: لم يكن النبيﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له[1].

وفي حديث العباس، إذ اشتمل عليه النبيﷺ وعلى بنيه بملاءة، ودعا لهم بالستر من النار كستره إياهم بملاءته، فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت: آمين آمين.

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه: مرض النبيﷺ، فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب، فأكل منه النبيﷺ، فسبح.

وعن أنس: صعد النبيﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، أحدًا، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق، وشهيدان**»[2].

ومثله عن أبي هريرة في حراء، وزاد معه: عليٌّ وطلحة، والزبير، وقال: «**فإنما عليك نبي، أو صديق، أو شهيد**»[3].

والخبر في حراء أيضًا عن عثمان، قال: ومعه عشر من أصحابه أنا فيهم. وزاد عبد الرحمن وسعدًا، قال: ونسيت الاثنين.

وفي حديث سعيد بن زيد أيضًا مثله، وزاد عشرة، وزاد نفسه.

وقد روي أنه حين طلبته قريش قال له ثبير: اهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله.

= والترمذي في المناقب (٣٦٢٤) باب في إثبات نبوة النبيﷺ (٥/ ٥٩٣)، والبيهقي في دلائل النبوة باب مبتدأ البعث والتنزيل (٢/ ١٥٣).

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب مبتدأ البعث والتنزيل وما ظهر عند ذلك من تسليم الحجر والشجر (٢/ ١٥٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما وأبو داود في السنة (٤٦٥١) باب في الخلفاء والنسائي في المناقب باب طلحه بن عبيد الله رضي الله عنه وأحمد في مسنده (٥/ ٣٣١).

(٣) تقدم تخريجه.

فقال حراء: إليّ يا رسول الله.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيﷺ قرأ على المنبر: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[الأنعام/ ٩١]، ثم قال: «**يمجد الجبار نفسه، أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الكبير المتعال**»، فرجف المنبر حتى قلنا: ليخرن عنه(١).

وعن ابن عباس: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة، فلما دخل رسول اللهﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها، ويقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[الإسراء/ ٨١]، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم(٢).

ومثله في حديث ابن مسعود، وقال: فجعل يطعنها ويقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**﴾(٣) [سبأ/ ٤٩].

ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره، إذ خرج تاجرًا مع عمه، وكان الراهب لا يخرج لأحد، فخرج وجعل يتخللهم، حتى أخذ بيد رسول اللهﷺ، فقال: هذا سيد العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك، فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدًا له، ولا تسجد إلا لنبي . . وذكر القصة، ثم قال: فأقبلﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال الفيء إليه(٤).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٧٢، ٨٨).

(٢) رواه البخاري في الغزوات باب غزوة الفتح (٥/ ١٨٨) ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١) باب إزالة الأصنام من حول الكعبة

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٢٠) باب ما جاء في بدء نبوة النبيﷺ (٥/ ٥٩٠).

الفصل التاسع عشر
في الآيات في ضروب الحيوانات

حدثنا سراج بن عبد الملك، [حدثنا] أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاصي يونس، قال: حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، من أبيه وجده، قالا: حدثنا أبو العلاء أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مجاهد، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قروثبت مكانه، فلم يجئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب.

وروي عن عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضبًا، فقال: ما هذ؟ قالوا: نبي الله، فقال: واللات والعزى، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**يا ضب**»، فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعًا: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة.

قال: «**من تعبد؟**» قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه.

قال: «**فمن أنا؟**» قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك.

فأسلم الأعرابي(١).

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري:

بينا راع يرعى غنمًا له عرض الذئب لشاة منها، فأخذها الراعي منهم فأقعى الذئب، وقال الراعي: ألا تتقي الله! حلت بيني وبين رزقي!.

قال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسول الله بين الحرتين يحدث الناس بأنباء مد قد سبق.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في شهادة الضب لنبينا محمد ﷺ بالرسالة (٦/٣٦، ٣٧، ٣٨).

فأتى الراعي النبيﷺ فأخبره، فقال النبي: «**قم فحدثهم**»، ثم قال: «**صدق**»[(١)].

والحديث فيه قصة، وفي بعضه طول.

وروي حديث الذئب عن أبي هريرة.

وفي بعض الطرق عن أبي هريرة رضي الله عنه، فقال الذئب: أنت أعجب! واقفًا على غنمك، وتركت نبيًا لم يبعث الله نبيًا قط أعظم منه عنده قدرًا، قد فتحت له أبواب الجنة، وأشرف أهلها على أصحابه، ينظرون قتالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتصير من جنود الله.

قال الراعي: من لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع.

فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى.

وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له النبي ﷺ: «**عد إلى غنمك تجدها بوفرها**».

فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها[(٢)].

وعن أهبان بن أوس: وأنه كان صاحب القصة، والمحدث بها، ومكلم الذئب[(٣)].

وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع: وأنه كان صاحب [هذه] القصة أيضًا، وسبب إسلامه بمثل حديث أبي سعيد.

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، مع ذئب وجداه أخذ ظبيًا، فدخل الظبي الحرم، فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك، فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٨٣، ٨٤) والبيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في كلام الذئب وشهادته لنبينا محمد ﷺ بالرسالة (٦/ ٤١).

(٢) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٩٤).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب في كلام الذئب وشهادته لنبينا محمد ﷺ بالرسالة (٦/ ٤٣).

فقال أبو سفيان: واللات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفًا.

وقد روي مثل هذا الخبر، وأنه جرى لأبي جهل وأصحابه.

وعن عباس بن مرداس لما تعجب من كلام ضمار صنمه، وإنشاده الشعر الذي ذكر فيه النبيﷺ، فإذا طائر سقط، فقال: يا عباس، أتعجب من كلام ضمار، ولا تعجب من نفسك؟ إن رسول اللهﷺ يدعو إلى الإسلام وأنت جالس، فكان سبب إسلامه.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رجل أتى النبيﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان في غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله، كيف بالغنم؟ قال: «**احصب وجوهها، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ويردها إلى أهلها**»[١].

ففعل، فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها.

وعن أنس رضي الله عنه: دخل النبيﷺ حائط أنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار رضي الله عنهم، وفي الحائط غنم فسجدت له. فقال أبو بكر: نحن أحق بالسجود لك منها[٢]... الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: دخل النبيﷺ حائطًا، فجاء بعير فسجد له[٣]، وذكر مثله.

ومثله في الجمل - عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله - ويعلى بن مرة، وعبد الله بن جعفر، وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في قصة العبد الأسود الذي أسلم يوم خيبر (٤/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) وذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٩٣) وطرق الحديث (لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد)

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ذكر البعير الذي سجد للنبيﷺ وأطاع أهله (٦/ ٢٨).

النبيﷺ دعاه، فوضع مشفره، على الأرض، وبرك بين ديه، فخطمه، وقال: **«ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس»**[(١)].

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبيﷺ سألهم عن شأنه، فاخبروه أنهم أرادوا ذبحه.

وفي رواية أن النبيﷺ قال لهم: «إنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف من صغره»، فقالوا: نعم[(٢)].

وقد روي في قصة العضباء وكلامها النبيﷺ، وتعريفها له بنفسها، ومبادرة العشب إليها في الرعي، وتجنب الوحوش عنها، وندائهم لها: إنك لمحمد، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت.

ذكره الإسفراييني.

وروى ابن وهب، أن حمام مكة أظلت النبيﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.

وروى عن أنس، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة - أن النبيﷺ قال ليلة الغار: **«أمر الله شجرة، فنبتت تجاه النبيﷺ فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا بفم الغار»**.

وفي حديث آخر: وأن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطالبون له، ورأوا ذلك قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، والنبي، سمع كلامهم، فانصرفوا.

وعن عبد الله بن قرط: قرب إلى رسول اللهﷺ بدنات خمس أو ست أو سبع، لينحرها يوم عيد، فازدلفن إليه بأيهن يبدأ.

وعن أم سلمة: كان النبيﷺ في صحراء، فنادته ظبية، يا رسول الله. قال: **«ما حاجتك؟»** قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ذكر البعير الذي سجد للنبيﷺ وأطاع أهله بعدما امتنع عليهم ببركته (٦/ ٣٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٧٣).

قال: «**وتفعلين؟**» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله، ألك حاجة؟ قال: «**تطلق هذه الظبية**». فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله[١].

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ، إذ وجهه إلى معاذ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك.

وفي رواية أخرى عنه - أن سفينة تكسرة به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى آقامني على الطريق[٢].

وأخذ - عليه السلام - بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعيه، ثم خلاها فصار لها ميسمًا، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد.

وما روي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الحمار الذي أصابه بخيبر، وقال له: اسمي يزيد بن شهاب.

فسماه النبي ﷺ يعفورًا، وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأسه، ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر جزعًا وحزنًا، فمات.

وحديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنه ملكه.

وفي العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاثمائة، فحلبها رسول الله ﷺ، فأروى الجند، ثم قال لرافع: «**أملكها وما أُراك**». فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها**».

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في كلام الظبية (٦/ ٣٥).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في تسخير الله عز وجل الأسد [لسفينة] مولى رسول الله ﷺ كرامة لرسول الله ﷺ وما روى في معناه (٦/ ٤٥).

وقال لفرسه - عليه السلام- وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره: «**لا تبرح، بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا**»، وجعله قبلته، فما حرك عضواً حتى صلى ﷺ.

[ويلتحق بهذا ما رواه الواقدي - أن النبيﷺ لما وجه رسله إلى الملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثهم إليهم].

والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور، وما وقع في كتب الأئمة.

الفصل العشرون
في إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

حدثنا أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد محمد ابن رشد، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، وغير واحد سماعًا وإذنًا، قالوا: حدثنا أبو عليّ الحافظ، [قال] حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن الأعرابي ... حدثنا أبو داود، حدثنا وهب بن بقية، عن خالد - هو الطحان -، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه - أن يهودية أهدت للنبيﷺ بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل رسول اللهﷺ منها، وأكل القوم، فقال: «**ارفعوا أيديكم، فإنما أخبرتني أنها مسمومة**».

فمات بشر بن البراء.

وقال لليهودية: «**ما حملك على ما صنعت؟**» قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك[1].

قال: فأمر بها فقتلت.

وقد روى هذا الحديث أنس، وفيه: قالت: أردت قتلك. فقال: «**ما كان الله ليسلطك على ذلك**». فقالوا: نقتلها؟ قال: «**لا**».

وكذلك روي عن أبي هريرة - من رواية غير وهب، قال: فما عرض لها.

ورواه أيضًا جابر بن عبد الله، وفيه: «**أخبرتني هذه الذراع**» - قال: ولم يعاقبها.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الهبة (٢٦١٧) باب قبول الهدية من المشركين (٥/ ٣٧٢) ومسلم في السلام (٢١٩٠) باب السم (٤/ ١٧٢١) وأبو داود في الديات (٤٥١٠) باب فيمن سقى رجلاً سمًا أو أطعمه فمات أيقاد منه (٤/ ١٧٢).

وفي رواية الحسن: «**إن فخذها تكلمني أنها مسمومة**».

وفي رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن قالت: إني مسمومة].

وكذلك ذكر الخبر ابن إسحاق، وقال فيه: فتجاوز عنها.

وفي الحديث الآخر، عن أنس، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال- في وجعه الذي مات فيه: «**ما زالت أكلة خيبر تعادني، فالآن أوان قطعت أبهري**»[١].

وحكى ابن إسحاق: إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التي سمته.

وقد ذكرنا اختلاف الروايات في ذلك عن أبي هريرة، وأنس، وجابر.

[وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما - أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها.

وكذلك قد اختلف في قتله للذي سحره، قال الواقدي: وعفوه عنه أثبت عندنا.

وروي عنه أنه قتله].

وروى الحديث البزار، عن أبي سعيد، فذكر مثله، إلا أنه قال في آخره: فبسط يده وقال: «**كلوا بسم الله**»، فأكلنا، وذكر اسم الله، فلم تضر منا أحدًا[٢].

قال القاضي أبو الفضل، وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح، وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور.

واختلف أئمة النظر في هذا الباب، فمن قائل يقول: هو كلام يخلقه الله تعالى في الشاة الميتة، والحجر، أو الشجر، وحروف وأصوات يحدثها الله فيها، ويسمعها منها دون تغيير أشكالها، ونقلها عن هيئتها.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الهبة (٢٦١٧) باب قبول الهدية من المشركين (٤/ ١٧٢)، ومسلم في السلام (٢١٩٠) باب السلم (٤/ ١٧٢١) وأبو داود في الديات (٤٥١٠) باب فيمن سقى رجلاً سمًا أو أطعمه فمات أيقاد منه (٤/ ١٧٢).

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٦) وعزاه إلى البزار ورجاله ثقات .

وهو مذهب الشيخ أبي الحسن، والقاضي أبي بكر رحمهما الله.

وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها، ثم الكلام بعده.

وحُكي هذا أيضًا عن شيخنا أبي الحسن، وكل محتمل، والله أعلم، إذ لم تجعل الحياة شرطًا لوجود الحروف والأصوات، إذ لا يستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردها. فأما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسي فلابد من شرط الحياة لها، إذ لا يوجد كلام النفس إلا من حي، خلافًا للجبائي من بين سائر متكلمي الفرق في إحالة وجود الكلام اللفظي والحروف والأصوات إلا من حي مركب على تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات.

والتزم ذلك في الحصى، والجذع، والذراع، وقال: إن الله خلق فيها حياة، وخرق لها فمًا - ولسانًا، وآلة أمكنها بها من الكلام.

وهذا لو كان لكان نقله و التهمم به آكد من التهمم بنقل تسبيحه أو حنينه، ولم ينقل أحد من أهل السير والرواية شيئًا من ذلك، فدل على سقوط دعواه، مع أنه لا ضرورة إليه في النظر، والموفق الله.

وروى وكيع - رفعه عن فهد بن عطية - أن النبيﷺ أتي بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال: «من أنا؟» فقال: رسول الله.

وروي عن معرض بن معيقيب: رأيت من النبيﷺ عجبًا، جيء بصبي يوم ولد... فذكر مثله.

وهو حديث مبارك اليمامة، ويعرف بحديث شاصونة: اسم راويه، وفيه:

فقال له النبيﷺ: «**صدقت، بارك الله فيك**»[(١)].

ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى مبارك اليمامة.

وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع.

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٩٥) وذكره الهندي في كنز العمال (٣٥٤٠١).

وعن الحسن: أتى رجل النبيﷺ، فذكر أنه طرح بنية له في وادي كذا، فانطلق معه إلى الوادي، وناداها باسمها: «**يا فلانة، أجيبي بإذن الله**»، فخرجت وهي تقول: «**لبيك وسعديك**»! فقال لها: «**إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما**»؟ قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيرًا منهما.

وعن أنس أن شابًا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجيناه، وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم. قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن عليَّ هذه المصيبة.

فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا.

وروي عن عبد الله بن عبيد الله الأنصاري: كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس، وكان قتل باليمامة، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان البر الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت.

وذكر عن النعمان بن بشير أن زيد بن خارجة خر ميتًا في بعض أزقة المدينة، فرفع وسجي إذا سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول: أنصتوا، أنصتوا، فحسر عن وجهه، فقال: محمد رسول الله، النبي الأمي، وخاتم النبيين، وكان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق، صدق، وذكر أبا بكر، وعمر، وعثمان، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتًا كما كان.

الفصل الحادي والعشرون
في إبراء المرضى وذوي العاهات

أخبرنا أبو الحسين عليّ بن مشرف في ما أجازينه وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الجبال، [قال]: حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الورد، عن البرقي، عن ابن هشام، عن زياد البكائي، عن محمد بن إسحاق، حدثنا ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بقضية أحد بطولها، قال: وقالوا: قال سعد ابن أبي وقاص: إن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له، فيقول: «ارم به»، وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت، وأصيب يومئذ عين قتادة - يعني ابن النعمان- حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه.

وروى قصة قتادة عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن عياض بن عمر بن قتادة.

ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة.

وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد، قال: فما ضرب عليّ ولا قاح.

وروى النسائي، عن عثمان بن حنيف - أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف لي عن بصري.

قال: «**فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد بنبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعة فيّ**» (١).

قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٨) باب في دعاء الضيف (٥/ ٥٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥) باب ما جاء في صلاة الحاجة وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٨).

وروى أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء، فبعث إلى النبي ﷺ، فأخذ بيده حثوة من الأرض، فتفل عليها، ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجبًا، يرى أن قد هزئ به، فأتاه بها، وهو على شفا، فشربها، فشفاه الله.

وذكر العقيلي، عن حبيب بن فديك، ويقال فريك - أن أباه ابيضت عيناه، فكان لا يبصر بهما شيئًا، فنفث رسول الله، في عينيه، فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة، وهو ابن ثمانين (١).

ورمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره، فبصق رسول الله ﷺ فيه، فبرأ.

وتفل على شجَّة عبد الله بن أنيس فلم تُمد.

وتفل في عيني عليّ يوم خيبر، وكان رمدًا، فأصبح بارئًا (٢).

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت، وفي رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب، حين قتل ابن الأشرف، فبرئت. وعلى ساق عليّ ابن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت، فبرئ مكانه، وما نزل عن فرسه (٣).

واشتكي عليّ بن أبي طالب، فجعل يدعو، فقال النبيﷺ: «**اشفه**»، أو «**عافه**»، ثم ضرب برجله، فما اشتكى ذلك الوجع بعد (٤).

وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء، فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول اللهﷺ، وألصقها فلصقت. رواه ابن وهب.

ومن روايته أيضًا أن خبيب بن يساف أصيب يوم بدر مع رسول اللهﷺ بضربة

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في نفثه في عينين كانتا مبيضتين لا يبصر صاحبهما بهما حتى أبصر (٦/ ١٧٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الغزوات باب غزوة خيبر (٥/ ١٧١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٨٠٦) باب غزوة ذي قرد وغيرها (٣/ ١٤٤١).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الغزوات باب غزوة خيبر (٥/ ١٧٠).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في دعائه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولغيره بالشفاء (٦/ ١٧٣).

على عاتقه حتى مال شقه، فرده رسول الله ﷺ، ونفث عليه حتى صح.

وأتته امرأة من خثعم، معها صبي به بلاء لا يتكلم، فأتي بماء فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه، وأمرها بسقيه ومسه به، فبرأ الغلام، وعقل عقلاً يفضل عقول الناس.

وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره، فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود، فشفي (١).

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل، فمسح عليه ودعا له، وتفل فيه فبرأ لحينه (٢).

وكانت في كف شرحبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها، ولم يبق لها أثر (٣).

وسألته جارية طعامًا، وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه، ولم يكن يسأل شيئًا فيمنعه.

فلما استقر في جوفها ألقي عليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٥٤).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب في نفثه ﷺ في يد محمد بن حاطب وقد احترقت حتى برئت (٦/ ١٧٤).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في نفثه في كف شرحبيل الجعفي ووضع كفه على السلعة (٦/ ١٧٦).

الفصل الثاني والعشرون

في إجابة دعائهﷺ

وهذا باب واسع جدًا، وإجابة دعوة النبيﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: كان رسول اللهﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده.

حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قال: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له. قال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له في ما آتيته**» (١).

ومن رواية عكرمة: قال أنس: فوالله، إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون اليوم على نحو المائة (٢).

وفي رواية: وما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي، لا أقول سقطًا ولا ولد ولد.

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا (٣)، وفتح الله عليه، ومات فحفر الذهب من تركته

(١) صحيح: رواه البخاري في الدعوات باب قول الله تبارك وتعالى «وصل عليهم» والدعوات باب دعوة النبيﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠) باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه (٤/ ١٩٢٩).

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠) باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه (٤/ ١٩٢٩).

(٣) رواه أبو داود في النكاح (٢١٠٩) باب قلة المهر (٢/ ٢١٦)، والبيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في دعائهﷺ لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بالبركة (٦/ ٢١٩).

بالفئوس حتى مجلت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفًا وكن أربعًا.

وقيل مائة ألف. وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفًا، وأوصى بخمسين ألفًا بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة: أعتق يومًا ثلاثين عبدًا، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير، وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها، وبأقتابها وأحلاسها.

ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة، ولسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يجيب الله دعوته، فما دع على أحد إلا استجيب له.

ودعا بعز الإسلام بعمر رضي الله عنه، أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر [١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله عمر الدعاء، فدعا، فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم، ثم أقلعت.

ودعا في الاستسقاء، فسقوا، ثم شكوا إليه المطر، فدعا، فصحوا [٢].

[وقال لأبي قتادة: «**أفلح وجهك، اللهم بارك له في شعره وبشره**»، فمات وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة] [٣].

وقال للنابغة: «**لا يفضض الله فاك**»، فما سقطت له سن [٤].

وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغرًا، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل: أكثر من هذا.

---

(١) رواه الترمذي في المناقب (٣٦٨١) باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥/ ٦١٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الجمعة باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (٢/ ٣٣) ومسلم في صلاة الاستسقاء باب الدعاء في الاستسقاء (٢/ ٦١٢، ٦١٥).

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما روي في شأن قتادة بن ملحان وما ظهر على وجهه ببركة مسح النبيﷺ إياه من النور (٦/ ٢١٧).

(٤) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٤٨٠، ٤٨١).

ودعا لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[١]. فسمي بعد الحبر وترجمان القرآن.

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه، فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه.
ودعا للمقداد بالبركة، فكانت عنده غرائر المال.

ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد، فقال: فلقد كنت أقوم بالكناسة، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفًا.

وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب ربح فيه.

وروي مثل هذا لغرقدة أيضًا.

وندت له ناقة، فدعا فجاءه بها إعصار ريح، حتى ردها عليه.

ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت[٢].

ودعا لعليٍّ أن يكفى الحر والقر، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد.

ودعا لفاطمة ابنته الله ألا يجيعها، قالت: فما جعت بعد.

وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومة، فقال: «**اللهم نور له**»، فسطع نور بين عينيه، فقال: أخاف أن يقولوا: مُثلة، فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمي ذا النور.

ودعا على مضر فأقحطوا، حتي استعطفته قريش، فدعا لهم فسقوا.

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا[٣].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧) باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٤/ ١٩٢٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩١) باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه (٤/ ١٩٣٨).

(٤) صحيح: رواه البخاري في النبيﷺ إلى كسرى وقيصر (٦/ ١٠).

ودعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله أثره، فأقعد.

وقال لرجل رآه يأكل بشماله: «**كل بيمينك**». فقال: «**لا أستطيع**». فقال: «لا استطعت». فلم يرفعها إلى فيه [١].

وقال لعتبة بن أبي لهب: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**»، فأكله الأسد [٢]. [وقال لامرأة: «**أكلك الأسد**». فأكلها].

وحديثه المشهور، من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في دعائه على قريش حين وضعوا السلا على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدم، وسماهم. قال: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر [٣].

ودعا على الحكم بن أبي العاص، وكان يختلج بوجهه، ويغمز عند النبي ﷺ، أي لا، فرآه، فقال: «**كذلك كن**»، فلم يزل يختلج إلى أن مات [٤].

ددعى على محلم بن جثامة فمات لسبع، فلفظته الأرض، ثم ووري فلفظته مرات، فألقوه بين صدين، ورضموا عليه بالحجارة.

والصد: جانب الوادي.

وجحده رجل بيع فرس - وهي التي شهد فيها خزيمة للنبيﷺ، فرد الفرس بعد النبي ﷺ على الرجل، وقال: «**اللهم إن كان كاذبًا فلا تبارك له فيها**». فأصبحت شاصية برجلها، أي رافعة.

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الأشربة (٢٠٢١) باب آداب الطعام والشراب وأحكامها (٣/ ١٥٩٩).

(٢) صحيح: رواه البخاري في (٤/ ٣٩) والقرطبي في تفسير (١٧/ ٨٢) .

(٤) صحيح: رواه البخاري في فضل الجهاد والسير باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٤/ ٥٣).

(٥) رواه البيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في دعائه ﷺ على من أكل بشماله ودعائه على من كان يختلج بوجهه وغيرهما (٦/ ٢٤٠).

الفصل الثالث والعشرون

في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له في ما لمسه أو باشره

أخبرنا أحمد بن محمد، حدثنا أبو ذر الهروي، إجازة، حدثنا القاضي أبو عليّ سماعًا، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن وغيرهما، قالوا: حدثنا أبو الوليد القاضي، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو إسحاق، وأبو الهيثم، قالوا: حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه - أن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة كان يقطف، أو به قطاف. وقال غيره: يبطأ، فلما رجع قال: «**وجدنا فرسك بحرًا**» (١)، فكان بعد لا يجارى.

ونخس جمل جابر، وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يملك زمامه (٢).

وصنع مثل ذلك بفرس لجعيل الأشجعي، خفقها بمخفقة معه، وبرك عليها، فلم يملك رأسها نشاطًا، وباع من بطنها باثني عشر ألفًا.

[وركب حمارًا قطوفًا لسعد بن عبادة فرده هملاجًا لا يساير].

وكانت شعرات من شعره في قلنسوة خالد بن الوليد، فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر.

وفي الصحيح - عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها - أنها أخرجت جبة طيالسة، وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها (٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري في فضل الجهاد باب الفرس القطوف (٤/ ٣٧) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٧) باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب (٤/ ١٨٠٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الشروط باب إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى جاز ومسلم في المساقاة (١١٢) باب بيع البعير واستثناء ركوبه (٣/ ١٢٢٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٩) باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال و النساء (٣/ ١٦٤١).

وحدثنا القاضي أبو علي، عن شيخه أبي القاسم بن المأمون: قال: وكانت عندنا قصعة من قصاع النبيﷺ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى، فيستشفون بها.

وأخذ جهجاه الغفاري القضيب من يد عثمان رضي الله عنه ليكسره على ركبته، فصاح الناس به، فأخذته فيها الآكلة فقطعها، ومات قبل الحول.

وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء فما نزفت بعد.

وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن بالمدينة أعذب منها.

ومر على ماء، فسأل عنه، فقيل له: اسمه بيسان، وماؤه ملح، فقال: «بل هو نعمان وماؤه طيب». فطاب.

وأتي بدلو من ماء زمزم، فمج فيه، فصارت أطيب من المسك.

وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه، وكان يبكيان عطشًا، فسكتا.

وكان لأم مالك عكة تهدي فيها للنبي ﷺ سمنًا، فأمرها النبي ﷺ ألا تعصرها، ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءة سمنًا، فيأتيها بنوها يسألونها الأدم، ليس عندهم شيء، فتعمد إليها، فتجد فيها سمنًا، فكانت تقيم أدمها حتى عصرتها [(١)].

وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزئهم ريقه إلى الليل.

ومن ذلك بركة يده في ما لمسه وغرسه، ولسلمان رضي الله عنه حين كاتبه مواليه على ثلاثمائة ودية يغرسها لهم، كلها تعلق وتطعم. وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقام ﷺ وغرسها له بيده إلا واحدة غرسها غيره، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي ﷺ وردها، فأخذت.

وفي كتاب البزار: فأطعم النخل من عامه إلا الواحدة، فقلعها رسول الله ﷺ وغرسها فأطعمت من عامها.

وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه، فوزن منها لمواليه

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الأشربة (٢٠٤٠) باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه (١٦١٢/٣).

أربعين أوقية، وبقي عنده مثل ما أعطاهم.

وفي حديث حنش بن عقيل: سقاني رسول الله ﷺ شربة من سويق شرب أولها وشربت آخرها، فما برحت أجد شبعها إذا جعت، وريها إذا عطشت، وبردها إذا ظمئت.

وأعطى قتادة بن النعمان، وصلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة - عرجونًا، وقال: «**انطلق به، فإنه سيضيء لك من يديك عشرًا ومن خلفك عشرًا، فإذا دخلت بيتك فسترى سوادًا فاضربه حتى يخرج، فإنه الشيطان**».

فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته، ووجد السواد فضربه حتى خرج [1].

ومنه دفعه لعكاشة جدل حطب، وقال: «اضرب به» حين انكسر سيفه يوم بدر، فعاد في يده سيفًا صارمًا، طويل القامة، أبيض، شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد في قتال أهل الردة.

وكان هذا السيف يسمى «العون».

ودفعه لعبد الله بن جحش يوم أحد، وقد ذهب سيفه - عسيب نخل، فرجع في يديه سيفًا.

ومنه بركته في درور الشياه الحوائل باللبن الكثير، كقصة شاة أم معبد، وأعنز معاوية بن ثور، وشاة أنس، وغنم حليمة مرضعته وشارفها، وشاة عبد الله بن مسعود، وكانت لم ينز عليها فحل، وشاة المقداد.

ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكأه، ودعا فيه، فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلوه، فإذا به لبن طيب وزبدة في فمه - من رواية حماد بن سلمة.

ومسح على رأس عمير بن سعد، وبرك، فمات وهو ابن ثمانين، فما شاب.

وروي مثل هذه القصص عن غير واحد، منهم السائب بن يزيد، ومدلوك.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٦٥).

وكان يوجد لعتبة بن فرقد طيب يغلب طيب نسائه، لأن رسول الله، مسح بيده على بطنه وظهره.

وسلت الدم عن وجه عائذ بن عمرو، وكان خرج يوم حنين، ودعا له، فكانت له غرة كغرة الفرس.

ومسح على رأس قيس بن زيد الجذامي، ودعا له، فهلك وهو ابن مائة سنة، ورأسه أبيض، وموضع كف النبيﷺ وما مرت يده عليه من شعره أسود، فكان يدعى الأغر.

وروي مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهني.

ومسح وجه آخر، فما زال على وجهه نور.

ومسح وجه قتادة بن ملحان، فكان لوجهه بريق حتى كان ينظر في وجهه كما ينظر في المرآة.

ووضع يده على رأس حنظلة بن حذيم، وبرك عليه، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه، والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبيﷺ فيذهب الورم.

ونضح في وجه زينب بنت أم سلمة نضحة من ماء، فما يعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما بها.

ومسح على رأس صبي به عاهة، فبرأ، واستوى شعره، وعلى غير واحد من الصبيان والمرضى والمجانين، فبرءوا.

وأتاه رجل به أدرة، فأمره أن ينضحها بماء من عين مج فيها، ففعل، فبرأ.

وعن طاوس: لم يؤت النبيﷺ بأحد به مس فصك في صدره إلا ذهب.

والمس: الجنون.

ومج في دلو من بئر، ثم صب فيها[1]، ففاح منها ريح المسك.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣١٥).

وأخذ قبضة من تراب يوم حنين، ورمى بها في وجوه الكفار، وقال: شاهت الوجوه، فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم.

[وشكا إليه أبو هريرة رضي الله عنه النسيان، فأمره ببسط ثوبه، وغرف بيده فيه: ثم أمره بضمه، ففعل، فما نسي شيئًا بعد.

وما يروى عنه في هذا كثير.

وضرب صدر جرير بن عبد الله، ودعا له، وكان ذكر له أنه لا يثبت على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم.

ومسح على رأس عبد الله بن زيد بن الخطاب وهو صغير، وكان دميمًا، ودعا له بالبركة، ففرع الرجال، طولاً وتمامًا.

الفصل الرابع والعشرون
ما أطلع عليه من الغيوب

ومن ذلك ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون. والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا ينزف غمره.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر، لكثرة رواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع علي الغيب:

حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري إجازة، وقرأته على غيره: قال أبو بكر: حدثنا أبو علي التستري، حدثنا أبو عمر الهاشمي، حدثنا اللؤلؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[(١)].

ثم قال حذيفة: ما أدرى، أنسي أصحابي أم تناسوه. والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سماه لنا باسمه، واسم أبيه، وقبيلته.

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء، إلا ذكرنا منه علمًا[(٢)].

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ مما وعدهم به من الظهور

(١) صحيح: رواه البخاري في القدر باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٩١) باب إخبار النبي ﷺ في ما يكون إلى قيام الساعة (٤/ ٢٢١٧).
(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٣).

على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله. وأن المدينة ستغزى وتفتح خيبر[١] على يدي عليّ في غد يومه[٢]، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة، وأنها ستكون لهم أنماط، ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرى، وتوضع بين يديه صحفة، وترفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة.

ثم قال آخر الحديث: «**وأنتم اليوم خير منكم يومئذ**»، وأنهم إذا مشوا المطيطاء وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم على خيارهم.

وقتالهم الفرس، والخزر، والروم، وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده[٣].

وذكر أن الروم ذات قرون إلى آخر الدهر.

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس، وتقارب الزمان، وقبض[٤] العلم، وظهور الفتن، والهرج[٥].

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الحج (٤٩٨) باب الترغيب في المدينة حين يتركها أهلها (١٠٠٩/٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الجهاد والسير باب غزوة خيبر (١٧١/٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٤) باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١٨٧٠/٤) والترمذي في المناقب (٣٧٢٤) باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٦٣٨/٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٨) باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمني أن يكون ميت من البلاء (٢٢٣٧/٤).

(٤) صحيح: رواه البخاري في العلم باب كيف يقبض العلم (٣٦/١)، ومسلم في العلم (١٥٧) باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٣٠٥٧/٤)، والترمذي في العلم (٢٦٥٢) باب ما جاء في ذهاب العلم (٣١/٥).

(٥) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما.

وقال: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**»[١].

وأنه زويت[٢] له الأرض فأري مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها.

وكذلك كان، امتدت في المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

وقوله: «**لا يزال أهل العرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة**»[٣] - ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب، لأنهم المختصون بالسقي بالغرب - وهي الدلو. وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه.

وفي حديث آخر، من رواية أبي أمامة: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، قاهرين لعدوهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**».

قيل: يا رسول الله، وأين هم، قال: «**ببيت المقدس**»[٤].

وأخبر بملك بني أمية، وولاية معاوية، ووصاه، واتخاذ بني أمية مال الله دولاً، وخروج ولد العباس بالرايات السود[٥]، وملكهم أضعاف ما ملكوا، وخروج[٦] المهدي، وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم، وقتل عليّ، وأن أشقاها الذي

(١) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج (٤/١٦٨) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٢٨٠) باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/٢٢٠٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/٢٢١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠) باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم (٣/١٥٢٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠) باب لا تزال طائفه من أمتي ظاهرين على الحق (٣/١٥٢٣)، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩) باب ما جاء في الأئمة المضلين (٤/٥٠٤) وأحمد في مسنده (٥/٢٦٩).

(٥) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦٩) (٤/٥٣١).

(٦) رواه أبو داود في المهدي (٤٢٨٤) (٤/١٠٤)، والترمذي في الفتن (٢٢٣٠) باب ما جاء في المهدي (٤/٥٠٥).

يخضب هذه من هذه، أي لحيته من رأسه، وأنه قسيم النار[١]، يدخل أولياؤه النار، فكان فيمن عاداه الخوارج والناصبة، وطائفة ممن ينسب إليه من الروافض كفروه.

وقال: «يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف»، وأن الله عسى أن يلبسه قميصًا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه على قوله: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة/ ١٣٧]، وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حيًا.

وبمحاربة الزبير لعليّ وبنباح كلاب الحوأب على بعض أزواجه، وأنه يقتل حولها قتلى كثير، وتنجو بعد ما كادت، فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة. وأن عمارًا تقتله الفئة الباغية، فقتله أصحاب معاوية[٢].

وقال لعبد الله بن الزبير: «**ويل للناس منك، وويل لك من الناس**»[٣].

وقال في قزمان - وقد أبلى مع المسلمين: «إنه من أهل النار»، فقتل نفسه.

وقال - في جماعة فيهم أبو هريرة، وسمرة بن جندب، وحذيفة: «**آخركم موتًا في النار**»[٤]، فكان بعضهم يسأل عن بعض، فكان سمرة أخرهم موتًا، هرم وخرف، فاصطلى بالنار فاحترق فيها.

[وقال في حنظلة الغسيل: «**سلوا زوجته عنه، فإني رأيت الملائكة تغسله**»، فسألوها فقالت: إنه خرج جنبًا، وأعجله الحال عن الغسل.

قال أبو سعيد رضي الله عنه: وجدنا رأسه يقطر ماء.

وقال: «**الخلافة في قريش**»[٥].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١/ ٩١).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٦) باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمني أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٦).

(٣) ذكره الدارقطني في السنن (١/ ٢٢٨).

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩٠) وعزاه إلى الطبراني وأوس بن خالد لم يرو عنه غير علي بن زيد وفيها كلام وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٢٧) باب ما جاء أن الخلفاء من قريش إلي تقوم الساعة (٤/ ٥٠٣).

«**ولن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين**»[١].

وقال: «**يكون في ثقيف كذاب ومبير**»، فرأوهما: الحجاج، والمختار[٢].

«**وأن مسيلمة يعقره الله**»[٣].

وأن فاطمة أول أهله لحوقًا به[٤].

وأنذر بالردة، وبأن الخلافة بعده ثلاثون[٥] سنة، ثم تكون ملكًا، فكانت كذلك بمدة الحسن بن عليّ.

وقال: «**إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة**[٦]**، ثم يكون ملكًا عضوضًا، ثم يكون عتوًا وجبروتًا وفسادًا في الأمة**».

وأخبر بشأن أويس القرني[٧]، وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، وسيكون في أمته ثلاثون كذابًا فيهم أربع نسوة.

وفي حديث آخر: «**ثلاثون دجالاً كذابًا، آخرهم الدجال الكذاب، كلهم يكذب على الله ورسوله**»[٨].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأنبياء باب مناقب قريش (٤/٢١٨).

(٢) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٢٠) باب ما جاء في ثقيف كذاب ومبير والمناقب (٣٩٤٤) باب مناقب في ثقيف وبني حنيفة (٥/٧٢٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم في الرؤيا (٢٢٧٣) باب رؤيا النبيﷺ (٤/ ١٧٨٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٠) باب فضائل فاطمة بنت النبيﷺ (٤/١٩٠٤).

(٥) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٢٦) باب ما جاء في الخلافة (٤/٥٠٣) وأحمد في مسنده (٥/٢٢١).

(٦) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥١١٢).

(٧) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٢) باب من فضائل أويس القرني (٤/١٩٦٨).

(٨) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٩، ٢٢٤٠).

وقال: «**يوشك أن يكثر فيكم العجم، يأكلون فيئكم، ويضربون رقابكم**[١] **ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان**».

وقال: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون**[٢]**، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، [ويظهر فيهم السمن]**»[٣].

وقال: «**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه**»[٤].

وقال: «**هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش**»[٥].

قال أبو هريرة روايه: «**لو شئت سميتهم لكم: بنو فلان، وبنو فلان**».

وأخبر بظهور القدرية [٦] والرافضة، وسب آخر هذه الأمة أولها، وقلة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة.

وأنهم سيلقون بعده أثرة[٧].

وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم، والمخدج الذي فيهم، وأن سيماهم التحليق.

ويرى رعاء الغنم رؤوس الناس، والعراة الحفاة يتبارون في البيان.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٠) باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمني أن يكون مكان الميت من البلاء (٤/ ٢٢٣٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢١٤) باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الفتن باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٩/ ٨١).

(٤) صحيح: رواه البخاري في المناقب (٣٦٠٤) باب علامات النبوة في الإسلام ومسلم في الفتن (٧٤) باب لا تقوم الساعة (٤/ ٢٢٣٦).

(٥) رواه الترمذي في القدر (٢١٥٢، ٢١٥٣) باب ما جاء في الرضا بالقضاء (٤/ ٤٥٦) وابن ماجه في الفتن باب الخوف (٢/ ١٣٤٩).

(٦) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٠٣).

(٧) صحيح: رواه مسلم في الزكاة (١٠٦٨) باب الخوارج شر الخلق والخليقة (٢/ ٧٥٠).

وأن تلد الأمة[١] ربتها[٢].

وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم.

وأخبر بالموتان[٣] الذي يكون بعد فتح بين المقدس[٤].

وما وعد من سكنى البصرة، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة[٥] . . . وأن الدين لو كان منوطًا بالثريا لناله رجال من أبناء فرس[٦].

وهاجت[٧] ريح في غزاة، فقال: «**هاجت لموت منافق**»، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك.

وقال لقوم من جلسائه: «**ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد**»[٨].

قال أبو هريرة: فذهب القوم - يعني ماتوا، وبقيت أنا ورجل، فقتل مرتدًا يوم اليمامة.

وأعلم بالذي غل خرزًا من خرز يهود، فوجدت في رحله[٩]. وبالذي غل الشملة[١٠]، وحيث هي.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الإيمان باب سؤال جبريل النبيﷺ عن الإيمان والإسلام ومسلم في الإيمان باب الإيمان ما هو وبيان خصاله .

(٢) صحيح: رواه البخاري في الغزوات باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٥/ ١٤١).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الجزية باب ما يحذر من الغدر (٤/ ١٢٣، ١٢٤) .

(٤) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٠٧) باب في ذكرى البصرة (٤/ ١١١).

(٥) صحيح: رواه مسلم في الامارة (١٩١٢) باب فضل الغزو في البحر (٣/ ١٥١٨).

(٦) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٦) باب فضل فارس والترمذي في تفسير القرآن (٣٣١٠) باب ومن سورة الجمعة (٥/ ٤١٣).

(٧) صحيح: رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٢) (٤/ ٢١٤٥) .

(٨) صحيح: رواه مسلم في الجنه وصفة نعميها وأهلها (٢٨٥١) باب النار يدخلها الجبارون (٤/ ٢١٨٩) والترمذي في صفة جنهم (٢٥٧٩) باب ما جاء في عظم أهل النار (٤/ ٧٠٤).

(٩) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧١٠) باب في تعظيم الغلول (٢/ ٦٨) وأحمد في مسنده (١١٤١٤).

(١٠) صحيح: رواه البخاري في الأيمان والنذور باب هل يدخل في الأيمان والنذور والأرض والغنم ومسلم في الأيمان (١٨٣) ، باب غلظ تحريم الغلول (١/ ١٢٢).

وناقته حين ضلت، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها.

وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة[١].

وبقضية عمير مع صفوان حين ساره وشارطه على قتل النبيﷺ. فلما جاء عمير للنبيﷺ قاصدًا لقتله، وأطلعه رسول اللهﷺ على الأمر والسر أسلم.

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رضي الله عنه عند أم الفضل بعد أن كتمه، فقال: ما علمه غيري وغيرها، فأسلم.

وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف.

وفي عتبة بن أبي لهب يأكله كلب من كلاب الله.

وعن مصارع أهل بدر، فكان كما قال[٢].

وقال في الحسن: «**إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين**»[٣].

ولسعد: «**لعلك تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون**»[٤].

وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد[٥] وبموت النجاشي يوم مات بأرضه[٦].

وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقق فيروز القصة أسلم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في فضائل الصحابة (١٦١) باب من فضائل أهل بدر (٤/ ١٩٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم في الجنه وصفة نعيمها (٢٨٧٣) باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٤/ ٢٢٠٢) .

(٣) صحيح: رواه البخاري في الفتن باب قول النبيﷺ للحسن بن علي إن ابني هذا السيد (٩/ ٧١) وأحمد في مسنده (٥/ ٤٤).

(٤) صحيح: رواه البخاري في مناقب الأنصار باب مقدم النبيﷺ وأصحابه المدينة (٥/ ٨٧).

(٥) صحيح: رواه البخاري في الغزوات باب غزوة مؤتة (٥/ ١٨٢) .

(٦) صحيح: رواه البخاري في مناقب الأنصار باب موت النجاشي (٥/ ٦٤) ، ومسلم في الجنائز (٩٥٢) باب في التكبير علي الجنازة (٢/ ٦٥٧).

وأخبر أبا ذر رضي الله عنه بتطريده كما كان، ووجد في المسجد نائمًا، فقال له: «**كيف بك إذا أخرجت منه؟**» قال: أسكن المسجد الحرام. قال: «**فإذا أخرجت منه...**»(١).

وبعيشه وحده، وموته وحده.

وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقًا أطولهن يدًا، فكانت زينب لطول يدها بالصدقة(٢).

وأخبر بقتل الحسين بالطف، وأخرج بيده تربة، وقال: «**فيها مضجعه**»(٣).

وقال في زيد بن صوحان: «**يسبقه عضو منه إلى الجنة**»(٤)، فقطعت يده في الجهاد.

وقال في الذين كانوا معه على حراء: «**اثبت، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد**»(٥)، فقتل عليّ، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وطعن سعد.

وقال لسراقة: «**كيف بك إذا ألبست سواري كسرى**»(٦) فلما أتي بهما عمر ألبسهما إياه، وقال: الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة.

وقال: «**تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة، تجبى إليها خزائن الأرض، يخسف بها**» - يعني بغداد - .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الزكاة باب أي الصدقة أفضل ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٢) باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها (٤/ ١٩٠٧).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٩٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤٧٠).

(٤) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤١٦).

(٥) صحيح: رواه البخاري في فضائل الصحابة باب من فضائل أبي بكر ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤١٧) باب من فضائل طلحة والزبير (٤/ ١٨٨٠).

(٦) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ١٨).

وقال: «**سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، هو شر لهذه الأمة من فرعون لقومه**».

وقال: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة**»[(١)].

وقال لعمر في سهيل بن عمرو: «**عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر**»! فكان كذلك، قام بمكة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبيﷺ، وخطب بنحو خطبته، وثبتهم وقوى بصائرهم.

وقال لخالد حين وجهه لأكيدر: «**إنك تجده يصيد البقر**»[(٢)] فوجدت هذه الأمور كلها في حياته وبعد موته كما قالﷺ.

إلى ما أخبر به جلساءه من أسرارهم وبواطنهم، واطلع عليه من أسرار المنافقين وكفرهم، وقولهم فيه وفي المؤمنين، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه: اسكت، فوالله لو لم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء.

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم، وكونه في مشط ومشاقة، في جف طلع نخلة ذكر، وأنه ألقي في بئر ذروان[(٣)]، فكان كما قال، ووجد على تلك الصفة.

وإعلامه قريشًا بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رحمهم، وأنها أبقت فيها كل اسم لله، فوجدوها كما قال.

ووصفه لكفار قريش بيت المقدس حين كذبوه في خبر الإسراء، ونعته إياه نعت من عرفه.

---

(١) صحيح: رواه مسلم في الفتن (١٥٧) باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٤/ ٢٢١٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٣١٢) والبيهقي في دلائل النبوة باب ما جاء في إخباره ﷺ باقتتال فئتين (٦/ ٤١٨).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٥٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم في السلام (٢١٨٩) باب السحر (٤/ ١٧١٩).

وأعلمهم بعـيرهم التي مرَّ عليـها في طريقه، وأنذرهم بوقت وصـولها، فكان كله كما قال.

إلى ما أخبر به من الحـوادث التي تكون ولم يأت بعد، منها ما ظهرت مـقدماتها، كقوله: «**عمـران بين المقدس خراب يثرب، وخـراب يثرب خروج الملحمـة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية**»[١].

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها، وذكر النشر والحشر، وأخبار الأبرار والفجار، والجنة والنار، وعرصات القيامة.

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديوانًا مفردًا يشتمل على أجزاء وحده، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا كفاية، وأكثرها في الصحيح، وعند الأئمة.

---

(١) رواه أبو داود في المـلاحم (٤٢٩٤) باب في أمـارات الملاحم وأحـمـد في مـسنده (٥/ ٢٣٢، ٢٤٥) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٠) وقال الحـاكم هذا الحديث وأن كان موقوفًا فإن إسناده صحيح على شرط الرجال وهو اللائق بالمسند .

الفصل الخامس والعشرون

في عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته من أذاهم

قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة/ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾[الطور/ ٤٨].

وقال: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾[الزمر/ ٣٦].

وقيل: بكاف محمداً ﷺ أعداءه المشركين. وقيل غير هذا.

وقال: ﴿**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر/ ٩٥].

وقال: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[الأنفال/ ٣٠].

أخبرنا القاضي الشهيد أبو عليّ الصدفي بقراءتي عليه، والفقيه الحافظ أبو بكر محمد عبد الله المعافري، قالا: حدثنا أبو الحسين الصيرفي، قال: حدثنا أبو البغدادي، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا أبو العباس المروزي، حدثنا أبو عيسى الحفاظ، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد، عن سعيد الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[المائدة / ٦٧] - فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «**يا أيها الناس، انصرفوا، فقد عصمني[١] ربي عزّ وجل**».

---

(١) رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٤٦) باب من سورة المائدة (٥/ ٢٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨١٩).

وروي أن النبيﷺ كان إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله عز وجل»، فرعدت يد الأعرابي، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فنزلت الآية.

وقد رويت هذه القصة في الصحيح(١)، وأن غورث بن الحارث صاحب هذه القصة، وأن النبيﷺ عفا عنه، فرجع إلى قومه، وقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقد حكيت مثل هذه الحكاية، وأنها جرت له يوم بدر، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته، فتبعه رجل من المنافقين . . . وذكر مثله.

وقد روي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذي أمر، مع رجل اسمه دعثور بن الحارث، وأن الرجل أسلم، فلما رجع إلى قومه الذي أغروه - وكان سيدهم وأشجعهم- قالوا له: أين ما كنت تقول، وقد أمكنك؟ فقال: إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري، فوقعت لظهري، وسقط السيف، فعرفت أنه ملك، وأسلمت.

وفيه نزلت: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة/ ١١].

وفي رواية الخطابي أن غورث بن الحارث المحاربي أراد أن يفتك بالنبيﷺ، فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه منتضيًا سيفه، فقال: «**اللهم اكفنيه بما شئت**»(٢)، فانكب من وجهه من زلخة زلخها بين كتفيه، وندر سيفه من يده.

الزلخة: وجع الظهر.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في المغازي باب غزوه ذات الرقاع (٥/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك في (٤/ ٨٢) ورواية الحاكم أنه عامر بن الطفيل أما رواية الشفاء هو غورث بن الحارث المحاربي .

وقيل في قصته غير هذا، وذكر فيه نزلت: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[المائدة/ ١١].

وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشًا، فلما نزلت هذه الآية استلقى، ثم قال: «من شاء فليخذلني».

وذكر عبد بن حميد، قال: كانت حمالة الحطب تضع العضاه - وهي جمر - على طريق رسول الله ﷺ فكأنما يطؤها كثيبا أهيل.

وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[المسد/ ١]، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم - أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من الحجارة.

فلما وقفت عليهما لم تر ألا أبا بكر، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.

وعن الحكم بن أبي العاص: تواعدنا على النبي ﷺ حتى إذا رأيناه سمعنا صوتًا خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد، فوقعنا مغشيًا علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله.

ثم تواعدنا ليلة أخرى، فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة، فحالت بيننا وبينه.

وعن عمر رضي الله عنه: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ، فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح وقرأ: ﴿**الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ** . . .﴾ إلى: ﴿ **فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ**﴾[الحاقة / ١-٨].

فضرب أبو جهم على عضد عمـر، وقال: انج، وفرا هاربين، فكانت من مقدمات إسلام عمر رضي الله عنه.

ومنه العبرة المشـهورة، والكفاية التامة عندمـا أخافته قريش، وأجـمعت على قتله وبيتـوه، فخرج علـيهم من بيتـه، فقام على رؤوسـهم، وقد ضـرب الله تعالى على أبصارهم. وذر التراب على رؤوسهم، وخلص منهم.

وحمايته عن رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قـال أمية بن خلف - حين قالو: ندخل الغار: ما أربكم فـيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد.

ووقعت حـمامتان على فم الغـار، فقالت قـريش: لو كان فيه أحـد لما كانت هناك الحمام.

وقصته مع سـراقة بن مالك بن جعشم حين الهجرة، وقد جـعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجـعـائل، فأنذر به، فـركب فـرسـه واتبعـه حـتي إذا قرب منـه دعا عليـه النبيﷺ، فسـاخت قوائم فرسه، فخـر عنها[١]، واستـقسم بالأزلام، فخـرج له ما يكره.

ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت، فقـال النبي ﷺ: أُتينا فقال: «**لا تحزن إن الله مـعنا**»[٢]. فسـاخت ثانية إلى ركبتها، وخـر عنها فزجرها فنهضت ولقوائمهـا مثل الدخان، فناداهم بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أمـانًا، كتـبه ابن فـهيـرة، وقيل أبو بكر، وأخـبرهم بـالأخبـار، وأمره النبيﷺ ألا يترك أحدًا يحلق بهم.

فانصرف يقول للناس: كفيتم ما هاهنا.

وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليّ، فادعوا لي.

(١) صحيح: رواه مسلم في الأشربة (٢٠٠٩) باب جواز شرب اللبن (٣/ ١٥٩٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ومسلم في الزهد والرقائق باب في حديث الهجرة .

فنجا، ووقع في نفسه ظهور النبي ﷺ.

في خبر آخر: أن راعيًا عرف خبرهما، فخرج يشتد، يعلم قريشًا، فلما ورد مكة ضرب على قلبه، فما يدري ما يصنع، وأنسي ما خرج له حتى رجع إلى موضعه.

وجاءه - في ما ذكر ابن إسحاق وغيره - أبو جهل، بصخرة وهو ساجد، وقريش ينظرون، ليطرحها عليه، فلزقت بيده، ويبست يداه إلى عنقه، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه، ثم سأله أن يدعو له، ففعل، فانطلقت يداه، وكان قد تواعد مع قريش بذلك، وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه، فذكر أنه عرض لي دونه فحل، ما رأيت مثله قط، هم بي أن يأكلني.

فقال النبي ﷺ: «**ذاك جبريل، لو دنا لأخذه**».

وذكر السمرقندي أن رجلاً من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله، فطمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه.

وذكر أن في هاتين القصتين، نزلت: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾[يس/ ٨، ٩] .

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق، وغيره في قصته، إذ خرج إلى بني قريظة، في أصحابه، فجلس إلى جدار بعض آطامهم، فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح عليه رحى، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم.

وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[المائدة/ ١١]. في هذه القصة نزلت .

وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقال له حيي بن أخطب: اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا.

فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتآمر حيي معهم على قتله، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة.

وذكر أهل التفسير والحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه - أن أبا جهل وعد قريشًا لئن رأى محمدًا يصلي ليطأن رقبته.

فلما صلى النبي ﷺ أعلموه، فأقبل، فلما قرب منه ولى هاربًا ناكصًا على عقبيه، متقيًا بيديه، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء نارًا كدت أهوي فيه، وأبصرت هولاً عظيمًا، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض.

فقال النبي ﷺ: «**تلك الملائكة، لو دنا لاختطفته عضوًا عضوًا**».

ثم أنزل على النبي ﷺ: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)**﴾[العلق/ ٦-١٩] .

وروي أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقال: اليوم أدرك ثأري من محمد.

فلما اختلط الناس أتاه من خلفه، ورفع سيفه ليصبه عليه، قال: فلما دنوت منه ارتفع إليّ شواظ من نار أسرع من البرق، فوليت هاربًا، وأحس بي النبي ﷺ فدعاني، فوضع يده على صدره، وهو أبغض الخلق إليّ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إليّ، [وقال لي: «**ادنُ فقاتل**» ، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسي، ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه].

وعن فضالة بن عمرو: أردت قتل النبي ﷺ عام الفتح، وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: «أفضالة؟» قلت: نعم. قال: «ما كنت تحدث به نفسك؟» قلت: لا

شيء. فضحك واستغفر لي، ووضع يده على صدري، فسكن قلبي، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئًا أحب إليّ منه.

ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس - حين وفدا على النبيﷺ، وكان عامر قال له: أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت. فلم يره فعل شيئًا، فلما كلمه في ذلك قال له: والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بيني وبينه، أفأضربك!.

ومن عصمته له تعالى أن كثيرًا من اليهود والكهنة أنذروا به وعينوه لقريش، وأخبروهم بسطوته بهم، وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر، كما قال ﷺ.

الفصل السادس والعشرون
من معجزاته الباهرة

ومن معجزاته الباهرة ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور شرائعه، وقوانين دينه، وسياسة عباده، ومصالح أمته، وما كان في الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه وحفظ شرائعهم وكتبهم، ووعي سيرهم، وسرد أنبائهم، وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكم حكمائهم، ومحاجة كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموا من ذلك وغيروه.

إلى الاحتواء على لغات العرب، وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحاتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، وحكمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها.

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة، والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض، والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته علي محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل شيء مستحسن مفضل، لم ينكر منه ملحد ذو عقل سليم شيئًا إلا من جهة الخذلان.

بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه، واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه.

ثم أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المعاقبات والحدود عاجلاً، والتخويف بالنار آجلاً [مما لا

يعلم علمه، ولا يقوم به، إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب، ومشافنة بعض هذا].

إلى الاحتواء على ضروب العلوم، وفنون المعارف؛ كالطب، والعبارة، والفرائض، والحساب، والنسب، وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارفة كلامه ﷺ فيها قدوة وأصولاً في علمهم؛ كقوله: «**الرؤيا لأول عابر. وهي على رجل طائرٍ**»[1].

وقوله: «**الرؤيا ثلاث؛ رؤيا حق، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه، ورؤيا تخزين من الشيطان**»[2].

وقوله: «**إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب**».

وقوله: «**أصل كل داء البردة**»[3].

وما روي عنه في حديث أبي هريرة رضي الله عنه من قوله: «**المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة**». وإن كان هذا حديثًا لا نصححه لضعفه وكونه موضوعًا تكلم عليه الدارقطني.

وقوله: «**خير ما تداويتم به السعوط واللدود، والحجامة، والمشي**[4].

وخير الحجامة يوم سبع عشر، وتسع عشر، وإحدى وعشرين[5].

---

(١) وأبو داود في الأدب (٥٠٢٠) باب ما جاء في الرؤيا (٣٠٧،٣٠٦/٢) ورواه الترمذي في الرؤيا (٢٢٧٨) باب ما جاء في تعبير الرؤيا (٥٣٦/٤) وابن ماجه في الرؤيا باب الرؤيا إذا عبرت وقعت فلا يقصها إلا على واحد

(٢) صحيح: رواه مسلم في الرؤيا في المقدمة (٢٢٦٣) وأبو داود في الأدب (٥٠١٩) باب ما جاء في الرؤيا (٣٠٦/٢) والترمذي في الرؤيا (٢٢٧٨) باب ما جاء في تعبير الرؤيا (٥٣٦١٤).

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٨٠٧٥، ٢٨٢٤٧).

(٤) رواه الترمذي في الطب (٢٠٤٧) باب ما جاء في السعوط وغيره (٢٠٤٧/٤).

(٥) رواه الترمذي في الطب (٢٠٥١) باب ما جاء في الحجامة (٣٩٠/٤) وابن ماجه في الطب باب في موضع الحجامة.

وفي العود الهندي سبعة أشفية[١]. **[منها ذات الجنب]»**.

وقوله: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطن، فإن كان لابد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**»[٢].

وقوله - وقد سئل عن سبأ: أرجل هو أم امرأة؛ أم أرض؟ فقال: «**رجل ولد عشرة: تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة...**»[٣]. الحديث بطوله.

وكذلك جوابه في نسب قضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك.

وقوله: «**حمير رأس العرب ونابها. ومذحج هامتها وغلصمتها. والأزد كاهلها وجمجمتها، وهمدان غاربها وذروتها**».

وقوله: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض**»[٤].

وقوله في الحوض: «**زواياه سواء**»[٥].

وقوله - في حديث الذكر: «**وإن الحسنة بعشر أمثالها؛ فتلك مائة وخمسون على اللسان، وألف وخمسمائة في الميزان**»[٦].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الطب باب اللدود (٧/ ١٦٤). ومسلم في السلام (٢٢١٤) باب التداوي بالعود الهندي (٤/ ١٧٣٤).

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٨٠) باب ما جاء فى كرهية كثرة الأكل (٤/ ٥٩٠) وأحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢).

(٣) رواه أبو داود في الحروف والقراءات (٣٩٨٨) (٤/ ٣٣) والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٢٢) باب ومن سورة سبأ (٥/ ٣٦١).

(٤) صحيح: رواه البخاري في التفسير سورة براءه (٦/ ٨٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (٣/ ١٣٠٥).

(٥) صحيح: رواه البخاري في الرقاق باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ ومسلم في الفضائل (٢٢٩٢) باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٧٩٣).

(٦) رواه أبو داود في الأدب باب في التسبيح عند النوم والترمذي في الأدب (٣٤١٠) باب ما جاء في التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام (٥/ ٤٧٨).

وقوله وهو بموضع: «**نعم موضع الحمام هذا**»[١].

وقوله: «**ما بين المشرق والمغرب قبلة**»[٢].

وقوله لعيينة، أو الأقرع: «**أنا أفرس بالخيل منك**»[٣].

وقوله لكاتبه: «**ضع القلم على أذنك، فإنه أذكر للممل**».

هذا مع أنهﷺ كان لا يكتب؛ ولكنه أوتي علم كل شيء، حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن تصويرها:

كقوله: «**لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم**». رواه ابن شعبان من طرق عن ابن عباس.

وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديهﷺ، فقال له: «**ألق الدواة، وحرف القلم، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، وجود الرحيم**».

وهذا، وإن لم تصح الرواية أنهﷺ كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع القراءة والكتابة.

وأما علمه ﷺ بلغات العرب، وحفظه معاني أشعارها، فأمر مشهورة، قد نبهنا على بعضه أول الكتاب.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٧٩) وعزاه للطبراني في الكبير وفيه يحيى بن يعلى وهو ضعيف.

(٢) رواه الترمذي في أبواب الصلاة (٣٤٢،٣٤٤) باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة (   ) والحاكم في المستدرك (١/ ٢٠٥،٢٠٦) وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فإن شعيب بن أيوب ثقة وقد أسنده وقال الذهبي علي شرطهما، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٣٨٧) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٣) وقال الهيثمي رواه أحمد متصلاً ومرسلاً والطبراني وسمى الثاني بسر بن عبيد الله ورجال الجميع ثقات.

وكذلك حفظه لكثير مـن لغات الأم؛ كقوله في الحديث: «**سنه، سنه**» وهي حسنة بالحبشية(١).

وقوله: «**ويكثر الهرج**»، وهو القتل بها(٢).

وقوله - في حديث أبي هريرة: «**أشكنت درد**»(٣)؛ أي وجع البطن بالفارسية.

إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببـعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثافنة أهلها عمره.

وهو رجل كما قـال الله تعالى - أمي، لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصـحبة من هذه صفته، ولا نشأ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور، ولا عرف هو - قبل بـشيء منها؛ قال الله تـعالى: ﴿**وَمَا كُنـــتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[العنكبوت/ ٤٨].

إنما كانت غاية معارف العرب النسب وأخبار أوائلها، والشعر، والبيان؛ وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومباحثة أهله عنه.

وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﷺ.

ولا سبـيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكـرناه، ولا وجد الكفرة حـيلة في دفع ما نصصناه إلا قوله: ﴿**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾[الفرقان/ ٥] ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾[النحل/ ١٠٣].

فـرد الله قولهم بقـوله: ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾[النحل/ ١٠٣].

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٧١) باب من تكلم بالفارسية والرطانة ومناقب الانصار (٣٨٧٤) باب هجرة الحبشة (٤/ ٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم في العلم (٢٦٧٢) باب رفع العلم وقبـضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٤/ ٢٠٥٦) والترمذي في الفتن (٢٢٠٠) باب ما جاء في الهرج والعبادة (٤/ ٤٨٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٤٠٣).

ثم ما قالوه مكابرة العيان؛ فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إما سلمان، أو العبد الرومي؛ وسلمان إنما عرفه بعد الهجرة؛ ونزول الكثير من القرآن، وظهور ما لا ينعد من الآيات.

وأما الرومي فكان أسلم وكان يقرأ على النبيﷺ، واختلف في اسمه.

وقيل: بل كان النبيﷺ يجلس عنده عند المروة، وكلاهما أعجمي اللسان؛ وهم الفصحاء اللد، والخطباء اللُّسْنُ، قد عجزوا عن معارضة ما أتى بهم، والإتيان بمثله؛ بل عن فهم رصفه، وصورة تأليفه ونظمه؛ فكيف؛ بأعجمي ألكن!.

نعم، وقد كان سلمان، أو بلعام الرومي، أو يعيش، أو جبر، أو يسار - على اختلافهم في اسمه - بين أظهرهم يكلمونه مدى أعمارهم؛ فهل حكي عن واحد منهم شيء من مثل ما كان يجيء به محمد ﷺ؟ وهل عرف واحد منهم بمعرفة شيء من ذلك؟ وما منع العدو حينئذ على كثرة عدده، ودؤوب طلبه، وقوة حسده - أن يجلس إلي هذا فيأخذ عليه أيضًا ما يعارض به ويتعلم منه ما يحتج به على شغبه؛ كفعل النضر بن الحارث بما كان يمخرق به من أخبار كتبه.

ولا غاب النبيﷺ عن قومه، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب؛ فيقال إنه استمد منهم؛ بل لم يزل بين أظهرهم يرعى في صغره وشبابه، على عادة أبنائهم؛ ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سفرة أو سفرتين، لم يطل فيهما مكثه مدة يحتمل فيها تعليم القليل، فكيف الكثير!.

بل كان في سفره في صحبة قومه ورفاق عشيرته، لم يغب عنهم، ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم واختلاف إلى حبر أو قس، أو منجم، أو كاهن.

بل لو كان هذا بعد كله لكان مجيء ما أتى به في معجز القرآن قاطعًا لكل عذر، ومدحضًا لكل حجة، ومجليًا لكل أمر.

الفصل السابع والعشرون

أنباؤه مع الملائكة والجن

ومن خصائصه ﷺ، وكراماته، وباهر آياته أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجن له، ورؤية كثير من أصحابه لهم؛ قال الله تعالى: ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[التحريم/ ٤] .

وقال: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[الأنفال/ ١٢] .

وقال: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[الأنفال/ ٩، ١٠] .

وقال: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**﴾[الأحقاف/ ٢٩] .

حدثنا سفيان بن العاص الفقيه بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث السمرقندي؛ قال: حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن سليمان الشيباني، سمع زر بن حبيش عن عبد الله، قال: ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾[النجم/ ١٨] - قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته، له ستمائة جناح.

والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور.

وقد رآهم بحضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة؛ [فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان](١).

ورأى ابن عباس، وأسامة بن زيد، وغيرهما عنده جبريل في صورة دحية.

ورأى سعد عن يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهم ثياب بيض.

ومثله عن غير واحد.

وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر.

وبعضهم رأى تطاير الرؤوس من الكفار، ولا يرون الضارب.

ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذ رجالاً بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض، ما يقوم لها شيء.

وقد كانت الملائكة تصافح عمران بن الحصين.

وأرى النبي ﷺ لحمزة جبريل في الكعبة، فخر مغشيًا عليه.

ورأى عبد **الله** بن مسعود الجن ليلة الجن، وسمع كلامهم، وشبههم برجال الزط.

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير لما قتل يوم أحد أخذ الراية ملك على صورته، فكان النبي ﷺ يقول له: «**تقدم يا مصعب**»؛ فقال له الملك: لست بمصعب، فعلم أنه ملك.

وقد ذكر غير واحد من المصنفين عن عمر بن الخطاب رضي **الله** عنه - أنه قال: بينا نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ أقبل شيخ بيده عصا، فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه، وقال - ﷺ: «**نغمة الجن من أنت**»؟ قال: أنا هامة بن الهيم بن لاقس بن إبليس؛ فذكر أنه لقي نوحًا ومن بعده .. في حديث طويل؛ وأن النبي ﷺ علمه سورًا من القرآن .

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الإيمان (٥٠) باب سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام (١/ ١٤٠) ومسلم في الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله.

وذكر الواقدي قتل خالد عند هدمه العزى للسوداء التي خرجت له ناشرة شعرها عريانة، فجزلها بسيفه، وأعلم النبيﷺ؛ فقال له: «تلك العزى».

وقالﷺ: **«إن شيطانًا تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي؛ فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم؛ فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[ص/ ٣٥] . فرده الله خاسئًا»**(١).

وهذا باب واسع.

(١) صحيح: رواه البخاري في الصلاة باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (١/ ١٢٤) . وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩٨).

الفصل الثامن والعشرون
أخباره وصفاته وعلامات رسالته
عند أحبار ورهبان وعلماء ذلك الزمان

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين؛ من شعر تبع، والأوس بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة.

وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم، وعرف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبع - من صفته وخبره.

وما ألفي من ذلك في التوارة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه، ونقله عنهما ثقاة من أسلم منهم؛ مثل ابن سلام، وابني سعية؛ وابن يامين؛ ومخيريق؛ وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيرا، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرى، وضغاطر وأسقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارى الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارى.

وقد اعترف بذلك هرقل، وصاحب رومة عالما النصارى، ورئيساهم، ومقوقس صاحب مصر، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والنفاسة على البقاء على الشقاء.

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارى بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم، وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه وليهم

السنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلى المباهلة على الكاذب؛ فما منهم إلا من نفر عن معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره.

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب الديار ونبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[آل عمران/ ٩٣] .

إلى ما أنذر به الكهان؛ مثل شافع بن كليب، وشق، وسطيح، وسواد بن قارب، وخنافر، وأفعى بحران، وجذل بن جذل الكندي، وابن خلصة الدوسي، وسعدى بنت كريز، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا ينعد كثرة.

إلى ما ظهر على ألسنة الأصنام من نبوته، وحلول وقت رسالته؛ وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب، وأجواف الصور؛ وما وجد من اسم النبي ﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوبًا في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور؛ وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.

الفصل التاسع والعشرون

ما حدث عند مولده

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده، وما حكته أمه ومن حضره من العجائب، وكونه رافعًا رأسه عندما وضعته شاخصًا ببصره إلى السماء؛ وما رأته من النور الذي خرج معه عند ولادته، وما رأته إذ ذاك أم عثمان بن أبي العاص من تدلي النجوم، وظهور النور عند ولادته، حتى ما تنظر إلا النور.

وقول الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف: لما سقطﷺ على يدي واستهل سمعت قائلاً يقول: رحمك الله؛ وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الروم.

وما تعرفت به حليمة وزوجها ظئراه من بركته، ودرور لبنها له، ولبن شارفها وخصب غنمها، وسرعة شبابه، وحسن نشأته؛ وما جرى من العجائب ليلة مولده؛ من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط شرفاته، وغيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد.

وأنه كان إذا أكل مع عمه أبي طالب وآله وهو صغير شبعوا ورووا؛ فإذا غاب فأكلوا في غيبته لم يشبعوا.

وكان سائر ولد أبي طالب يصبحون شعثًا ويصبح ﷺ صقيلا دهينا كحيلاً.

[قالت أم أيمن حاضنته: ما رأيتهﷺ شكا جوعًا قط ولا عطشًا صغيرًا ولا كبيرًا].

ومن ذلك حراسة السماء بالشهب، وقطع رصد الشياطين، ومنعهم استراق السمع.

وما نشأ عليه من بغض الأصنام، والعفة عن أمور الجاهلية؛ وما خصه الله به من ذلك وحماه حتى في ستره في الخبر المشهور عند بناء الكعبة؛ إذ أخذ إزاره ليجعله على عاتقه، ليحمل عليه الحجارة وتعرى؛ فسقط إلى الأرض حتى رد إزاره عليه.

فقال له عمه: ما بالك؟ فقال: «**إني قد نهيت عن التعري**»[١].

ومن ذلك إظلال الله له بالغمام في سفره.

وفي رواية أن خديجة ونساءها رأينه لما قدم، وملكان يظلانه؛ فذكرت ذلك لميسرة؛ فأخبرها أنه رأى ذلك منذ خرج معه في سفره.

[وقد روي أن حليمة رأت غمامة تظله، وهو عندها. وروي ذلك عن أخيه من الرضاعة].

ومن ذلك أنه نزل في بعض أسفاره قبل مبعثه تحت شجرة يابسة، فاعشوشب ما حولها وأينعت هي فأشرقت وتدلت عليه أغصانها بحضرة من رآه.

وميل فيء الشجرة إليه في الخبر الآخر حتى أظلته.

وما ذكر من أنه كان لا ظل لشخصه في شمس ولا قمر؛ لأنه كان نورًا. وأن الذباب كان لا يقع على جسده ولا ثيابه.

ومن ذلك تحبيب الخلوة إليه حتى أوحي إليه؛ ثم إعلامه بموته ودنو أجله، وأن قبره في المدينة وفي بيته، وأن بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة؛ وتخيير الله له عند موته؛ وما اشتمل عليه حديث الوفاة من كراماته؛ وتشريفه، وصلاة الملائكة على جسده على ما رويناه في بعضها.

واستئذان ملك الموت عليه، ولم يستأذن على غيره قبله. ونداؤهم الذي سمعوه ألا ينزعوا القميص عنه عند غسله.

وما روي من تعزية الخضر والملائكة أهل بيته عند موته.

إلى ما ظهر على أصحابه من كرامته وبركته في حياته وموته، كاستسقاء عمر بعمه، وتبرك غير واحد بذريته.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في مناقب الأنصار باب بنيان الكعبة (٥/ ٥١) وأحمد في مسنده (٥/ ٤٥٤، ٤٥٥).

الفصل الثلاثون

خاتمة وتذييل

قال القاضي أبو الفضل: قد أتينا في هذا البـاب على نكت من معجزاته واضحة، وجمل من علامات نبوته مقنعة، في واحـد منها الكفاية والغنية، و تركنا الكثير سوى ما ذكرنا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الغرض وفص المقصد، ومن كثير الأحاديث وغريبها على مـا صح واشتهر إلا يسيرًا من غريبه مما ذكـره مشاهير الأئمة، وحذفنا الإسناد في جمهورها، طلبًا للاختصار.

وبحسب هذا الباب لو تقصى أن يكون ديوانًا جامعًا يشتمل على مجلدات عدة.

ومعجـزات نبيناﷺ أظهر من سائر معـجزاته الرسل بوجهين: أحدهما - كـثرتها، وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلها، أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبه الناس على ذلك؛ فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب، ومعجزات من تقدم من الأنبياء - تقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

وأما كونها كثـيرة فهذا القرآن، وكله معجز؛ وأقل ما يـقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿**إنا أعطيناكَ الكَوْثَر**﴾[الكوثر/ ١]؛ أو آية في قدرها.

وذهب بعضـهم إلى أن كل آية منه كيف كانت مـعجزة وزاد آخـرون أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

والحق ما ذكرناه أولاً؛ لقوله تعالى: ﴿**قل فأتو بسورة مثله**﴾[يونس/٣٨]؛ فهو أقل ما تحداهم به، مع ما ينصر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه .

وإذا كان هذا فـفي القرآن من الكلمات نحو من سـبعة وسبـعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضـهم، وعدد كلمات: ﴿**إنا أعطيناكَ الكَوْثَر**﴾[الكوثر/ ١] - عشر كلمات، فتجزؤ فى القـرآن على نسبه عدد ﴿**إنا أعطيناكَ الكَوْثَر**﴾ أزيد من سبـعة آلاف جزء، كل واحد منها معجز في نفسه.

ثم إعجازه - كما تقدم - بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمه؛ فصار في كل جزء من هذا معجزتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه.

ثم فيه وجوه إعجاز أخر من الإخبار بعلوم الغيب؛ فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز؛ فتضاعف العدد كرة أخرى.

ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العد معجزاته، ولا يحوي الحصر براهينه.

ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه ﷺ في هذه الأبواب وعما دل على أمره مما أشرنا إلى جمله يبلغ نحواً من هذا.

الوجه الثاني - وضوح معجزاته ﷺ؛ فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم، وبحسب الفن الذي سما فيه قرنه.

فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السحر بعث إليهم موسى بمعجزة تشبه ما يدعون قدرتهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتهم، ولم يكن في قدرتهم، وأبطل سحرهم.

وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطب، وأوفر ما كان أهله؛ فجاءهم أمر لا يقدرون عليه، وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص دون معالجة ولا طب.

وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ، وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة؛ فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة فصول من الفصاحة، والإيجاز، والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم؛ ومن النظم الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم يهتدوا في المنظوم إلى طريقه ولا علموا في أساليب الأوزان منهجه؛ ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث، والأسرار، والمخبآت والضمائر، فتوجد على ما كانت، ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه، وإن كان أعدى العدو.

فأبطل الكهانة التي تصدق مرة وتكذب عشرًا؛ ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب، ورصد النجوم.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة، وأنباء الأنبياء، والأمم البائدة، والحوادث الماضية - ما يعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه على الوجوه التي بسطناها وبينا المعجز فيها.

ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلى الفصول الأخر التي ذكرناها في معجزات القرآن ثابتة إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة تأتي، لا يخفى وجوه ذلك على من نظر فيه، وتأمل وجوه إعجازه.

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل؛ فلا يمر عصر ولا زمن إلا ويظهر فيه صدقه بظهور مخبره على ما أخبر؛ فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان؛ وليس الخبر كالعيان كما قيل.

وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين؛ وإن كان كل عندها حقًا.

وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعدمت بعدم ذواتها؛ ومعجزة نبينا، لا تبيد ولا تنقطع وآياته تتجدد ولا تضمحل؛ ولهذا أشار ﷺ بقوله في ما حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهيثم؛ قالوا: حدثنا الفربري، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا الليث، عن سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي؛ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر؛ وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**(١).

هذا معنى الحديث عن بعضهم؛ وهو الظاهر والصحيح إن شاء الله.

وذهب غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا ﷺ إلى

---

(١) صحيح: رواه البخاري في فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٩/ ١١٣) ومسلم في الإيمان (٢٣٩) باب وجوب الإيمان برساله نبينا محمد ﷺ (١/ ١٣٤).

معنى آخر من ظهورها بكونها وحيًا وكلامًا لا يمكن التخييل فيه، ولا التحيل عليه، ولا التشبيه؛ فإن غيرها من معجزات الرسل قد رام المعاندون لها بأشياء طعموا في التخييل بها على الضعفاء كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مم يخيله الساحر، أو يتحيل فيه .

والقرآن كلام ليس للحيلة ولا للسحر، ولا التخييل فيه عمل؛ فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يتم لشاعر ولا لخطيب أن يكون شاعرًا أو خطيبًا بضرب من الحيل والتمويه.

والتأويل الأول أخلص وأرضى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يغمض عليه الجفن، ويغضى.

ووجه ثالث على مذهب من قال بالصرفة، وأن المعارضة كانت في مقدور البشر؛ فصرفوا عنها، أو على أحد مذهبي أهل السنة من أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم؛ ولكن لم يكن ذلك قبل، ولا يكون بعد؛ لأن الله تعالى لم يقدرهم، ولا يقدرهم عليه.

وبين المذهبين فرق بَيِّن، وعليهما جميعًا فترك العرب الإتيان بما في مقدورهم، أو ما هو من جنس مقدورهم، ورضاهم بالبلاء والجلاء، والسباء والإذلال، وتغيير الحال، وسلب النفوس والأموال، والتقريع والتوبيخ، والتعجيز والتهديد والوعيد أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله، والنكول عن معارضته؛ وأنهم منعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم.

وإلي هذا ذهب الإمام أبو المعالي الجويني وغيره؛ قال: وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها، كقلب العصا حية ونحوها، فإنه قد يسبق إلى بال الناظر بدارًا أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن، وفضل علم إلى أن يرد ذلك صحيح النظر.

وأما التحدي للخلائق مئين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي على المعارضة ثم عدمها إلا منع الله الخلق عنها

بمثابة ما لو قال نبي: آيتي أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزمانة عنهم؛ فكان ذلك؛ وعجزهم الله تعالى عن القيام - لكان ذلك من أبهر آية، وأظهر دلالة. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء، حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب، وذكاء ألبابها، ووفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم، وغيرهم من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذا السبيل؛ بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على صلبه؛ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم؛ فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿**لن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾[البقرة/ ٥٥]. ولم يصبروا على المن والسلوى؛ واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

والعرب على جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تقترب بالأصنام إلى الله زلفى.

ومنهم من آمن بالله وحده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله وصفاء لبه.

ولما جاءهم الرسل بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته؛ فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيمانًا، ورفضوا الدنيا كلها في صحبته، وهجروا ديارهم وأموالهم، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نصرته، وأتى في معنى هذا بما يلوح له رونق، ويعجب منه زبرج لو احتيج إليه [وحقق]؛ لكنا قدمنا من بيان معجزة نبيناﷺ وظهورها ما يغني عن ركوب بطون هذه المسالك وظهورها.

وبالله أستعين. [وهو حسبي، ونعم الوكيل].

آخر القسم الأول، ويليه الجزء الثاني

فهرس الآيات القرآنية

الجزء الأول

ترتيب الآيات القرآنية حسب تسلسل أرقام السور الكريمة وأوردنا الآيات كما أوردها المؤلف وإن كانت أحيانًا تكون مبتورة لا حسب أولها في المصحف الكريم.

	سورة الشعراء [٢٦]	
٣	لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين	٤٤
٤	إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية	٤٤
٢١	فوهب لي ربي حكمًا وجعلني من المرسلين	١٣٨
٨٢	والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين	١٩٦
٨٤	اجعل لي لسان صدق في الآخرين	١٩٦
٨٧	ولا تخزني يوم يبعثون	١٩٦
١٠٧	إني لكم رسول أمين	١٣٨
٢١٩	وتقلبك في الساجدين	٦٤
	سورة النمل [٢٧]	
١٤	وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا	٣٢
٧٦	إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل	٢٥٨
	سورة القصص [٢٨]	
٧	وأوحينا إلى أم موسى	٢٤١-٢٣٣
٢٦	إن خير من استأجرت القوي الأمين	٢١٦-١٣٨
٢٧	ستجدني إن شاء الله من الصالحين	١٣٩
٥٦	إنك لا تهدي من أحببت	٢٢٢
	سورة العنكبوت [٢٩]	
٤٠	فكلاً أخذنا بذنبه	٢٤١
٤٨	وما كنت تتلو من قبله من كتاب	٣٣٠
	سورة الروم [٣٠]	
٣	وهم من بعد غلبهم سيغلبون	٢٤٨
٥٨	ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن	٢٤٨
	سورة لقمان [٣١]	
١٧	واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم	٩٦
	سورة الأحزاب [٣٢]	
٦	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	٥٦-٢٢٢
٧	وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك	٢٢١-٤٦-٤٥
٣٣	إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس	١٩٦-١٥٣
٤٠	ولكن رسول الله وخاتم النبيين	
٤٥	إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا	٢٤-٢٢-٢١٨

	سورة الحجرات [٤٩]	
١٣	وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا	١٥٣
	سورة ق [٥٠]	
١	ق	٣٦
٢	والقرآن المجيد	٣٦
٤٥	وما أنت عليهم بجبار	٢١٩
	سورة الذاريات [٥١]	
٢٨	وبشروه بغلام عليم	٢١٦-١٣٩
٥٢	كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول	٤٤
٥٤	فتول عنهم	٤٤
٥٨	ذو القوة المتين	٢٢١
	سورة الطور [٥٢]	
٣٥	أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون	٢٥٣
٣٦	أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون	٢٥٣
٣٧	أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون	٢٥٣
٤٨	واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا	٣١٩-٤٤
	سورة النجم [٥٣]	
١	والنجم إذ هوى	١٦٢-٤٠-٣٧
٢	ما ضل صاحبكم وما غوى	١٦٢-٤٠
٣	وما ينطق عن الهوى	٤١-١٦٢-٤٠
٤	إن هو إلا وحي يوحى	١٦٢-٤٠
٥	علمه شديد القوى	١٦٢-٤٠
٦	ذو مرة فاستوى	١٦٢-٤٠
٧	وهو بالأفق الأعلى	١٦٢-٤٠
٨	ثم دنا فتدلى	-184-186-196١٦٢-٤٠
٩	فكان قاب قوسين أو أدنى	١٩٦-١٨٦-١٨٤-١٦٢-٤٠
١٠	فأوحى إلى عبده ما أوحى	١٦٢-٤٠
١١	ماكذب الفؤاد ما رأى	٠-١٧٩-١٧٧-١٦٨-١٦٢-٤١-٤٠
		١٨٥-١٨٣-١٧
١٢	أفتمارونه على ما يرى	١٨٥-١٧٩-١٦٨-١٦٢-٤٠
١٣	ولقد رآه نزلة أخرى	١٧٩-٤٠-١٦٢

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس المحتويات